



الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي



كلية الآداب و اللغات
قسم اللغة العربية وآدابها

جامعة العقيد الحاج لخضر
باتنة

بوابات النور لابن القاضي دراسة في الموضوعات و الخصائص

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي

تخصص أدب جزائري حديث

إشراف الدكتور:

محيسى مدور

إعداد الطالبة :

صباح لعقون

الموسم الجامعي: 1432/1433 هـ - 2011/2012 م

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

كلية الآداب واللغات

جامعة العقيد الحاج لخضر

قسم اللغة العربية وآدابها

بأئنة

بوابات النور لابن القاضي

دراسة في الموضوعات و الخصائص

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي

تخصص أدب جزائري حديث

إشراف الدكتور:

إعداد الطالبة :

محسي مدور

صباح لعقون

أعضاء لجنة المناقشة:

الأستاذ	الرتبة	الجامعة	الصفة
د . صالح لمبركية	أستاذ محاضر	بأئنة	رئيسا
د . محسي مدور	أستاذ محاضر	بأئنة	مشرفا و مقرا
د . محمد الرزاق بن سبع	أستاذ محاضر	بأئنة	عضوا
د . بلقاسم دحدوك	أستاذ محاضر	أم بواقي	عضوا

الموسم الجامعي: 1432/1433 - هـ 2011/2012 ء

إهداء

أهدي ثمرة هذا الجهد المتواضع ، إلى التي كان اسمها
أول ما نبست به شفتاي ، أمي الحبيبة وإلى الذي كان ولا
يزال سبب وصولي هدي هذا ، والدي العزيز .
إلى الذين لظالما تمنيت إهداءهم هذا العمل في
أحسن حلة ، إلى كل من أعانني ، ومن ...
أعانني .

الرقم	فهرس الموضوعات
ب	مقدمة.....
	الفصل الأول: بوابات الديوان
03	❖ عنوان الديوان.....
09	❖ حياة الشاعر : 1 - نشأته
11	2 - نشاطاته ومهنة
12	3 - نضاله
13	4 - تكريمه
14	5 - أعماله الإبداعية : أ/ الدواوين :
14	أ1- بوابات النور
15	أ2- شعاع الأصيل
21	ب/ الأوبريت
21	ب1- مسيرة الجزائر
23	ب2- صوت الأحرار
27	ب3- ألغام وأنغام
28	ب4- حياة بين آخر
28	ج/ المذكرات :
28	- ذكرياتي في التربية والتعليم.....
28	د/ الأناشيد الوطنية

28	هـ/ القصائد المترجمة من التراث العالمي
29	و/ في علم العروض
31	❖ تأبينه
42	❖ تقديم الديوان : بقلم الأستاذ علي بن محمد
49	التأريخ : تأريخ القصائد للأحداث ، وتقسيمها إلى فترات زمنية

الفصل الثاني: الموضوعات و المضامين في الديوان

55	1. الوطن.....
105	2. الإسلام و العروبة.....
115	3. التربية و التعليم.....
119	4. الطبيعة.....
123	5. شعر الإخوانيات.....
126	6. الرثاء.....
129	7. الحنين.....
131	8. الحكمة و التأمل.....

الفصل الثالث: الخصائص الفنية في الديوان

138	01 – اللغة الشعرية :-
138	1/ الألفاظ :
141	أ- السهولة
142	ب- الفخامة والجزالة

143	ج - التقريرية والمباشرة
144	د - النبذة الخطابية : 1- من ناحية الضمائر
144	2- من ناحية الأفعال
145	3/ التراكيب اللغوية :
145	أ - كثرة استعمال الجمل الاسمية
147	ب - القوالب اللغوية الجاهزة
148	ج - الختام بالدعاء
149	3/ الأساليب :
149	أ - أسلوب الحوار
150	ب - أسلوب الخبر
151	ج - أسلوب الإنشاء :
152	1- النداء
153	2 - الأمر
155	3 - الاستفهام
159	4/ الموسوعة اللغوية للديوان
159	01/ لغة القرآن والقصص القرآني
163	02/ الشعر العربي
167	03/ معجم الحياة وروح العصر
168	04/ التاريخ الإنساني والحضاري
170	02- الصورة الشعرية:-

174		01/ الصورة الكلية : 01- الصورة البصرية
176		02- الصورة السمعية
178		03- الصورة الشمسية
181		الصورة بين التشخيص والتجسيد
185		2/ الصورة البلاغية (الجزئية) : أ – التشبيه
190		ب – الاستعارة
195		ج – الكناية
200		03 – الموسيقى الشعرية :-
201		1/ الموسيقى الخارجية : أ – الأوزان
205		ب – القافية : * حروف الروي في الديوان
207		* القافية المطلقة والمقيدة
208		2/ الموسيقى الداخلية :
209		أ – التصريع
210		ب – التكرار :
211		1- تكرار الحروف
212		2- تكرار الألفاظ
213		3- تكرار الجمل
215		ج – الترصيع
216		د-الجناس
221		خاتمة

قائمة المصادر والمراجع

فهرس الموضوعات

مقدمة

==

=====

إن الشعر الجزائري الحديث شهد كنظيره في المشرق العربي جميع التطورات من حيث الظواهر الفنية والشكلية ، وجاء نتاج الشعراء الجزائريين مواكبا لهذه التطورات ، كلٌ حسب اقتناعه وحسب نظرته إلى ما يسمى بالتقليد والتجديد المعاصر ، ولعل العديد من الشعراء الجزائريين لا يزالون تحت الظل ولم يَستَحْ لأعمالهم أن تكون محل دراسة وتقييم جادين .

والشاعر عبد القادر بن محمد بن القاضي أحد هؤلاء ، فكان محل الدراسة في هذا البحث المتواضع الموسوم بـ « بوابات النور لابن القاضي ، دراسة في الموضوعات والخصائص » ، وقد وقع الاختيار على هذا الموضوع عن قناعة أن هذا الشاعر لم يظهر اسمه على الساحة الأدبية ، على الرغم من وجود أعمال كثيرة لديه تستحق فعلا الاهتمام ، كما أن البحث في ميدان الأدب الجزائري غالبا ما يتناول بالدراسة من هم من مشاهير الأعلام ، لذلك وددت أن أطرق باب هذا الشاعر ، وأتعرّف عليه وأعرفه إلى الأسرة الباحثة في جامعتنا .

والمطلع على ديوان هذا الشاعر يجد أنه مغرٍ كثيرا من حيث مضامينه مع وجود نوع من التجديد المرافق للأصالة فيه ، ذلك أن الشاعر ممن أبصر أنوار حرية التفعيلة ، ولكنه مع ذلك ظل وفيا للشعر العمودي .

أما خطة البحث ، فقد اقتضى مسار الدراسة أن تتكون من ثلاثة فصول : اهتم فيها الفصل الأول بفتح بعض البوابات للدخول إلى عالم الديوان وصاحبه ، بداية بالعنوان : لماذا اختاره صاحبه بهذا الشكل ، وهل من علاقة تربطه بعناوين أخرى ، ثم كان المناسب الانتقال إلى التعرف على الشاعر من حيث بعض المراحل في حياته مثل : نشأته ، نشاطاته ومهنة ، نضاله ، تكريمه ، وأهم شيء أعماله وإنتاجه الأدبي من دوواين وأوبريت ومذكرات وأناشيد وطنية وقصائد مترجمة من التراث العالمي ، وفي علم العروض أيضا ، بعدها ثم التعرض لمخطات أخرى كانت خفية عن الشاعر من خلال مقال تأييني عنه ، وللاقترب أكثر فأكثر من الديوان تفحصت الدراسة التقديم الذي كتبه الأستاذ علي بن محمد عنه ، ليختتم الفصل بجانب التأريخ في الديوان ، من حيث تأريخ القصائد للأحداث ، وتقسيم إنتاج القصائد إلى فترات زمنية .

وتضمن الفصل الثاني من الدراسة عرض الموضوعات والمضامين التي احتواها الديوان والتي تمثلت في : شعر الوطن ، الإسلام والعروبة ، التربية والتعليم ، الطبيعة ، الإخوانيات ، الرثاء ،

الحنين، الحكمة والتأمل ، مع بيان ما إذا كانت هذه المواضيع شائعة التداول بين الشعراء ، ومدى قيمتها ، وعمق المعاني المرسلة منها .

أما الفصل الثالث يندرج ضمن دراسة الخصائص الفنية المميزة للديوان ، بداية باللغة من حيث دراسة ألفاظه وتراكيبه وأساليبه ، ثم تفحص الموسوعة اللغوية في الديوان ومختلف مصادرها ومنابعها .

ليأتي الدور على دراسة الصورة الشعرية : الكلية ، الجزئية ، والصورة بين التشخيص والتجسيد . أما من الناحية الموسيقية تضمنت في شقيها : الموسيقى الخارجية بالنظر في الأوزان والقوافي ومدى كثرة استعمال بعضها على بعض ، والموسيقى الداخلية وما لها من جماليات .

ويصل البحث في الأخير إلى خاتمة تضم مجموع النتائج التي استخلصتها في رحلة دراسة هذا الديوان .

كان المنهج التاريخي أول المناهج التي لزم اتباعها في التعامل مع المادة التاريخية التي تتضمن حياة الشاعر ومختلف الأحداث التي عايشها وأثرت في شعره ، والمنهج التحليلي كان الوسيلة الناجعة للولوج إلى مضامين الديوان وتفهم معانيه وكشف أسرار ورسائله ، أما الجوانب الفنية في البحث فاستدعت إتباع المنهج الفني لاكتشاف جماليات اللغة والخيال عند الشاعر ، والكشف عن عدد البحور وحروف الروي ونسب ورودها في الديوان استلزم المنهج الإحصائي .

كان الديوان هو المصدر الخام الذي اعتمدت عليه الدراسة ، والفضل يعود لمصادر أخرى أثرت مثل : الشعر الجزائري الحديث للدكتور محمد ناصر ، والشعر الديني الجزائري الحديث لعبد الله الركيبي ، والشعر الجزائري الحديث للدكتور صالح خرفي ، والأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير للدكتورة نور سلمان ، وكتاب الأسس الجمالية في النقد الأدبي للدكتور عز الدين إسماعيل ، الصورة الأدبية للدكتور مصطفى ناصف ، والصورة الفنية لجابر عصفور ، موسيقى الشعر العربي للدكتور شكري عياد ، أسرار البلاغة للجرجاني وغيرها من الكتب التي أعانتني بالقدر الكبير في هذه الدراسة .

في الحقيقة لا يخلو بحث من صعوبات أو عثرات قد تثبط من عزيمة الباحث أحيانا ، وقد ترهق كاهله أحيانا ، لعل أهمها على الإطلاق صعوبة الوصول إلى مصدر معين رغم العلم بأهميته ، ومع ذلك لابد من الصبر والثبات لتذليل ما صعب وسير البحث قدما رغم كل شيء .

وفي الأخير إذ تعوزني الكلمات التي تسعفني لأتم شكري وبالغ امتناني لأستاذي المشرف الدكتور عيسى مدور على جمال صبره عليّ ، وأخذه بيدي وأنا أتعثر ، وتوجيهه لي وإرشاده ، ودعمه المعنوي والعلمي اللذين يعينان لي الكثير ، فجزاه الله عني ألف خير .

وجزى شكري وتقديري إلى كل من ساهم في إتمام هذا الجهد المتواضع من قريب أو من بعيد مهما كان مقدار هذا الدعم.

ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر والعرفان لهذا الصرح العلمي الممثل في جامعة العقيد الحاج لخضر بباتنة ، خصوصا قسم اللغة العربية وآدابها ، الذي فتح لي أبوابه لأتمكن من مواصلة البحث العلمي ، وأشكر جميع الإطارات والأساتذة الساهرين على القطب الجامعي على تعاونهم وتسهيلاتهم التي قدموها لي من أجل إنجاح هذا العمل .

ختاما ، فإن أصبت بفضل الله تبارك وتعالى ، وإن أخطأت فمن نفسي والله المستعان .
والحمد لله رب العالمين .

الفصل الأول

في بوابات الديوان

❖ عنوان الديوان

❖ حياة الشاعر : 1 - نشأته

2 - نشاطاته ومهنة

3 - نضاله

4 - تكريمه

5 - أعماله الإبداعية : أ/ الدواوين :

أ1- بوابات النور

أ2- شعاع الأصيل

ب/ الأوبريت

ب1- مسيرة الجزائر

ب2- صوت الأحرار

ب3- ألغام وأنغام

ب4- حياة بين آخر

ج/ المذكرات :

- ذكرياتي في التربية والتعليم

د/ الأناشيد الوطنية

هـ/ القصائد المترجمة من التراث العالمي

و/ في علم العروض

❖ تأيينه

❖ تقديم الديوان : بقلم الأستاذ علي بن محمد

❖ التأريخ : تأريخ القصائد للأحداث ، وتقسيمها إلى فترات زمنية .

هذا الفصل من البحث سيتناول بعض المحطات التي أدت إلى ظهور هذا الديوان ، والقصد من ذلك الوقوف عند عتبات هذا الديوان أو ما يسمى بوابات الديوان ، فمن الوهلة الأولى يتساءل الدارس عن عنوان هذا العمل الشعري ، لماذا أطلق عليه صاحبه مثل هذه التسمية ، ثم سنتبع علاقة هذا العنوان بباقي عناوين أعمال الشاعر عبد القادر بن محمد ، في شكل مقارنة أو وقفة عند بعض التقاطعات الإيحائية والدلالية بين هذه العناوين ، فضلا عن التوقف عند أهم مراحل حياة الشاعر ، مع عرض بسيط لأهم أعماله الشعرية ومؤلفاته .

ثم نعود إلى الديوان لتفحص طريقة تقديمه لأنها تشكل المفتاح الذهبي الذي يسمح لنا بفتح كل بوابات النور ، وتسهل فهمها ، والوصول إلى مقاصد الشاعر ، ويشكل الإطار الزمني قسما من الدراسة ، حيث سنتوقف عند مختلف المراحل وما ميز كل مرحلة من حيث مضامين قصائده ، ومدى قوة تجربته الشعرية ، وكل الأمل والرجاء أن يوفقنا الله في أن نوفى الرجل ولو جزءا بسيطا من حقه ، ونؤدي قسما من واجب تقديمه إلى الأسرة الأدبية . -

عنوان الديوان :

يعتبر العنوان للعمل المكتوب بمثابة إطلاق الاسم على الشيء ، فيعرف به ويتداول بفضله ، ويشار إليه به ، ولا أحد ينكر ما للعنوان من فعالية تصل إلى جعله نصا بحد ذاته كالعمل الذي يدل عليه ، له دلالات وإيحاءات ، ونتيجة للعلاقة بين العمل وصاحبه فإنه « يؤول عمله ، فيتعرف منه على مقاصد ، وعلى هذه المقاصد يضع عنوانا لهذا العمل ، بمعنى أن العمل من جهة " المرسل " : هو ناتج تفاعل علاماتي بين المرسل والعمل ، أما المستقبل فإنه يدخل إلى العمل من بوابة العنوان متأولا له ، وكثيرا ما كانت دلالية العمل هي ناتج تأويل عنوانه . »¹

1 - د. محمد فكري الجزار - العنوان وسيميوطيقا الاتصال الأدبي - الهيئة المصرية العامة للكتاب - 1998 - ص 19 .

فإذا أردنا أن نقتدي إلى العنوان كمفهوم فيمكن القول أنه « نظام سيميائي ذو أبعاد دلالية ورمزية وأيقونية ، وهو كالنص ، أفق ، قد يصغر القارئ عن الصعود إليه ، وقد يتعالى هو عن التزول إلى القارئ ، وسيميائيته تنبع من كونه يجسد أعلى اقتصاد لغوي ممكن يوازي أعلى فعالية تلقى ممكنة تغري الباحث والناقد بتتبع دلالاته ، مستثمرا ما تيسر من منجزات التأويل . »¹

والمسلم أن النص الشعري أو أي عمل أدبي محاط بعدة سياجات لغوية ومعنوية ، ويمثل العنوان من بين هذه السياجات « أول عتبة يمكن أن يطأها الباحث قصد استنطاقها واستقراءها ، بصريا ولسنيا ، أفقيا وعموديا . »²

وقد اختلف الدارسون في تحديد وظائف العنوان اتجاه العمل فمنهم من أشار إلى « وظيفة التعيين والإعلان عن المحتوى ، أو إلى وظيفة التجنيس ، أي التي تكشف عن نمط النص أو جنسه أو نوعه : رسائل ، مقامات ، مذكرات ... »³ .

ومن ثم فإننا ندرك أن العنوان يقدم وظيفته على جبهتين : الأولى أنه كيان نصي قائم بذاته يتطلب قراءة وفهما وتأويلا ، والثانية أنه جزء من كيان آخر أكبر منه يدل عليه وهو العمل الذي يعرف به ، فعلى الدارس « أن يدرك أن العنوان غدا جزءا من إستراتيجية النص ، لأن له وظيفة في تكوين اللغة الشعرية ليس بوصفه مكملا أو دالا على النص ، ولكن من حيث هو علامة لها بالنص علاقات اتصال وانفصال ، ولها مقوماتها الذاتية ، فالعنوان مثله مثل غيره من العلامات المنتجة للمسار الدالي الذي نكوّنه ونحن نؤول النص والعنوان معا . »⁴ .

1- د. بسام موسى قطوس - سيمياء العنوان - طبع بدعم من وزارة الثقافة - عمان الأردن - ط 1 - 2001 - ص 6

2- د. جميل حمداوي - السيميوطيقا والعنونة - عالم الفكر - 1997 - ص 97 .

3 - د. بسام موسى قطوس - سيمياء العنوان - ص 51 .

4 - رشيد يحيى - الشعر العربي الحديث - دراسة في المنجز النصي - إفريقيا الشرق 1998 - ص 110 .

وإذا عدنا إلى عنوان الديوان قيد الدراسة الذي حمل صيغة " بوابات النور " فإن أول ما سنلاحظه على بنية لغة العنوان أنه مركب من صيغة اسمية خالية من مكون الأفعال ، لذلك يمكن أن نغزو المركب الإسمي إلى العلاقة الوطيدة بين مضمون العنوان والنمط الوصفي للعمل الشعري ، أي أن العنوان يقدم بلاغا وصفيا عن العمل ، ويدل عليه من خلال وصفه بعنصرين : بوابات + النور ، ولكل منهما معنى مقصود : فإذا كانت البوابة تعني المدخل الكبير ، فإن هذا يعني أنها حاجز يفصل بين عالين ، وفي نفس الوقت يصل بينهما ، ولكن يهتم ألا يحدث هناك خلط بين العالين ، وإذا قلنا باب من الكتاب فهو يعني فصلا منه .

وهذا وإذا تأملنا اللفظة الثانية " النور " تبادر إلى فهمنا أن العالم الذي فصلته هذه البوابة إلى قسمين هو عالم من النور وآخر من الظلام ، فالنور يحمل من المعاني ما يجعله يساعد الأجسام على الظهور للبصر ، فهو ظاهر لذاته ، ومظهر لغيره ، وهذا هو النور المحسوس المعروف ، وهو إذ يظهر الأشياء الأخرى فهذا يعني أنها كانت معدومة في ظلمتها ، فإيجادها يعني إظهارها إلى الوجود بعد إعدامها في حوالك الظلام .

والنور له علاقة وطيدة مع الضياء ، فكلاهما نور ، لكن الضياء حالة أشد من النور ، كما أننا إذا قلنا نور البيت مثلا فإننا نقصد مصباحه الذي ينشر ضياء على أهل البيت .

وإذا كان ما سبق من الكلام ، يختص بشكل الألفاظ الخارجي للعنوان بمعنى أن هناك مستوى آخر ، فالعنوان في مستواه « السطحي يتمثل في كمية الإعلام التي يبثها ، وفي الوقت نفسه ، فإن له مستواه العميق المبني على ... الإبداعي وذلك مرهون بحصة المتلقي العارف للكشف عن هذه المستويات. »¹

والمقصود بهذا القول أن صاحب العمل وهو يختار عنوانا قد تلتقي في ذهنه العديد من النصوص ، ويظهر مفعولها أو أثرها في هذا العنوان ، ومثالنا في هذا العنوان انه قد يحدث وان استحضّر الشاعر عديد النصوص القرآنية التي جعلته يتأثر بمضمون رسائلها ، وما يحمله ديوانه من مقاصد مشتركة قد تكون دينية أو أخلاقية أو اجتماعية أو حتى سياسية ، وذلك حسب المتلقي الذي أرسل إليه هذا العمل من « قراء يرغبون في الحصول على كامل الشعر الصادر في الديوان ، وكامل ما أنتجه الشاعر إلى حين صدور الديوان على العموم ، فيحمل الديوان هنا بعدا تربويا يتأطر باسم هذا الشاعر. »¹

وإذا كان إيجاد النور في حياة الناس ، وفي أذهان القراء بهذه المتزلة فإن الشاعر لابد أنه اقتبس هذا النور من منبعه الأصيل ، فقد استخدمت لفظة " النور " في القرآن الكريم لتحمل دلالات يمكننا إسقاطها على بنية العنوان ، فقله تعالى : ﴿ الله نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح ﴾² ، وهنا نفهم أن النور يكتسي معنى الهداية إلى الخير والصلاح ، فالله يهدي لنوره من يشاء ، وفي آية أخرى يقول تعالى : ﴿ وجعلنا له نورا يمشي به في الناس ﴾³ ، فالنور هنا من باب الهداية ، كما يكون الظلام من باب الضلال .

أما من الناحية الاجتماعية والتربوية ، فيمكن أن يحمل " النور " دلالة الاجتهاد في طلب العلم والسير في الوصول إلى أكمل وأنبل درجاته فالعلم نور كما يقال ، وما أخال هذا المقصد قد غاب عن الشاعر وهو يُعَنُونُ ديوانه .

ولئن كانت دعوة الشاعر إلى طلب العلم لتفتح له واحدة من بوابات النور ، فإن المتلقي الذي يستقبل هذه الدعوة وهو لاشك الجزائري خصوصا ، والعربي والمسلم عموما فإنهم يدركون أن

1 - محمد بنيس - الشعر العربي الحديث - بنياته وإبدالاتها - التقليدية - دار توبقال للنشر - ص 93 .

2 - سورة النور - الآية - 35 .

3 - سورة الأنعام - الآية - 122 .

الشاعر يدعوهم أيضا إلى الحفاظ على هذه الهويات : وطنية ، عروبة وإسلاما ، وإثباتها ككيان واحد يحقق لهم طموح الحياة الكريمة ، التقدم والحرية . ألا تمثل هذه الأقطاب التي ذكرناها أشعة نورانية كان الشاعر يقصدها .

ويمكن أن يكون القصد من " النور " ، النبل في العلاقات الإنسانية والسمو بروح الإنسان إلى أسمى مراتب الصفاء ، فيصبح بذلك هذا النور وكأنه قيس يهتدي عليه كل سائر في دروب الحياة ، وفي مسيرة الإنسان في الدنيا ، وهي مسيرة مخوفة طبعاً بالظلم والظلام .

والمأمل للعناوين الفرعية التي اختارها الشاعر لفصول ديوانه والذي قسمه بها حسب الغرض الشعري، وحسب مضامين قصائده يجد أنها ذات علاقة من قريب أو من بعيد مع كل القراءات ومحاولات فهم العنوان التي سبق ذكرها.

فكل قصائد هذه الفصول تدور في حقل دلالي واحد يتقاطع مع مدلول النور، وهذه العناوين الفرعية اختصت بـ: الإسلام والعروبة، الوطن، التربية والعلم، العلاقات الإنسانية مثل: الصداقة والوفاء، والمقامات الوجدانية مثل المناجاة، الرثاء والتأمل.

حتى القصائد ذاتها ، سواء أكانت تحمل عنوانا أو مطلعا ينوب عن العنوان فهي لا تعدو تدور في الحلقة الدلالية للنور وحتى للنار مثل : إقبال الحرية ، إلى روح الشهداء ، أيها الطالب قم ناج العلا ، مناجاة البدر ، عد إلينا بصباح مشرق ، الفضيلة وغيرها من القصائد .

وما يؤكد لنا هذه النظرة ، القول الذي استهل بها الدكتور **علي بن محمد*** تقديم الديوان حيث أوضح انه غاص في حالة من الضياء والظلال وهو يقرأ الأبيات ، ويراجع ذكرياته مع أستاذه صاحب الديوان عندما « عكفت على قصائد هذا الديوان أطلعها ، وأسجل الملاحظات التي سأدير عليها هذه الأسطر ، أخذت تتجاذبني خيالات مبهمة لماض أضحي بعيدا جدا ... وما إن مضيت

* - أستاذ بمعهد اللغة العربية وآدابها بجامعة الجزائر .

شوطا في الذي أنا فيه ، حتى أخذت هيئة تلك الخيالات تتمايز شيئا فشيئا ، وتترابط أكثر فأكثر إلى أن انتظمت واتسقت ، واتضحت في قسماتها الأضواء والظلال ، واستوت في النهاية مشهدا حيا ، محكم الأجزاء والتفاصيل ، مقتطعا من أيام عزيزة ماضية ، أخذني لمنظرها غير قليل من الدهشة .¹

فالكاتب هنا يعترف أن نور الديوان انعكس على ذاكرته فأنارت له دروب الماضي والأيام الخوالي التي عاشها وأحبها ، وأصبحت مشهدا مضاءا وكلما زاد ضوؤه ، زاد وضوحه في ذهنه ، وفي خياله .

حتى انه ليعجب من أثر هذه القصائد على قوة استرجاعه بذلك الوضوح فيقول : « ثم تقوين على أن تستعيدي - من غير طلب - بمثل هذا الصفاء والوضوح مشهدا مضى عليه أكثر من عشرين سنة ، حتى كأنما هو شريط التقطه مصور بارع ، فهو اليوم يعرض علي ، وأنا أحيى وقائعه من جديد ، كما يعاين الممثل فلماً قام فيه بدور رئيسي ، فهو في آن واحد شاهد ومشهود .² »

يمكن أن يكون هذا ناحية من نواحي استقراء العنوان ، ومن ناحية أخرى يمكن أن يتقاطع هذا العنوان مع بعض عناوينه الأخرى ، ولنأخذ مثالا عن بعض أعماله الشعرية الأخرى ، إذا استبقنا الحديث ، وقلنا أن للشاعر ديوانا شعريا آخر بعنوان " شعاع الأصيل " ، ومن بين رواياته الشعرية : " ألغام وأنغام " ، فتركيبة عنوان الديوان الثاني " شعاع الأصيل " هي الأخرى تركيبة خالية من الأفعال وكذلك عنوان الرواية الشعرية ، أما من الناحية الدلالية ، فيبدو لنا جليا أن " الشعاع " و " الأصيل " لفظان ينظمان في حقل النور والضياء ، فالأول هو حزمة النور والثاني هو وقت من أوقات النهار يتميز فيها هذا النور ، بينما الرواية الشعرية تحمل في طيات عناونها بصمة صورة صوتية في انفجار اللغم الذي يكسر شوكة المستعمر ، لتنبعث الأنغام مهللة بقدوم الحرية ،

1 - بوابات النور - المقدمة - ص 9

2 - بوابات النور - المقدمة - ص 9

وأحسب في خضم هذا الخصب بين اللغم والنغم أن ينبعث ضوء من هذا الدوي ، ومن تلك الحرية التي تنبعث نورها على الجميع .

هذه قراءة أولية في العنوان ، وقد تكون قراءات أخرى تشترك معها في تفسير ظلاله ، وقد تخالفها إلى آراء أخرى ، بالاعتماد على وجهة نظر القارئ .

حياة الشاعر :

1- نشأته :-

اسم الشاعر الكامل هو " عبد القادر بن محمد بن القاضي " ، ولد بمدينة باتنة عاصمة منطقة الأوراس بالشرق الجزائري ، وذلك يوم 22 جوان 1925 م ، من أب ينحدر أصله من عائلة بني القاضي القاطنين منذ عهد بعيد بنفس البلدة وضواحيها ، نسبه من جهة أبيه « محمد الهاشمي بن إبراهيم بن الشريف بن محمد بن بلقاسم المعروف بابن القاضي ، وهو صاحب زاوية أولاد القاضي في قرية جرمة بالقرب من مدينة سريانة ، أما أمه فهي من عائلة عمار الشريف حداد بن محمد بن عمر بن بلقاسم بن الشريف ، وكل منهما ولد في قرية " آشير " بجبال الأوراس .¹

قضى الشاعر معظم طفولته في مسقط رأسه ، وبعضا من سنوات شبابه ، كما أمضى خمس سنوات مترددا على البلدات القريبة من باتنة وهي : « خنقة سيدي ناجي في الجنوب ، ثم في سيدي معنصر ودوار عيون العصافير وأولاد موسى ، وقرية عين مليلة .²

تابع دراسته الابتدائية في مدينة باتنة في " مدارس الأهالي " ، التي كانت تسمى مدارس " أندجان " ، ثم انتقل إلى « المدرسة الابتدائية العليا منذ سنة 1939 إلى غاية سنة

1 - عبد القادر بن محمد بن القاضي - شعاع الأصيل - طبع المؤسسة الوطنية للنشر والاتصال والإشهار - وحدة الرواية -

2000 - ص 7 .

2 - عبد القادر بن محمد بن القاضي - بوابات النور - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1990 - ص 7 .

1945 ، وهي فترة الحرب العالمية الثانية » ، وقد أثرت هذه الحرب بظروفها القاسية على الشاعر ، فغير مجرى دراسته ، فالتحق « بمدرسة قسنطينة ، أمضى فيها أربع سنوات ، وتخرج إثرها ، ثم أكمل دراسته في معهد الدراسات الإسلامية العليا بالجزائر العاصمة من أكتوبر **1949** إلى جوان **1951**»¹

ولم يكتف الشاعر بما نهل من هذه المدارس ، وما تعلمه في المدارس الفرنسية بل كان يتردد على كتاتيب القرآن الكريم في مدينتي باتنة وعين مليلة ، وعلى حلقات الدرس التي كانت تعقد في المسجد الجامع لمدينة باتنة ، وقد تتلمذ في هذه الحلقات وهذه الدروس على يد المشايخ : الشيخ الأخضر السلامي ، الشيخ موسى المعافي ، والشيخ الطاهر الحركاتي ، والشيخ المكي - رحمهم الله - كما كان يتابع في الوقت ذاته دروس المدرسة الحرة التابعة للجمعية المحلية لمدينة باتنة ، والتي كان يشرف عليها الشيخ الشاعر **محمد العيد آل خليفة** .² ، والمؤكد أن الشاعر واحد من أبناء هذا الشعب الذي عانى من ويلات الاستعمار ، لذلك فقد وقفت العقبات بكثرتها واختلافها في وجه مواصلته للتعليم ، فقد تعثر مرارا بسبب ظروف عائلية قاسية خاصة ، وبسبب حاصر البلاد الاجتماعي والسياسي خاصة ما تعلق منه بتبعات الحرب العالمية الثانية .

ورغم العقبات ، والعثرات ، فنحن نعترف من خلال هذه المسيرة في طلبه العلم ، أنه كان ذا عزيمة ، وصاحب إيمان وأمل في أن العمل الجاد والإصرار على إتمامه ، لا بد أن يعطي ثماره .

1 - عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 7 .

2 - موسوعة شعراء الجزائر - ص 775 .

2- نشاطه ومهنة :-

تخرج الشاعر من المدرسة الإسلامية العليا ، بعدها تفرغ لميدان العمل ، وتقلد عدة مناصب كان معظمها في التعليم والتكوين والإدارة ، فقد عمل مدرسا في « مدرسة " أرمندي " في عنابة ، وأقام بها أربع سنوات امتدت من أكتوبر **1951** إلى نهاية جوان **1955** »¹ ، ثم عين أستاذا لمادة اللغة العربية والأدب في « المدرسة التي تعلم بها بقسنطينة ، وقد درس بها **07** سنوات إلى غاية صيف **1962** ، كما أنه درس مدة يسيرة في مدرسة " بيريقو " في المحمدية قبل التحاقه بالمدرسة الإسلامية العليا .²

وهذا وقد قدم دروسا في التاريخ والسيرورة النبوية والعروض العربي بـ « المركز الجامعي الذي أنشئ بمدينة قسنطينة غداة الاستقلال .³

وبعد أن استقل الوطن ، أصبحت مهمة البناء ، ورسالة تنوير النشئ على عاتق الشاعر وأمثاله ، إذ لابد لهؤلاء أن يكونوا قائمين على هذه المسائل الخطيرة ، خاصة وأن البلد كان يرزأ تحت ظلمات الجهل في عصور طويلة وباردة من الاحتلال ، لذلك كان ... بالأمة أن تستنجد بالشاعر وبإخوانه لذلك فقد تقلد مناصب عليا حولته أن يشرف على مبادئ التعليم والتربية ، فقد « أصدر المكتب السياسي في **27 أوت 1962** قرارا بتعيينه مفتشا للغة العربية بولاية قسنطينة للإشراف على الموسم الدراسي الجديد وتنظيم تعليم اللغة العربية بتلك الناحية ، وما لبث أن تم تعيينه مفتشا بأكاديمية قسنطينة في نفس العام ، ولبث فيها زهاء **09** سنوات إلى نهاية عام **1971** ، ثم التحق بعدها بوزارة التعليم الابتدائي والثانوي ، حيث أدار شؤون التربية والتكوين لمدة **06** سنوات .⁴

1 - موسوعة شعراء الجزائر - ص 775 .

2- عبد القادر بن محمد - بوابات النور - ص 8 .

3- عبد القادر بن محمد - شعاع الأصيل - ص 8 .

4 - عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 8 .

ثم غادر الشاعر المديرية التربوية ، لأنه كلف بمهام سياسية ، لتشاء الأقدار بعدها أن يعود إلى وزارة التربية الوطنية « ليشرف من جديد على مديرية التكوين من سبتمبر 1979 إلى سبتمبر 1984 م ، ويبدو أنه كان قبل هذه الفترة عضوا دائما في لجنة حزب جبهة التحرير الوطني للثقافة والتربية والتكوين .¹ ، وبقي الشاعر في ميدان التربية وهو يرتقي في سلم الدرجات إلى « غاية 1986 ، حيث كان قد عين رئيسا لديوان وزارة التربية الوطنية ، لينتقل بعدها إلى رئاسة ديوان وزارة العدل مدة ثلاث سنوات ، ثم يعين مجددا بوزارة التربية والتكوين أمينا عاملا لها ، ثم دعي بعد ذلك لتدريس مادة العروض في جامعة الجزائر المركزية مدة عام ، ليعكف بعدها على تقويم نفس المادة في كتب السنة الأولى والثانية ثانوي .²»

إن هذه المسيرة المهنية لأصدق دليل على حب الشاعر لرسالته إلى أمته ، ونبيل مقصده في بناء هوية الشعب الجزائري ، وجعل العروبة والإسلام وحب الوطن أسسا متينة لهذا البناء ، فقد أحب التعليم ، وجاد بحياته عليه .

3 - نضاله :-

إن أول نضال نشهد به للشاعر هو ما ذكرناه آنفا ، حين عين عضوا في لجنة حزب جبهة التحرير الوطني للثقافة والتربية والتكوين بعد عام 1971 ، وقد انخرط « الشاعر منذ صغره في الخلايا السرية لحزب الشعب الجزائري ، ثم انضم إلى المنظمة السرية لجبهة التحرير الوطني ، وقبلها كان منخرطا في حزب انتصار الحريات الديمقراطية ، وقد نشط في الحركة الوطنية منذ عام 1943 ، أي في ريعان شبابه ، وانظم إلى صفوف جبهة التحرير الوطني منذ عام 1955 ، وكان يتحرك

1 - عبد القادر بن محمد - شعاع الأصيل - ص 8 .

2 - عبد القادر بن محمد - شعاع الأصيل - ص 8 .

مناضلا ضمن المدن التي عمل بها وهي باتنة ، قسنطينة ، عنابة الجزائر العاصمة .¹

4 - تكريمه :-

بفضل قيمة عمله الأدبي ، استطاع الشاعر أن يفتك عدة جوائز في مناسبات شعرية وأدبية مختلفة ، ففي عام « 1987 حاز الجائزة الثانية في المسرح الشعري ، كما حصل على الجائزة الشرفية في مسابقة تأبين الرئيس محمد بوضياف رحمه الله .²

كما أنه كان من بين المكرمين بجوائز « مؤسسة الباطنين ثلاث مرات ، وقد نشرت هذه التكريمات في كتاب خاص بالمؤسسة ، نشر له الأستاذ العربي دحو قصيدة في كتاب من تأليف جماعي بعنوان - مختارات من الشعر العربي في القرن العشرين - ³

ويشهد له هذا الأستاذ بحبه للغة العربية وتبحره في علومها ، وإجادته وإفادته في عروض الشعر وقوافيه وموسيقاه .

أما في الوطن ، فقد « قلده وزير التربية وسام الاستحقاق الوطني في 16 أفريل 1998 ، كما عينه رئيس الجمهورية عضوا باللجنة الوطنية لإصلاح المنظومة التربوية في ماي عام 2000 ، كما كرمته كل من مدينتي باتنة وسطيف بشهادات شرفية وتقديرية على أعماله ، وحاز على تقدير وتشريف وزارة الثقافة لمشاركته الأدبية في المناسبات الوطنية .⁴

1 - المقدمة من كتابه - الشعر العربي وأوزانه وقوافيه - موفم للنشر والتوزيع - الجزائر 2003 - ص 6

2 - موقع جوائز الباطنين - [www.http://www.ALBABTAINPRISE.org/incyclopedia/poet/0946](http://www.ALBABTAINPRISE.org/incyclopedia/poet/0946) - HTM .

3- مقابلة مع الأستاذ الدكتور : العربي دحو في أفريل 2008 .

4 - عبد القادر بن محمد - الشعر العربية وأوزانه وقوافيه - المقدمة - ص 7 .

وقد اختارت اللجنة القائمة على اختيار القصائد الشعرية ، من أعمال الشاعر عبد القادر قصيدة " الشاعر والليل " ¹ التي تضمنها ديوانه الأول بوابات النور ، وكان الشاعر ضمن نخبة الشعراء الذين وردت لهم قصائد في هذا الكتاب أمثال " (محمد المولود بن الموهوب ، محمد الصالح خبشاش ، رمضان حمود ، إبراهيم صديقي ، عمر ازراج ، مصطفى الغماري ، عبد الله حمادي .) ، لقد كانت هذه المختارات بمثابة « سلسلة طويلة ممتدة عبر القرون ، وقد حفظت لنا الكثير من القصائد والقطع الآسرة التي تغنت بها أجيال كثيرة على مر التاريخ ، وتمثل اهتماما متأصلا بالشعر الذي يتجاوز لحظته الراهنة ، وإذ نمشي خطوة في هذا الدرب ، لابد أن نذكر بفخر واعتزاز روادا أوائل عبدوا لنا هذا الطريق ، ومن يستطيع أن ينسى حماسة **أبي تمام** ومفضليات الضبي كمنارين على شاطئ الشعر الممتد . » ²

5 - أعماله الإبداعية :-

ذكرت أعمال الشاعر في مؤلفه " الشعر العربي أوزانه وقوافيه " ، وبنوع أكثر من التفصيل :-

أ/ الدواوين : جمع الشاعر قصائده الشعرية في ديوانين هامين هما :

1* ديوان بوابات النور : جمع الشاعر في هذا الديوان قصائده التي نظمها

منذ بداياته في النظم أيام شبابه إلى غاية **1983** ، وهو ديوان يمثل بحق صورة مركزة لحياة صاحبه ، ولا تخلو قصائده بشكل أو بآخر من أن تكون « صدى بين النبرات لمقطع من مقاطع حياته العاطفية أو المهنية أو السياسية ، حتى أنها لتصلح أن تعتمد لتأريخ تطور الحياة الوطنية في مناحيها السياسية والاجتماعية والثقافية » ³ ، إن الشعر في نظر الشاعر « ليس مجرد قيثارة يلجأ إليها الشجي في عنفوان

1 - مؤسسة عبد العزيز مسعود الباطين للإبداع الشعري - مختارات من الشعر العربي في القرن العشرين - إعداد ماجد الحكواتي عدنان جابر - الكويت - 2001 - ص 85 .

2 - مختارات من الشعر العربي - مقدمة بقلم الأستاذ العربي دحو وعبد الله حمادي - ص 6

3 - علي بن محمد - مقدمة الديوان - ص 11 .

لوعته ليث أوتارها بعض ما يتأجج في جوانحه من اللهب ، ولكنه آمن إيماناً راسخاً بأن الشعر رسالة نضال وليس حائط مبكى يذرف عنده دموع الضعف والاستكانة ، إنه في نظره رسالة يؤديها الشاعر بالإخلاص التام لانتماؤه الوطني والحضاري والفكري ، والتبشير الدائم بمبادئه ، والدعوة المتواصلة إلى العمل الجاد في سبيل أن تملأ همسة الخير على قرعة الشر ، وتغلب النور ، ولو كان مصدره شمعة مستضعفة على جحافل الظلام .¹

2* ديوان شعاع الأصيل : يضم هذا الديوان القصائد التي نظمها الشاعر إلى غاية ديسمبر

1999 ، وهو عبارة عن تكملة لمسيرته الشعرية المتصلة اتصالاً وثيقاً بالحياة الواقعية لوطنه ومجتمعه وللإنسانية جمعاء .

وقد كتب السيد " علي بن فليس " الذي كان وزير العدل سابقاً كلمة مقدمة لهذا الديوان ، وقد أعرب الرجل عن فخره الشديد حين طلب منه الشاعر تقديم الديوان ، واعتبر ذلك تقديراً له ، لأنه تقدير ، لأنه يرى أنه سيحاول أن يرد بعض ما عليه من دين وجميل اتجاه أستاذه الكبير ، لأنه غرس فيه حب احترام الحضارة العربية ، واحترام المعلم الذي جعله في مرتبة الأب الثاني .

ويعود الكاتب إلى ذكرى بداية صلته بأستاذه « أيام كان يدرس بثانوية " حيحي المكي " بقسنطينة ، حيث درس على يده الأدب العربي وعلم العروض بوجه خاص ، وكان هذا الدرس يوم الاثنين من كل أسبوع لمدة عام كامل .² » ، ويحن الأستاذ علي بن فليس إلى هذه الأيام ، ويقر أنه مهما حاول هو وزملاؤه أن يوفيه حقه ما قدر ، ويعترف برسوخ هذه الذكريات وامتزاجها بالروح والعاطفة وثباتها في الذهن والوجدان .

1 - المقدمة - ص 18 .

2 - الأستاذ علي بن فليس وزير العدل سابق - مقدمة ديوان شعاع الأصيل - ص 13 .

وتشاء الأقدار أن يجتمع الرجلان في ميدان وزارة العدل ، فيكون التلميذ وزيرا ، وأستاذه رئيسا لديوانه ، فساهم هذا اللقاء في تجديد العلاقة بينهما وازداد احترامهما له وتقديرهما لأخلاقه وأدبه ، خاصة وأن ثلاثة نجباء من تلاميذه تقلدوا مناصب الوزارة هم : علي بن فليس ، علي بن محمد ، وعبد القادر بوجمعة ، فازداد فخر الأستاذ بأبنائه ، وفرح أيما فرح بهذه الصدفة الجميلة .

ويذكر الكاتب أنه شجع أستاذه كثيرا ليقبل منصب أمين عام لوزارة التربية ، في حين كان هو ينوي أن يغادر للتقاعد ، لأنه كان يرى أنه لا يزال قادرا على العطاء ، خاصة وأنه سيعود إلى الميدان الذي أحبه وأوفى له ، وأفنى سنوات طويلة من زهرات شبابه فيه .

لقد حبب الشاعر إلى طلابه الأدب العربي وكان يحثهم على الاهتمام بالتراث والثقافة العربية والإسلامية ، لذلك يفخر الكاتب أنه سليل المدرسة الإصلاحية الباديسية سواء على يد أستاذه ، أو على يد والده ، ويذكر أن الشاعر كما يقول « إلى جانب ما كان يقدمه لنا من علم ومعرفة ، كان ينشط في المجالات الثقافية ويؤلف المسرحيات مثل مسرحية " التوابع والزوابع " التي ألفها في الخمسينات ، وقام بتدريتنا على التمثيل فيها ، ومازلت أذكر دوري في تلك المسرحية وهو دور الشاعر الأموي " جرير " . »¹

وهذا الديوان يعبر عن غزارة وأصالة إنتاج الشاعر الشعري ، حيث أن الكثير من قصائده نشرت بالصحف والمجلات التي تصنف ضمن صفحاتها قسما للثقافة والأدب ، لأن الشاعر كان يهتز طربا حين تجتمع الأمة في الوطن أو الشعوب العربية والإسلامية ، ولا يعبر عن هذا الفرح إلا بقصائده في المجالس الخاصة ، أو المحافل والتجمعات العامة ، مما ساهم في تعدد أغراض وموضوعات شعره .

ويظهر جليا في هذا الديوان كما في سابقه تأثر الشاعر العميق بالثقافة العربية الأصيلة والشعر العربي وبحوره ، لذلك فإنه إلى جانب مزجه عدة أغراض شعرية ضمن موضوع القصيدة

1 - الأستاذ علي بن فليس - مقدمة ديوان شعاع الأصيل - ص 14 .

الواحدة ، فإنه ملتزم بتقاسيم القصيدة العمودية ، وتغلب على الديوان روح المعلم المربي ، الذي يغرس حب الوطن ، والإخلاص لشهادته في نفوس قارئيه .

وإذا قلنا أن الوطنية والعروبة متلازمان في دواوينه ، فإن الإسلام لا ينفصل عنهما أيضا ، وهذا المزج « ظاهرة في الشعر الجزائري الحديث ، ولعل شاعرنا يلتقي في هذا مع أستاذه " محمد العيد آل خليفة " أي في الربط بين هذا الثالوث الذي رفعتة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين شعارا لها : الجزائر وطننا ، العربية لغتنا والإسلام ديننا .¹

لقد تبنت الجمعية هذا الشعر ما جعل ذكر الدين الإسلامي يكثر بشكل بارز لدى أغلب الشعراء الجزائريين خاصة العرب منهم ، وخصصنا العرب الآن هناك من الجزائريين من ينظم شعرا وطنيا بلغة فرنسية ، كما كانت فكرة الجهاد والاستشهاد شعار كل الجزائريين شعراء ومناضلين ، إلى جانب هذا فقد « اهتموا بالعربية أكثر من زملائهم الشعراء بالفرنسية في تأكيد عروبة بلدهم ، لذلك كانت العروبة الحاجز الأكبر بينهم وبين المستعمر .²

كما أن للطبيعة أيضا نصيبا في هذا الديوان ، فالشاعر يعشق تأمل الحياة والكون والطبيعة ، كما اهتم الشاعر في هذا الديوان بمناسبات كثيرة خاصة منها الوطنية ، والاجتماعية والدينية ، والثقافية ، فقد سجل العديد من الذكريات والمواقف سواء في لقاءاته مع أصدقائه أو زملائه ، كما أنه تأثر بفقد بعضهم خاصة منهم من حظي لديه بمكانة خاصة ، ومن أبرزهم الشيخ محمد العيد آل خليفة ، الذي نظم في رثائه قصيدة طويلة يقول عنها : « نظمت هذه القصيدة من بحر الخفيف ، وأنا في طريقي إلى بسكرة من الجزائر العاصمة لأحضر تشييع جنازة أستاذي الشيخ محمد العيد آل خليفة رحمه الله وكان يرافقني في السيارة ولدي أبو القاسم شوقي في يوم شديد الحر برمضان المعظم من 2

1 - المصدر نفسه - ص 17 .

2 - د. نور سلمان - الأدب الجزائري في رحاب الرضا والتحرير - دار العلم للملايين - بيروت - ط 1 - 1981 - ص 337 .

أوت 1979 وفي عمره 22 سنة إذ ذاك ، وكنت كلما اهتديت إلى نظم بيت طلبت من ولدي أن يكتبه حتى انتهيت من القصيدة قبل وصولنا إلى بسكرة ، وكنت تمنيت أن أنشدها في المسجد الذي أقيمت فيه الصلاة على الفقيد ولكن الظروف لم تسمح بذلك فتأثرت في نفسي وقلت : حسينا الله ونعم الوكيل .¹

لقد كان للشيخ في نفس الشاعر مكان خاص ، فقد كُن له الاحترام والتبجيل ، وحمل له كل الحب والتقدير ، ومن نموذج ما قال في هذه القصيدة :

رب ماذا نقول ؟ رحماك رب !	قد أصبنا بموت شهم مرب !
قد أصبنا بموت شاعرنا الفحل	الذي كان للنداء يلبي
ونداء المجاهدين تعالى	من قديم من كل فج وصوب !
فاستجاب الفقيد منذ صباه	لنداء الجهاد من كل ريب
وغدا ينظم القصائد حرا	مشمخرا كالليث يزأر قربي
سلسيلا يراق طورا ، وأخرى	بلسما ناعما ، يخفف خطبي
وشعاعا أطل في وسط الليل	إلى صبحه ، يفرج كربى
وشواظا في قلب كل عدو	لبلادي ، يصيبه ، ولشعي ²

كما يملك الشاعر ميزة أو موهبة جعلته يبدع في نظم قصائد مستوحاة من قصائد شهيرة لشعراء أجنب مثل قصيدة الشاعر الألماني " شيلر " التي عنوانها " نشيد الفرح " ، هذه القصيدة التي نشرها الشاعر في ديوانه الأول وأعاد نشرها في الديوان الثاني بعد إدخال التعديلات على معانيها ،

1 - عبد القادر بن محمد - شعاع الأصيل - ص 30 .

2 - المصدر نفسه - ص 26 .

يقول الشاعر في صدها « طلبت من السيد " أبي العيد دودو " أن يترجمها من الألمانية إلى العربية ، فأجاب مشكورا وبعث إلى بترجمة الأنشودة نثرا ، فأضفت إليها معاني أخرى في مرحلة ثانية في 23 جويلية 1988 ، وقد نشرت القصيدة في مجلة الثقافة ، وسجل النشيد في الديوان الوطني لحقوق المؤلفين في 14 فيفري 1988 .¹

وقد أطلق الشاعر على القصيدة الجديدة عنوان " ما أحلا أحلام الفجر " ومن أبياتها قوله :

يا صاحبي ! هذي أنغام ،

من جنات الأتقيا ! ..

حملتها نحوي أنسام ،

هبت من عرش السما !

عهد من عهد الأجداد ،

قدسي من وحيهم ،

كل يبدو في إنشاد ،

فرحا مسرورا بهم ! ..²

وصادف أن زار الجزائر أستاذ من جامعة " بوكوم " في " الروهر " بألمانيا لإلقاء محاضرة بالمركز الوطني لتكوين الإطارات ، فالتقاء الشاعر وأهداه القصيدة ، فأرسل الأستاذ الألماني لدى عودته إلى وطنه رسالة تقدير وإعجاب ، وأمنية بلقاء قريب * .

1 - عبد القادر بن محمد - شعاع الأصيل - ص 59 .

2 - المصدر نفسه - ص 60 .

وقد قدم لهذا الديوان تلميذ الشاعر الذي أحبه وأخلص له " علي بن فليس " كما كتب بعده الأستاذ " محمد حاج صادق " - وهو الآخر كان تلميذا له - كلمة عن أستاذه وعن شاعريته ، وكل صفاته التي أحبها فيه ، ونورد كلمته لما حوته من محطات من حياة الشاعر من نشأته إلى ميلاد ديوانه :

« معرفتي بالشيخ عبد القادر بن محمد طالبا في السنة النهائية بمعهد الدراسات الإسلامية العليا ، نشأت بيني وبينه مودة مازالت إلى يومنا هذا .

إني قرأت ديوانه : " بوابات النور " المطبوع منذ سنة 1990 ، و " شعاع الأصيل " مخطوطا فزادت معرفتي به كإنسان كان الله تعالى وهبه مواهب قيمة وكتب له ظروفًا عائلية قاسية في صباه ، وتعلّما عربيا حرا بمسقط رأسه ، تلاه تعليم مزدوج اللسان بمدرسة قسنطينة ، ومعهد الجزائر العاصمة ، فصار في آخر المطاف وفي آن واحد ، مدرسا ، وشاعرا عربيا ، ومسلما مؤمنا ، وجزائريا وطنيا .

كأنني به صبيا مع صبيان ريفيين ، يتردد على جامع قريته لحفظ القرآن ، والإمام بمبادئ اللغة العربية ، ثم شابا بمدرسة الشاعر الشهير الشيخ محمد العيد ، ثم طالبا بقسنطينة والعاصمة ، فأصبحت له قاعدة متينة من المواد التي تلقاها .

صورة المدرسي واضحة في قصيدته التي سماها معلقة المدرسة يسمع القارئ فيها أصوات أساتذته يدرسون بعضهم بالعربية ، النحو ، والصرف ، والعروض ، والشعر الجاهلي ، وفقه العبادات والمعاملات والتوحيد ، وإلى جانبيهم الآخرون يدرسون الأدب الفرنسي والتاريخ والجغرافية والرياضيات والفيزياء والكيمياء ...

* - أدرج الشاعر نسخة من الرسالة في ديوان شعاع الأصيل - ص 63 .

وصورة الشاعر تتجلى قبل نهاية دراساته ، فإنه راود ربات الشعر مبكرا ، وواصل الإنشاد والنظم طيلة حياته ، بالرغم من مشاغله المهنية ، فكان له الديوانان المذكوران للفقارئ تقييم ما فيهما من قصائد ومقطوعات .

إني أقصر على ملاحظتين : الأولى إنه ينتمي إلى مدرسة الشيخ محمد العيد ، وهو كأستاذه ، ناشر عربي ، ومسلم مؤمن ، وجزائري وطني - والثانية أنه كأستاذه أوراسي المنشأ ، وربما من سلالة بربرية لكنه - كأستاذه - لا يرفع أبدا الأمازيغية مفتخرا بها ، كأنداده منذ استقلال الجزائر ، فإنه أبى تفريق الصف من الشعب الجزائري الواحد ، وموقفه موقف الأمازيغ الأقحاح الذين أسلموا ، وتعربوا قديما ، أمثال ابن معطي صاحب الألفية (قبل مالك) ، والماكودي ، وعبد الرحمن القشطلوي بوقبرين مؤسس الرحمانية ، ولا ننسى ابن باديس وغيره ، وما أكثرهم ، فهو من الذين يقولون " شعب الجزائر مسلم وإلى العروبة لا ينتسب " لاغير.

محمد حاج صدق 29

جانفي 1998 .¹

ب/ الأوبريت : وهي مجموعة من المسرحيات الشعرية التي تتمحور مواضيعها حول الحياة النضالية للشعب الجزائري ، قبل وبعد الثورة وهي :

ب1/ مسيرة الجزائر : هي قصيدة من بحر الرجز ، ولكن الشاعر تصرف في تفعيلاتها وفي قافيتها لتصبح أقرب إلى الشعر الحر أو إلى قصيدة النثر ، وقد تخيل فيها الشاعر مسيرة الشعب الجزائري منذ القدم ، وكما صورته واقع تاريخه المجيد ، وقد تم العمل في غضون عامين ابتداءً من 18 فبراير 1977 إلى غاية 27 جانفي 1979 ، وقد تم نشره في مجلة الثقافة وجريدة النصر ومجلة المجاهد الأسبوعية .

1 - عبد القادر بن محمد بلقاضي - شعاع الأصيل - ص 21 ، 22 .

وورد في تقديمها أن مسيرة الشعب الجزائري قد بدأت منذ القدم ، ودربها ككل الدروب في تاريخ الشعوب مليء بالدموع والدماء من أجل الحرية والاستقلال ، ومن أجل الحياة الكريمة في هذه الرقعة المباركة من التراب الوطني ، ونور تلك المسيرة منبلج في كل قلب جزائري ، وحبها محتلج في كل كبد ، وقد تأصلت عروقه من قبل أن يخرج كل منا إلى الحياة والكفاح .

ويضيف « ولقد حاولت أن اعبر عن تلك الطفولة لكل منا ، وعن جهاد أبطالنا عبر العصور ، وعن الثورات المتواصلة ، والمقاومة المستمرة ... إلى عزة نوفمبر 1954 الخالدة ، وما أسفرت عنه من بطولات ومواقف يشهد للجزائر بها العالم بأسره ، وعن الثورات الثلاث .¹ » ، كان هذا الملخص العام لما تناولته المسيرة من مواضيع ، وكان الشاعر وهو يجوب هذه المراحل التاريخية يقف متذكرا حيناً ، متسائلاً متأثراً أحياناً ، وفي كل مرة كان يسرد خبراً لمن صار مضرب الأمثال من الأبطال الذين أصبحوا مجلب العيون بأعمالهم الجليلة ، وقد ختم القصيدة بالدعاء والابتهال إلى الله بأن يرعى هذا الشعب ويحفظ دربه ومسيرته .

أما من الناحية الموسيقية فالقصيدة - كما سبق - من بحر الرجز ، حاول فيها الشاعر أن يكيفها مع قالب شعر التفعيلة أو الشعر الحر فنوع في القوافي وعدد التفعيلات ، ما جعلها تقترب من قصيدة النثر في أسلوبها .

وهذه القصيدة قد أدرجها الشاعر في ديوانه " بوابات النور " في الصفحة 123 ، كما جمعها مع قصائد أوبريت أخرى في كتابه " الروايات الأربع " ، كما حظي جزء من هذه القصيدة بالتلحين والأداء ؛ فقد لحنه عبد الوهاب سليم ، وأدته المجموعة الصوتية لمؤسسة التلفزة الجزائرية في شكل استعراض غنائي أذيع بمناسبة الذكرى الخامسة والعشرين لفتح نوفمبر 1954-1979 .

1 - عبد القادر بن محمد - الروايات الأربع - منشورات ANEP - 2000 - ص 9 .

وقد تولت وزارة الثقافة طبع هذا الاستعراض الغنائي وقد أرفقه الشاعر بوثيقة مترجمة إلى اللغة الفرنسية ، وأشرفت الوزارة على ترجمتها إلى اللغة الانجليزية ، وقد أورد الشاعر رقد تدوين الاستعراض في قوله : « الاستعراض مسجل بالإذاعة الوطنية تحت رقم 6.806 ، ومدته 55 دقيقة ، وعدد أبياته المختارة 272 بيتا من مجموع 681 ، وما ترجم منه 310 بيتا باللغتين الفرنسية والانجليزية »¹ .

ب2/ صوت الأحرار : تقترب هذه الأوبريت كثيرا من سابقتها من حيث الموضوع ، إلا أن الاختلاف يظهر في أن الثانية يبدأ إطارها الزمني باندلاع الثورة غلى غاية بناء وتشيد الوطن وما بعد الاستقلال .

وتتألف الأوبريت من فصلين يحتوي كل فصل أربعة مشاهد ، وقد أضاف مشهدا خامسا إلى الفصل الثاني .

يصور المشهد الأول جماعة المجاهدين يصعدون إلى الجبل حاملين أسلحتهم منشدين نشيد انطلاق الثورة ، ثم ينطلق صوت الأحرار مدويا من القمم :

اقرأ كتابك لا تكن متهيبا وانفض لتحرير الحمى متأهبا

واسمع لأول طلقة من غرة نطق الرصاص بفجرها ملتهبا

ولقد أراد الله في ملكوته لما أراد أن تثور ونغلبا

فإذا بعيد الموت فوق قبورهم أضحى لنا عيد الحياة حبا .²

1 - عبد القادر بن محمد - المصدر السابق - ص 10 .

2 - عبد القادر بن محمد - أوبريت صوت الأحرار - نظمت سنة 1984 بمناسبة عيد الثورة - طبعت بالآلة الرقنة - ص 6

ويصور المشهد الثاني فرحتهم بالصعود إلى الجبال فينشد أحدهم عن المقومة ويمدح آخر
أسود الجبال ، ويتحدث ثالث عن فضل القدر في نجاح الثورة ، ثم تردد فضيلة من الجيش حول هول
الحرب :

فمن المدافع ما يشيب لهولها رأس الوليد

ومن القنابل وابل في نارها بأس شديد

ومن القذائف ما يذوب للهبها درع الحديد¹

ويحمل المشهد الثالث وصف معاناة الحرب ، فيتقدم سبعة من الجنود ؛ ينشد الأول عن
عذاب السجون ، والثاني عن صدى المحتشدات ، والثالث يصف تأجج القتال ، والرابع يصف تحامل
الأعداء ، والخامس يتكلم عن صمود جيش التحرير ، والسادس يفخر بقوته وصولته في الجبال ،
والسادس يحمد الله على نصر الله ، ثم رددت الفصيلة كلها :

زحفوا بأعظم قوة من جيش حزب أطلسي

تكالبوا بلفيفهم من أجني أشرس

وبقوة سرية وتجبر وتغطرس

وتحاملوا ... لكنهم فشلوا أمام الأطلس .²

ويحمل المشهد الرابع بشائر الاستقلال ، ويصور جموع الشعب تحتفل مع المجاهدين الذين
عادوا من الجبال فينشدون نشيد الحرية ، وبعد النشيد تتقدم مجموعة من الجنود ، فينشد الأول عن
عيد الشعب ويصف أجواءه ، ويؤكد الثاني على رسوخ الذكرى في العقول والقلوب ، ويتغنى الثالث

1- المصدر سابق - ص 8 .

2- عبد القادر بن محمد - أوبريت الأحرار - ص 9 .

ببطولة الشهداء ويترحم على أرواحهم الزكية ، ثم يتقدم آخر مكبرا ، مبرزاً مكانه نوفمبر وجويلية في التاريخ ، ويؤكد الخامس أن أشبال الجيش عازمون على مواصلة العمل بكل إرادة من أجل رقي البلاد وتقدمها ، ثم ينطلق صوت الأحرار من الجبال ، فتتشد المجموعة :

صوت الجبال صده من قمم الجبال تفجرا !

منذ القرون روته أجيال لجيل نوفمبرا

سمع النداء فكان أوفى للعهد وأجدرا

يا جيل مدت معززا ومكرما ومظفرا ¹.

أما الفصل الثاني فعنوانه الجهاد في سبيل تشييد الوطن ، ويتضمن خمسة مشاهد ؛ يتضمن المشهد الأول معاني الثورة الصناعية ومظاهرها ، فتظهر فيه جماعة من العمال متجهين إلى أعمالهم منشدين حول الجهاد الأكبر الذي يعني ضرورة السير قدما على درب الأقدمين وتذكر تضحياتهم ، ثم يتقدم واحد من الجماعة يحث الشباب على العمل التشييد ، ثم يصف آخر مظاهر الصناعة وضجتها وحيويتها ، ويعدد الثالث ثروات البلاد وخيراتها التي لا تملكها كثير من الدول ، ويفخر الرابع بأن التشييد والنعيم الذي نعيش فيه من عرق جبين هذا العامل .

المشهد الثاني يحمل عنوان الثورة الزراعية ، فتظهر فيه جماعة من الفلاحين متجهين إلى مزارعهم منشدين عن القرى الاشتراكية ، يتقدم أربعة منهم : ينشد الأول واصفا هذه المزارع بأنها جنة من جنات الله ، وينشد الثاني عن الفلاح وفرحته بأرضه ، وكيف يقبلها ويرويه من تلك الفرحة، وذلك الحب في قلبه ، فتثمر خيرا كثيرا ، أما الثالث فيحث الشباب على العودة إلى الأرض، وإعطاء الجهد والحب والأمل لتعطيه أكثر مما أخذت ، ويؤكد الرابع في نشيده أن يد الله مع الجماعة، وأن العمل الجماعي للتشييد مبارك من عند الله .

1 - عبد القادر بن محمد - أوبريت صوت الأحرار - ص 12 .

المشهد الثالث يتحدث عن جانب آخر مهم من التشييد وهو الثورة الثقافية يصور الطلاب في طريقهم إلى الجامعات ، منشدون نشيد العلم والثقافة ، ثم يتقدم أربعة من الشباب ليصفوا مظاهر التشييد الثقافي ، من سير نحو المدارس ، واكتشاف للعالم والأجواء ، والثالث عن موقف الجزائر من ضرورة التسليح بالعلم لاتقاء شر الغرب ، والرابع يستشرف مستقبلا منيرا ، ومصيرا باسم يقول :

يا ابن الجزائر كان نصر بالحسام القاسم

وبقوة الإيمان دوما والنضال الحاسم

فارسم طريقك للبناء غدا بريشة راسم

واسلكه متتدا الخطأ نحو المصير الباسم¹

المشهد الرابع عنوانه تقرير المصير وبناء الوطن يمثل جماعة من المواطنين وهم ينشدون نشيد تقرير المصير ، ثم ينشد خمسة منهم : الأول يبين أن سبيل الحق هو أول ضرورة مشروعة تطالب بها الشعوب تقرير مصيرها ، والثاني ينشد عن القضايا العادلة والتي تسعى الشعوب فيها إلى أخذها حرياتها ، والثالث يشيد بلواء الثائرين الذين رفع في سبيل الحق ، ومن أجل الحرية والسلام والتشييد :

إن الجزائر في طريق الحق دوما سائره

رفعت لواء الثائرين على العهود الجائره

والسلم غايتها وتشيد البلاد الثائرة

والجيش حاميتها وجبهتها الحكيمة ساهرة²

1 - عبد القادر بن محمد - أوبريت صوت الأحرار - ص 13 .

2 - المصدر نفسه - ص 16 .

أما الرابع فيدعو الجيل الرائد إلى الوفاء بالعهد ، والجد في العمل وبناء صرح الوطن ، ثم يذكره الخامس بدرب الحدود ليسيروا عليه ، ويخلدوا ذكرهم في التاريخ على غرارهم .

أما المشهد الخامس والأخير عنوانه صوت الأحرار تردده كل المجموعات في ختام الأوبريت ، يقول في آخره :

سبحان رب العالمين تحققت

آمالنا ، فسما الضياء وما خبا

والمجد للشهداء إذ سكبوا الدما

وسقوا ذاك التراب الطيبا .¹

ب3/ أوبريت ألغام وأنغام : يرمز هذا العنوان من خلال اللفظة الأولى

" ألغام " إلى الشدائد ، ومختلف الأزمات التي عرفت الجزائر طيلة كفاحها عبر القرون من قوى الظلم والعدوان ، تكبدتها حفاظا على كرامتها وحريتها واستقلالها ومن خلال اللفظة الثانية " أنغام " إلى ما جاء به عيد النصر من أفراح وآمال وبشائر غداة الاستقلال .

وقد نظمها الشاعر احتفالا بالذكرى الخامسة والعشرين لاستقلال الجزائر سنة **1987** ، وقد نشرتها مجلة الثقافة .

والملاحظ على طريقة نظمها وأسلوب عرضها أنها تشبه الأوبريت السابقة " صوت الأحرار " ، فهي مسرحية شعرية يؤدي فيها الممثلون أدوارهم « تارة بصفة جماعية ، وهو دور المجموعات الثلاث المذكورة ، وطورا بصفة فردية ، وهو دور الأصوات المنبثقة من كل مجموعة ، وذلك عن

1 - عبد القادر بن محمد - أوبريت صوت الأحرار - ص 17 .

طريق الإنشاد حيناً ، والغناء أحياناً ، والتلاوة المعبرة مرة أخرى ، وهو ما تتميز به أساليب الأوبريت المعروفة في الغرب بألمانيا وإيطاليا على الخصوص .¹

ب4/ حياة بين أخرى : وهي أقرب إلى فن القصة منها إلى المسرحية

نظمها في الرابع عشر من مارس سنة 1986 ، وهي ما تزال مخطوطاً لم ينشر أو يطبع بعد *

ج/ المذكرات : الشاعر له مخطوط ثان دون فيها مذكراته أو كما سماها هو " ذكرياتي في

التربية والتعليم " ، وهذا العنوان يؤكد لنا أن الشاعر اختار هذا الجانب من حياته ، كونه أخذ القسم الأكبر من عمره تقريبا ، ولعل به الكثير من الأخبار والأسرار عن هذا المعلم والشاعر .

د/ الأناشيد الوطنية : للشاعر ثلاث أناشيد حظيت بالتلحين كلها وهي : « ارفعي الرأس

وسيري يا جزائر ، وقد لحنها الأستاذان عبد القادر التومي وموريس قافندا **Maurice**

Gavenda ، والثاني هو نشيد جبهة التحرير الوطني وقد لحنه السيد شريف قرطبي و أذيع على

شاشة التلفزة الوطنية وعن طريق الإذاعة الوطنية سنة 1983 ، والثالث نشيد الاستقلال وقد لحنه

السيد بوجمية مرزاق وأذيع في نطاق نشاط المركز الثقافي الجزائري بباريس سنة 1982 .²

هـ/ القصائد المترجمة من التراث العالمي : هي سبع قصائد ورد ذكرها في معظم أعماله

وهي :

- الربيع : لموريس كاريم : 1970 .

- النجم الثاقب للسيدة أكرمان 1861 وقد ورد نصه في ديوان بوابات النور

1 - عبد القادر بن محمد - الروايات الأربع - ص 73 .

* - لم ترد أمثلة شعرية من المؤلفين ، لأنه تعذر على الطالبة العثور عليهما .

2 - عبد القادر بن محمد - شعاع الأصيل - ص 10 .

- نشيد الفرح للشاعر الألماني شيلر سنة 1974 ، وقد لحنه بتهوفن في السامفونيا التاسعة 1974 .

- ليلة ثلج لـ في دو موباسان 1987 .

- الحنين إلى الوطن لـ لامارتين 1990 .

- النجمة الشاحبة لألفرد دوموسي 1994 .

- الطفولة لفيكتور هيفو 1992 .

كما « شارك الشاعر في وضع منجد للطلاب للغة العربية للمدرسة الأساسية مع جماعة من الأساتذة والمفتشين وهو في حيز الإنجاز من طرف الوزارة ».¹

و/ في علم العروض : عرف عن الشاعر ولوعه ببحور الشعر وقوافيه ، كما عرفنا أنه كان قد درس هذه المادة للطلبة ، ووقف على الصعوبات التي تواجههم في تحصيل معارفها ، وانطلاقا من هذه الصعوبات أنجز هذا المؤلف الذي يفيد المتعلم المبتدئ والمتمكن في علم العروض ، وقد شفع كل ما ورد فيه من قواعد وقوانين بأمثلة وتمارين تطبيقية وعنوانه بـ : " الشعر العربي أوزانه وقوافيه " ، وورد في آخر الكتاب هذا النص : « الحمد لله الذي هدانا لهذا وما كنا لنهتدي لولا أن هدانا الله ، الحمد لله الذي علمني ما لم أعلم ، ومكنني من تقديم هذا المجهود في مجال العروض والقوافي ، انطلاقا من تجربتي الخاصة ، وما عشته شخصا لما تعلمت هذه المادة وعندما علمتها ، فاستفدت كثيرا من كل ذلك ، ومن دروس أساتذتي ، وطريقتهم وغنتهم الإيقاعية حين كانوا ينشدون الأبيات ، ومن أسئلة تلاميذي وقد كانت كثيرة ومتنوعة ، مما حثني على مواصلة البحث والتفكير لاكتشاف سبل أخرى جديدة ، غير المعتادة في كيفية تقديم علمي العروض والقوافي ، وساعدني ذلك في توخي الدقة

1 - عبد القادر بن محمد - الروايات الأربع - ص 6 .

والوضوح في العرض والإجابة ، وقد أحببت أن يستفيد غيري ممن سيعلمها ، أو من سيتعلمها ، أو من يرغب في المطالعة أو البحث في مجالها .¹

ثم عمد الشاعر في هذه الكلمة إلى بث رسائل الشكر إلى كل من كانوا سببا في ظهور هذا العمل مبتدئا بوالديه ، فقد ترحم عليهما واعترف بفضلهما في الأخذ بيده في دروب التربية والتعليم بمراحلها ؛ كما أثني كثيرا على جهود أساتذته الذين بذلوا ما بوسعهم لتلقيه كل ما يحملون من علوم ومعارف ، وقدم الشكر إلى تلاميذه لأنهم مصدر الإشكاليات التي جعلته يفكر ويبحث ليجد الحلول اعتمادا على استفساراتهم الصائبة .

ثم أورد حوارا دار بينه وبين أحد زملائه عن سر نجاحه في علم العروض « في الختام ما زلت أذكر ما قاله لي أحد رفقائي في أكاديمية قسنطينة : كيف استطعت أن تثبت نفسك في وسط قلما أثبت أحد نفسه فيه قبلك ؟! فأجبتة قائلا : بالصدق في القول والإخلاص في العمل ، وبالخليل بن أحمد : إذ لم يخل اجتماع من اجتماعاتنا الكثيرة ولا لقاء من لقاءاتنا من الاستشهاد بآيات من الذكر الحكيم ، وأحاديث النبي الكريم وأشعار لمختلف الأعصار ، وحكم وأمثال وشواهد نحوية وصرفية وبلاغية ، ونحن بصدد معالجة القضايا التربوية والإدارية .² وفي هذا الحديث ما يبين لنا الزاد المعرفي والمخزون العلمي الذي اعتمد عليه الشاعر في إيراد الأمثلة في كتابه فقد اعتمد على القرآن والحديث والشعر العربي بمختلف أزمته ، والحكم والأمثال والشواهد المتداولة .

كما أكد أن تجاربه في النظم كان لها دور أيضا ونصيب في ظهور هذا الكتاب ، وفي كل مرة كان الشاعر يؤكد على رفعة مكانة الخليل بن أحمد الفراهيدي من قلبه .

1 - عبد القادر بن محمد - الشعر العربي أوزانه وقوافيه - دار موفم للنشر والتوزيع - الجزائر - 2003 - ص 305 .

2 - المصدر نفسه - ص 306 .

أما ما كتب عن شعره فقد أكد الأستاذ " خليفة بوجادي " في رسالته أنه قد نشرت بعض المقالات في الصحف من بينها : « سلسلة من مقالات الأستاذ علي بن محمد ، نشرت في جريدة السلام ، ومقالة لأحد أصدقائه نشرت في مجلة الأسبوع الثقافي ، ومقالة للصحافية نعيمة حمودة ، رحمها الله ، في جريدة **Le matain** بتاريخ : 1992/04/20 .¹ »

وفي مراسلة الكترونية مع الأستاذ علي بن محمد بين لي ان سلسلة مقالاته التي نشرت في جريدة السلام هي نفسها ما كتبه في مقدمة ديوانه " بوابات النور " ، إنما أعيد نشرها من أجل تعميم الفائدة .

تأيينه :-

الموت كأس مرة ، كل منا لابد ذائقته ، ولا مفر من مصير كتب على الإنسان يوم فتقت عينه على نور الدنيا والحياة ، لقد رحل عنا الرجل في هدوء ، رحل ونحن نبحت عن خيط أمل يوصلنا إليه ، فإذا بنا نقع على خبر وفاته في خبر تأييني نشرت جريدة الشروق* أجراء منه مرفقة بصورته ، وصورة الأستاذ علي بن محمد تلميذه المخلص وصاحب المقال .

كل الأسف ألم بي وأنا أقرأ المقال ، وفي نفس الوقت كل الدهشة والإكبار من هذا الرجل الذي كان يعمل دون أن يطلب مشاهدته أو رؤيته ، فهؤلاء هم " الكبار " كما قال عنه تلميذه .

في الحقيقة ساقني الأقدار إلى أن وصلت إلى الأستاذ علي بن محمد في شهر رمضان ، فاتصلت به ، وكان أن أرسل لي هذا المقال جزاه الله خيرا كاملا ، ونبهني أن المقال المنشور في الجريدة ناقص الأجزاء ، ويمكن أن أقول أن الأستاذ أنار لي الكثير من المحطات التي غابت عني في حياة هذا الرجل .

1 - الأستاذ خليفة بوجادي - بوابات النور دراسة تداولية - أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه - إشراف د. عبد الله بوخلخال - جامعة سطيف - 2003 ، 2004 - ص 263 .

وأحب أن أقول أن المقال ينم عن براعة الأستاذ اللغوية من جهة ، وعن الشديـد وألمه العميق لفراق أستاذه الشاعر ، وسنتتبع مراحل حياة الشاعر من خلال هذا المقال الثمين .

ففي صائفة عام **2010** بشهر ماي ، غادرنا الشاعر ، وانتقل إلى رحمة ربه ، وما آلم تلميذه الأستاذ علي بن محمد هو ذلك الصمت الغامض الذي غُلف به خبر وفاته ، فاستهل مقاله بعتاب ولوم للأسرة التربوية على هذا المعروف الجميل مع الرجل ، ونحس بنبرة العتاب في كلماته واضحة « شاع في الناس ، منذ مدة طويلة ، قول أحد النابحين : كلما مات شيخ من أهالي إفريقيا ، اندثرت بموته مكتبة بأكملها من تراث القارة ... وأنا أستطيع أن أقول أيضا : وكلما مات معلم جزائري مخضرم ، عانى متاعب التعليم بصفة عامة ، ومتاعب تعليم اللغة العربية ، بوجه خاص ، في أيام الاحتلال ، (ولو كان ذلك في المدارس الرسمية الفرنسية نفسها ، تلك التي سمح فيها بقدر ضئيل من هذا التعليم) ، ثم كابد مشاق الإشراف على المؤسسات التربوية ، وتنظيم المسارات الدراسية بها ، ولاسيما في السنوات الأولى من انتزاع الأمة استقلالها الوطني ، في تلك الظروف المأساوية ، وفي أجواء ذلك الدمار الشامل الذي خلفه العدو الاستعماري في البلد ... كلما مات معلم من هذه الفصيلة ، تكون ملحمة حية من ملاحم الجهاد التربوية والثقافي في بلدنا قد انقرضت إلى الأبد ... »¹ ، لقد بين الأستاذ أن الشاعر واحد من أهم اللبـنات التي بنيت عليها المدرسة الجزائرية ، ثم يوجه الخطاب باللوم والاستنكار « أما إذا تنكرت له المؤسسة التي قضى عمره مكافحا في رحابها ، فأهمـلته حيا يعاني الإقصاء والنكران ، وتناسته مريضا يكايد ألوانا من متاعب علله الكثيرة ، من دون أن تصدر منها التفاتة واحدة تشد أزره ، أو تواسيه في لحظات الألم والمعاناة ، ثم تتجاهله ميتا عندما كان أقل واجبا نحوه يفرض عليها أن تكون هي التي تنعاه للأسرة التربوية ، وهي التي ترعى مراسـم تشييع جنازته وتوديع روحه وهي تصعد إلى بارئها . ثم تكون هي التي تتقبل العزاء فيه . ثم تتخذ في الوقت المناسب ، من الإجراءات ما يبقى اسمه حيا ، وما يخلد ذكره على توصي المعاهد العلمية ،

1 - الأستاذ علي بن محمد - عندما يمضي الكبار في صمت ووقار ، لا يبقى إلا العار ملازما لأهل العار - الجزائر مايو 2010

والمنشآت المدرسة ، وإذ هي لم تفعل شيئاً من هذه الواجبات الدنيا ، فمعنى ذلك أنها ، بكل بساطة ، كمن اغتال المعلم ، وأحرق المكتبة ، وأتلف صحائف الملحمة !! ... ولا عجب من ذلك ، " فالشيء من مأتاه لا يستغرب " .¹

ويؤكد الأستاذ صاحب المقال أن الشاعر واحد من أبطال هذه الملاحم ، وأنه كان من أبرز القادة الذين شهدوا ميلاد المنظومة التربوية الجزائرية ، مع كل تلك المعارك التي دارت وعلى مختلف الجبهات ، وكان على الرغم من كل تلك المشاكل أحد الحكماء الذين استطاعوا أن يتخذوا القرار المناسب في الوقت المناسب في كل ما يخص قطاع التعليم من البرامج إلى التفتيش ويشهد فيقول : « وقد عايشت أنا - لمدة قصيرة - من ثانوية الشيخ ابن باديس بقسنطينة (أيام موقعها القديم في " الكدية " ، وأنا أستاذ أدرس بها سنة 1966) جانباً من هذه المعارك التي كنت قائدتها بوصفك مفتش أكاديميتها ، وكانت سلطتك التربوية تمتد إلى مناطق كثيرة من شرق البلاد تسمى اليوم " ولايات " . ولما التحقت أنا في مطالع عام 1967 بوزارة التربية بالجزائر العاصمة ، منتدباً لدى الأمانة العامة فيها ، إلى جنب أمينها العام الأخ عبد الرحمن شريط - طيب الله ثراه - أمكنني أن أدرك عظمة تلك المعارك في بعدها الوطني ، حين رأيت مظهرها الواحد يتكرر عشرات المرات ، بل مئات المرات في مدن البلاد وقراها ، ويتطلب في كل مرة إبداع حل بصفة مستعجلة لكل حالة من الحالات .² »

ثم يروي الأستاذ كيف أن الشاعر كان من سعة الحلم ، وطيبة القلب ما مكنه أن يواسيه في معاناته من المؤامرات التي حيكت ضده ، وكيف استطاع أن يقنعه بالعودة إلى ميدان العلم والتعليم بعد أن قرر هجرانه إلى الأبد « وإنك لتشهد أيها الأستاذ الراحل ، يا من تضرب بطيبتك الأمثال ،

1 - الأستاذ علي بن محمد - المقال .

2 - المصدر نفسه .

وتخف عليك الأثقال من الأحمال ، أني لم أعد إلى تذكرك بذلك الحادث المرير الذي جرعني كأس العلقم على امتداد ما يناهز الأربعين سنة من العمر ، جمعنا في رحاب التربية والتعليم .¹

وقد استطاع الأستاذ أن يدرك من خلال مرافقته وملازمته للشاعر أن يدرك أنه يعاني ظروفًا قاسية لها علاقة بمأساة عائلية كبرى رغم ما كانت تنعم به هذه الأسرة من جاه عريض ، ولعل هذه المعاناة هي السبب وراء ما سماه بـ " التعثر " في دراسته الابتدائية ، في مقدمة ديوانه ، إلى جانب تأثره - وهو ما يزال في صباه - بكثرة الانتقال والترحال بين المدن والقرى - كما عرفنا سالفًا - ، وتردده على مختلف كتاتيب القرآن ومشايخ المساجد من أجل تحصيل المزيد من مبادئ اللغة العربية المعاصرة ، ليكون القدر قد خط له مسيرته فيصبح واحداً من القيمين على تأسيس المنظومة التربوية الوطنية .

ويذكر الأستاذ مدى تأثر الشاعر بالشيخ الكبير محمد العيد ، وتعلقه الشديد به ، فقد كانت أهم « الدروس التي تركت في نفسك أعمق الآثار ، وصاغت إلى حد بعيد مواقفك الفكرية ، ومرجعيتك التربوية ، ومناهجك في نظم الشعر ... إنما كانت بلا منازع ، تلك التي جلست فيها إلى حلقات أستاذك الشيخ محمد العيد آل خليفة ، أمير شعراء الجزائر ، في المدرسة الحرة التي كان يديرها ، وكانت - كما قلت - تابعة آنذاك لجمعية محلية ، وأشهد أنك كنت دائم الإجلال والتوفير له ، وأنه كان يتزل من قلبك منزلة عالية من الحب والاحترام ، وفيما هو منشور من شعرك نماذج من المقطوعات التي كنتم تبادلونها ، وعدد من القصائد التي نظمتموها فيه ، وهي البرهان الحي على ما نقول ، وعندما لاقاه أجله ، رحمة الله عليك وعليه ، في صائفة 1979 ، رثيته بالقصيدة التي تقول فيها :

" كلنا اليوم في الجزائر نبكيك ** وكل يقول رحماك ربي " ، وهذه المراثية كلها تترجم

مقدار حزنك عليه ¹

ثم يعرج الأستاذ على حياة الشاعر من خلال بعدها الوطني ، وذكر أهم المحطات النضالية التي عاشها ، ومختلف المنظمات الوطنية التي انظم إليها ونشط تحت جناحها ، ثم أبرز دور وأثر مجازر الثامن ماي 1945 على الشاعر وعلى الشعب « وكان وطننا المحتل يتنفس الأجواء الوخيمة لغدر الاستعمار ، وما كان يقاسيه من آثار فاجعة المقتلة البشيعة ، والجريمة الشنيعة التي اقترفها بدءا من يوم الثامن من شهر مايو 1945 ، تلك التي كان من حسناتها ، وقد جعل الله لبعض الفواجع حسنات ، أنها قضت على آخر الأوهام ، وأيقظت النيام ، واتضح الأسلوب الوحيد الذي يكون به بلوغ المرام »².

وفي جانب آخر يعرض الأستاذ ملامح المناهج " المدارسية " نسبة إلى كلمة " المدرسة " LA MEDERSA ، التي نهل الشاعر من علومها في مدينة قسنطينة ، ويذكر أنها كانت تتفرع إلى محورين « أحدهما خاص باللغة العربية وما يتصل بها من علوم واختصاصات ، (تاريخ الأدب العربي من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث مع حفظ الكثير من نماذجه الراقية نثرا وشعرا ، بالإضافة إلى قواعد اللغة : نحوا وصرفا ، والبلاغة والعروض ، وشيء مما سمي " تاريخ الإسلام " ، والمحور الثاني يدور كله على منح تكوين معمق في المسائل المتصلة بالدين الإسلامي من أركان العبادات ، والأحوال الشخصية والمعاملات والميراث . »³ ، ويؤكد الأستاذ أن السلطات الفرنسية كانت تسعى إلى تخريج أطر مكونين تكويننا متينا في اللغة العربية ، من أجل استغلالهم في قطاعاتها وحسب حاجاتها .

وعن بداية رحلته مع القوافي ، يقول الأستاذ أن الشيخ كان شاعر المدرسين بلا منازع ، خاصة وأنه قد تتلمذ على يد الشيخ عبد الرشيد مصطفى الذي كان شاعرا فحلا مجيدا وحجة في اللغة العربية .

1- الأستاذ علي بن محمد - المقال .

2 - المصدر نفسه .

3 - المصدر نفسه .

أما عن الأشكال الفنية في شعره ، فيذكر الأستاذ أن الشاعر « بدأ رحلته الشعرية باحثا عن أشكال فنية جديدة ، ولكن الرغبة في مواصلة البحث لو تصمد لديه ، فعاد سريعا إلى القوالب التقليدية التي كان المنهاج الدراسي من عواملها .»¹

وعن القلق النفسي الذي يراود كل شاعر شاب في أوائل بواكير شعره يقول الأستاذ « ولئن كانت الحيرة التي تطالنا في شعر هذه المرحلة من عمرك تحمل دون ريب ملامح كثيرة مما يشغل النخب الوطنية الشابة من شؤون الوطن وأزماته المتلاحقة ، فإن الذي لاشك فيه عندي هو أنه نفسه قلق ناشئ بالدرجة الأولى ، من أوضاعك الشخصية ، وهو شيء معتاد في حياة كل شاب يجد نفسه أمام اختيار لعل ظروفها لا نعلمها جعلته بالغ العسر عليك .»² . ويبدو أن الشاعر كان قد وضع أمام أمرين عليه الاختيار بينهما ، إما إكمال الدراسة في الجامعة أو الالتحاق بالتدريس مع بداية الدخول المدرسي ، فاتخذ الشاعر قرار استغربه كل من يعرفه ، والتحق بالتدريس ، لكن سرعان ما تركه بعد مضي أشهر ليلتحق بـ "معهد الدراسات الإسلامية العليا " .

ولقد كان للتربية مكانة عظيمة في قلب الشاعر لأن « اختيارك الشعبة التربوية نابع من طبيعتك نفسها ، مستجيب لأعمق ذبذبات النفس التي تعرف كيف تنتصر لأهوائها ، وتنحاز إلى ميولها ، ولقد كانت التربية قدرا من أقدارك ، عشت لها وحييت من أجلها هي والشعر توأم ، لا سبيل عندك قط إلى العيش بدونهما ، ولا بعيدا عن أي منهما ، ولقد ورثت هذا الحب بعض تلاميذك الذين ترسموا خطاك ، ونسجوا على منوالك وكانت سعادتهم بهذا الميراث لا يساويها إلا شقاؤهم به كما كانت حالك معك : فسقى الله قبرك بشآبيب رحمته ، ولا زال منهلا بجرعائك القطر .»³

1 - المصدر سابق.

2 - الأستاذ علي بن محمد - المقال .

3 - المصدر نفسه .

وفي هذا المعهد الجامعي بدأ الشاعر حياة أخرى ساهمت في استكمال بناء شخصيته ،
وتوسيع آفاقه ، وانخرط للنضال في جمعية طلاب شمال إفريقيا ، وعرف إخوانه من مختلف أنحاء الوطن
في الحي الجامعي الذي اشتهر باسم (La Robertso) ، وكان من بين رفاقه رموز للثورة المجيدة
أمثال بوعسلة وبن بعطوش .

وفي هذه المرحلة أيضا « استقام لك عمود الشعر العربي ، وقد اتضح تماما للناظر في مضامينه
وأشكاله ، أن منهجك فيه هو قريب من منهج أستاذك محمد العيد آل خليفة . وأن مقاربتك الفنية
هي بوجه عام ، شبيهة بما لديه إلى حد ما ، ولا سيما من حيث الاحتفال بالمعاني والمضامين الوطنية
والدينية والأخلاقية أكثر من الاهتمام بالقوالب والصياغات الفنية ، وكانت يومئذ هي الطريقة
الشائعة لدى الكثيرين من الشعراء العرب في المغرب والمشرق .¹

وأثناء وجود الشاعر بالعاصمة كانت ورشة أفكار ومعرض نشاطات مختلفة ، وساحة للآراء
المتباينة والمواقف والنظريات ، فحزب الشعب ينشط مع مناضليه من جهة ، وجمعية العلماء المسلمين
تتعالى أصوات دعايتها من منابر " نادي الترقى " بالحفاظ على كيان الأمة ودينها ، وأحزاب وطوائف
أخرى ، كدعاة التجنيس ، ودعاة الإدماج وغيرهم من عملاء الاستعمار .

ثم يقدم الأستاذ مشهدا عن الحياة الثقافية أيضا ، ويذكر أنها لا تقل حيوية عن سابقتها ،
ولذلك لشهودها لنهضة ، « ولعل ما مثل معالم هذه النهضة المسرح الذي شكل لحظة وعي ثقافي
سياسي متميز ، ومع أنه فن طارئ ، في شكله العصري على التراث الثقافي العربي الإسلامي ، فإن
الحرارة التي احتضنته بها الجماهير الشعبية قد أتاحت له أن يتطور بسرعة ، وكان يمكن أن يبلغ عندنا
شأنا رفيعا لو تواصلت مسيرة وترقيه .² ، بالإضافة إلى نشاط ألوان من الأغنية الشعبية ، والكثير
من النشاطات الرياضية .

1 - المصدر السابق .

2 - المصدر نفسه .

وضمن هذا الجو الفكري المشحون استطاع الشاعر أن يتخلص من نبرة التشكي والألم في شعره ، واستبدله بالخطاب الحازم الذي يشحن العزائم ، كما أن له في هذه المرحلة أن ينهي دراسته الجامعية ، ويروي لنا الأستاذ عن ذلك وكيف التقى به أستاذا وكان هو تلميذا وعن العلاقة الطيبة والحميمة التي أخذت تنشأ بينهما فيقول : « والتقى المصيران ، فلم يفترقا ... إلا أحيين !! » ، كنت في عنفوان الشباب ، يا فتى الأساتيد ، حينما تحقق لك هذا الإنجاز العظيم من مطامحك ، وصرت أصغر أعضاء هيئة التدريس باللغة العربية عندما اقتحمت أسوار المدرسة فاتحه وفي ذلك التاريخ كنت تبلغ من العمر ثلاثين سنة ، وصرت زميلا لأساتذة كان بعضهم من شيوخ درسوك في هذه الأقسام التي آل أمرها الآن إليك ، وعندما كنت أيها الأستاذ في نهايات عامك الثاني من التحاقك بالمدرسة أستاذا تحصد إعجاب تلاميذك بدروسك ونشاطك وبشبابك ... كان تلميذك ، هذا الذي يكتب عنك اليوم ، يجتاز امتحان الدخول إلى مدرسة قسنطينة .¹ ، ثم روى الأستاذ قصة معاناته هو الآخر إلى أن تم دخوله إلى هذه المدرسة .

ويصف الأستاذ علاقته بشيخه فيقول « ثم تطورت علاقة التلمذة لتصبح قرابة شعرية » ، وتكونت هذه القرابة من خلال جرأة الأستاذ وسط حصار سلطات الاستعمار ورقابة مدرسته على تقديم دروس تطفح بالشعور الوطني والانتماء الديني معرضا نفسه للأذى في سبيل ذلك ، وازداد قربه منه وهو يلقنهم دروس العروض بطريقة مشوقة وخاصة .

ويضيف في وصفه للشاعر « على الرغم من صرامتك التي تعبر عنها ملامح وجهك ، ونظراتك الثاقبة التي كثيرا ما تستغني بها عن التوبيخ والتقريع ، لم نكن نجد فيك القساوة التي ترهبنا أو العنف الذي يربعنا ، وإنما كنا نتهيبك ، ونغشى غضبتك الهادئة دائما وكنا نشفق على أنفسنا أن نجلب مجرد لومك وعتابك .² » وكان هذا هو المقياس الحقيقي للأستاذ ولا يزال .

1 - الأستاذ علي بن محمد - المقال .

2 - المصدر نفسه .

وبعد فترة توقيف القتال جاءت بشائر الاستقلال ، وقُدِّرَ للشاعر أن يكلف بمهمات أكبر، فاضطلع بعمل التفتيش الأكاديمي لمنطقة الشرق الجزائري ، وكان بيده الإشراف على كل ما يطبق من قرارات وسياسات الدولة في المجال التربوي .

وغادر الشاعر مدينة قسنطينة مرة أخرى عائدا إلى الجزائر سنة **1971** ليكلف بإدارة التكوين والتربية اللامدرسية التي تعنى بتدريس الكبار ودمجهم في المسار التعليمي ، وذلك في وزارة التربية والتعليم الابتدائي والثانوي التي كانت آنذاك تحت إمرة الأستاذ عبد الكريم بن محمود .

وقد أتيح للوزارة في عهد إدارة الشاعر أن تحقق الكثير من الإنجازات في تلك المرحلة الحاسمة من تاريخ الجزائر المستقلة « ففيها انطلقت مسيرة التعريب بطريقة صار التوسع فيها أليّ الحركة ، تتقدم سنة بعد سنة ، بحيث لا تخضع لمزاج أصحاب القرار ، ولا تحتاج إلى التفاوض من أجلها كل عام ... وقد عرفت بالطريقة النقطية ، وفيها أيضا تم إنشاء التعليم المتوسط ، وإحداث سلك جديد هو أساتذة التعليم المتوسط ، كما تم تخريج آلاف الأساتذة من المعاهد التكنولوجية ، وفيها أيضا تمت صياغة " ميثاق التربية " الذي كنت أحد عناصره الفاعلة ، وتم إصلاح التعليم الشامل في أمرية **16 أفريل 1976** .¹

واستمرت العلاقة بين الأستاذ الشاعر حتى أصبحا يتبادلان الأشعار وإن كانت ارتجالا سماها الشاعر " ديوان الهاشميات " * ، وكان هذا الديوان يضم أهم إنجازات ونشاطات الشاعر ورفقائه في الوزارة .

وفي شهر أفريل من سنة **1977** « صدرت الجريدة الرسمية متضمنة إنهاء مهام **32** إطارا ، هم مجموع من شارك في إعداد الإصلاح التربوي الذي تضمنته الأمرية الرئاسية التي كان أمضاها هواري بومدين يوم **16 أفريل 1976** ، ثم بعث لها من يدفنها قبل أن تخطو خطوة واحدة في طريق

1 - المصدر السابق .

* - هو ديوان رأى الشاعر انه مما لا ينشر ، عند الأستاذ علي بن محمد نسخة مهداة منه .

تطبيقها ، فهل انقلب الرئيس على نفسه بإرادته الحرة أم كان مغلوبا على أمره ، لم يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ؟¹

وكان من بين هؤلاء الشاعر وتلميذه ، وذهب الجميع دون أن يكون هناك أدنى تقدير لجهودهم ، وهنا نظم الشاعر قصيدته المعروفة في ديوان " بوابات النور " (أرثيك يا نفسي بنفسي : ... أمسي طريدا من وزارتي التي

كانت ولا زالت نسيم هوائي
أسفي على التعليم راح جماله
أبدا ومات رجأؤه ورجائي
سأقول للأجيال ضمن قصائدي
إن الضياع مطية الأمناء²

وبعد هذه الحادثة ، كان من الأوضاع ما تغير على الساحة الوطنية ، وقبلت من الأمور ما جعل مصائر ناس أخرى تتغير ، وجاءت الدعوى إلى العودة إلى وزارة التربية ، وتقلد الشاعر فيها أعلى المناصب ، وكذا في وزارة العدل ، ولكن لذة العمل لم تكن كما سبق ، ولا حلاوة الإنجاز . ويختتم الأستاذ مقاله التأبيني بكلمة وداع مؤثرة : « فإليك ، من تلميذك الوفي ، من رفيقك في مقاطع هامة لديك ولديه من دروبك التربوية المديدة ، من واحد من أصغر زملائك في تضاريس عالم التربية ذي السهول والحُزون ، من أحد شركائك في المصيبة حين هبت على الجميع عاصفة الخيال الهوجاء ، في ذلك الخريف الجزائري الكثيب ... فإليك باسم تلاميذك وزملائك وأصدقائك أجمعين :

سلام وروح وريحان ورحمة عليك وممدود من الظل ...

1- الأستاذ علي بن محمد - المقال .

2- عبد القادر بن محمد بن القاضي - بوابات النور - ص 253 .

عفاء على دار صنعت لغيرها فليس بها للصالحين معرج

وختاماً الوداع ... الوداع ... الوداع ... تبقى بعد الوداع ، ذكريات مودة
خالدة لا تشتري ولا تباع .

أيها الراحل عنا ...

يا أعز الراحلين !!

ما لنا في أصعب الأوقات ، أوقات الوداع

غير أنات الوفاء ...

ودموع في الخفاء ...

وحريق الالتياح ...

في ضلوع الشرفاء ...

ثم لا نامت عيون الجبناء !! .

علي بن محمد .¹

وقد نشر كما سبق الذكر جانب من هذا المقال في جريدة الشروق اليومي * ولم نسمع
خبراً آخر عن رحيل هذا الرجل الذي قدم للتعليم الجزائري الكثير .

تقديم الديوان :-

عرفنا مما سبق أن العلاقة وطيدة بين الشاعر والأستاذ علي بن محمد ، لذلك لا نستغرب أن
يكون صاحب تقديم ديوانه " بوابات النور " ، وقد عكف الأستاذ في هذا التقديم على إعطاء ملامح

1 - الأستاذ علي بن محمد - المقال .

- كان ذلك في الشروق اليومي - الثلاثاء 08 جوان 25/2010 جمادى الثانية 1431 هـ - العدد 2958 - ص 14 .

*

عامة عن الديوان ، تم قدم بعض العوامل التي ساهمت في تكوين منهج الشعر لديه ، والمناخ الثقافي الذي نمت فيه موهبته الشعرية ، وقد استطاع صاحب التقديم أن يعطي لنا رأي الشاعر في كيان الشعر من خلال أبياته وغيرها من المحطات التي ستقف عندها الدراسة تباعا .

ففي بداية الأمر كان الأستاذ أمام هذا الكم من القصائد ، عمد إلى قراءتها ، يسجل عنها ملاحظته ، فإذا به أمام خيالات تحضره من سجل ذاكرته ، فإذا يرى أمامه مشاهد من أيام دراسته مع أستاذه ، يقول : « وما إن أمضيت شوطا في الذي أنا فيه ، حتى أخذت هيئة تلك الخيالات تتمايز شيئا فشيئا ، وتترابط أكثر فأكثر ، ... ، وألحت الصورة على ناظري وانتصبت بكل إصرار بيني وبين الصفحات التي أمامي ، وازدادت كثافة فتجسدت بكل أبعاده ، حتى صرت لا أرى شيئا غيرها على الإطلاق .¹»

وقد تمثل المشهد الذي رواه الكاتب في التقديم ، في إحدى حصص مادة العروض ، حين دخل الأستاذ على تلاميذه ليفاجئ بيتين من الشعر على اللوح :

خط العذاب على الجبين رسوماً مذ صرت في دنيا الحياة يتيما

يا طير قف في الجو واسمع شكوتي فلقد عرفت لك الغريب حميما

وقد استنتج الأستاذ علي أن البيتين يخصان أستاذه ، وقد تم التناول إليهما ، ولم يعرف هذه الحقيقة إلا وهو يتصفح هذه القصائد ، وقد عرف أيضا سبب قلقه وهو يرى هذين البيتين على اللوح ، ذلك لأن قصائده ، وكل ديوانه هو « بحق صورة مركزة لحياة صاحبه ، ليس من الناحية الفنية وحسب ، وذلك ما سنعرض له عند دراستنا لمضامينه ، وإنما من هذه الناحية الروائية الخالصة ، إن جاز لي التعبير ، والتي تهيئ للقارئ العادي ، أن يلم منذ البداية ، بالمرحلة التي تنتمي إليها القصيدة . ذلك أنها في أغلب الأحيان لا تخلو من أن تكون صدى بين النبرات لمقطع من مقاطع حياته

العاطفية أو المهنية أو السياسية ، حتى إنها لتصلح أن تعتمد لتأريخ تطور الحياة الوطنية في مناحيها السياسية والاجتماعية والثقافية .¹

ثم يعرض الأستاذ بعدها المفاهيم التي ارتبطت بكلمة " ديوان " ، انطلاقاً من مقولة النقاد الأوائل " الشعر ديوان العرب " ، ويبين أن الكلمة ذات مدلول تنظيمي مرتبط بأصلها الفارسي ، أما عند العرب في عصرهم الجاهلي وصدر الإسلام كان ديوانهم هو شعرهم ، وكان وثيقة يسجل فيها الشاعر آراءه وما يتصل بحياته الخاصة ، وما حوله من الحياة العامة ، ويواصل الأستاذ عرضه لسياقات الممارسة الشعرية بمروءة على مختلف العصور التي مر بها الشعر العربي وصولاً إلى المنهج الحديث في الأداء الشعري .

وضمن ذلك حاول الأستاذ أن يدرج نتاج الشاعر ضمن التصور الصحيح وسط هذه السياقات ، وعزا هذا التصور إلى عدة عوامل أولها أنه « تلقى مبادئ العربية على مجموعة من الشيوخ المحترمين ، منهم : الشيخ الطاهر الحركاتي ، رحمه الله ، بمسجد مدينة باتنة ، والشيخ الشاعر محمد العيد آل خليفة ، رحمه الله ، في مدرسة حرة . وكانت الدراسة في الحالين على الطريقة التقليدية الأصلية ، ومعنى ذلك أن النماذج الشعرية التي أتيح له أن يتعامل معها إنما كانت ترجع إلى العصور العربية الأولى ، أو إلى مشاهير عصر النهضة الذين كانوا ، كما نعلم ، ينسجون على منوال الشعراء في العصور الذهبية كما تسمى .²

أما العامل الثاني ، فقد عزاه الأستاذ إلى الحصار الذي كان مفروضاً على تدريس اللغة العربية في مدرسة قسنطينة ، « من المفروض أن يجد شاعرنا في هذه الثانوية الأساليب الحديثة في طرح القضايا الأدبية ، والبرامج المتطورة في تدريس اللغة العربية وتذوق آدابها ، ولكن ذلك لم يكن

1 - المصدر نفسه - ص 11 .

2 - بوابات النور - التقديم - ص 13 ، 14 .

موجودا إلا في حدود نسبية.¹ ، ويذكر الأستاذ مجموعة من المظاهر العامة والأفكار السائدة في التفكير الفلسفي والتربوي الفرنسي ، وأن المدارس الثلاث المنشأة في الجزائر هي ذات خلفية استشراقية أخذت من جوانب الماضي العربي ما يمكن لها أن توظفه في السياسة والتاريخ وعلم الاجتماع ، وكان كل ذلك لخدمة أهداف المستعمر .

ويعزو الأستاذ العامل الثالث إلى الجانب الوطني الذي تمثل في « البيئة الثقافية التي سادت الحياة الجزائرية قبل ثروة التحرير ، حيث كانت تدور حول محورين أساسيين هما : الحركة الوطنية السياسية ، والحركة الدينية الإصلاحية ، وما بينهما من جسور طبيعية تربط في أصل الموقف الفكري بين إصلاح عقيدة الشعب ، وتقويم سلوكه الأخلاقي من جهة ، وتوعيته لاستعادة سيادته وتحرير وطنه من جهة أخرى ، وكان شاعرنا قد عبر هذه الجسور في الاتجاهين .²

وبعد أن وضع الأستاذ طبيعة منهج الشاعر في ممارسته الشعر طرح تساؤلا كان هو الجيب عنه ، تضمن قوله : « أما كان الشاعر ، هو المتصل بالثقافة الفرنسية ، المتقن للغتها ، أن يكتشف الطريق وحده إلى تيارات الشعر الحديث التي زحرت بها فرنسا ، والبلاد الأوروبية عامة بعد الحرب العالمية الثانية ، تلك التي أحدثت انقلابا عميقا في شتى مناحي الإبداع الأدبي والفني ؟ .³ ، وكان الجواب أن أغلب الطلاب الجزائريين في المدارس الفرنسية كانوا قد تحصنوا بمقاومة عنيفة مما قد يؤثر عليهم من المسيرة التربوية في هذه المدارس ، وهذه المقاومة اكتست طابع الشمول في حياة الشعب بأكمله

ويسوق لنا الأستاذ رؤية الشاعر إلى الشعر ويبين أنه :

1. لم ينظر إليه على أنه ترجمان الآلام وقيثارة الأحزان .

2. أنه يؤمن أن الشعر رسالة نضال وليس حائط مبكى تذرف أمامه دموع الضعف والاستكانة .

1 - المصدر السابق - ص 15 .

2 - المصدر نفسه - ص 16 .

3 - المصدر نفسه - ص 17 .

3. أن الإخلاص التام واجب لأداء هذه الرسالة خدمة للانتماء الوطني والحضاري والفكري

4. أنه دعوى دائمة إلى العمل الجاد لتعلو همسة الخير على قرعة الشر ، وتضيء شمعة نور مستضعفة في جحافل من الظلام .

ثم يكشف لنا أن الشيخ عبد القادر اعتبر الشعر في ديوانه صاحبا ، وأورد لنا بعض الأمثلة من أحوال الصحبة : فهو مرة صاحب وطيب يرجو لديه الدواء الشافي ، وهو أحيانا صاحب ينفع لانفعال الشاعر ، ويتألم بالقدر الذي يتألم به الشاعر ، ثم نراه في مناسبات أخرى بمقام الحبيب المتمنع الذي يستعطفه الشاعر ويرجوه ، كثيرا ما كان هذا الشاعر يخاطب شخصا ما في الشعر حتى وكأنه أصبح مخلوقا عزيزا عليه ، يناضل معه لنصرة الحق ، ويزج به وسط المعركة حامى معه البندقية :

بربك أقدم للكفاح مدججا بحزم وعزم يحوان المعايير .

ويأخذ بنا الشاعر الآن إلى أصل تسمية الديوان " ببوابات " ، فقد اتصلت هذه اللفظية بمدينة « وضع الشاعر تصورهما ، وعانى في هندستها مع كل ذرة ، وحشد لتزيينها كل جزئيات الماضي الحافل ، وتفاصيل الواقع الماثل ، واستشرافات النظرة الطامحة المستبشرة ، قد تعددت فيها المداخل ، وتنوعت النوافذ ، ولكنها ببوابات رئيسية ثلاث : لا ينفذ المرء إلى ساحتها العامرة إلا من خلالها¹ ، ويضيف الأستاذ أنه من الصعب مما كان الفصل بينها في تصنيف أحادي للقصائد فهناك بوابة الوطنية ، وبوابة الإسلام ، وبوابة العروبة ، وذلك لأنها تنتظم في رقع حضارية تتدرج ابتداء من رقعة الجزائر وانتهاء بالإنسانية كاملة .

ويسفر الأستاذ صعوبة الفصل بين البوابات وترتيبها ، ويعزو ذلك إلى طبيعة الهندسة التي انتظمت بداخلها فالوطن عبارة عن « خزان لطراز معين من القيم ، ومدرج لنوع خاص من السلوك والتصرف ، وملتقى نماذج محددة من التفاعلات الثقافية والعلاقات الحضارية والمبادلات الفكرية ، أي أنه في النهاية خلاصة ميراث عتيق صهرت فيه الأجيال المتعاقبة نظرة خاصة إلى الوجود ، وتوارثت

1 - ببوابات النور - التقديم - ص 21 .

فيه مجموعة من القيم توحد بينها في استخلاص تجارب الماضي ، وتحديد المسالك التي تدفع فيها الحاضر باتجاه المستقبل ، وإذن أليس كل عنصر من العناصر الثلاثة التي اخترناها عناوين لبواباتنا الثلاث يشمل في حد ذاته على العنصرين الآخرين ؟¹

ويدخل الأستاذ إلى ديوان شاعره من بوابة الوطنية ، ويقدم نموذجاً من بواكير ما نظم في هذا الموضوع ، وفي هذه النقطة يشير إلى أن بواكر التجديد كانت تلوح في شعره ، ولكنه تجدد ملتزم وأصيل ، لا يجيد عن وزنه وقافيته ، إضافة إلى أن النضال الوطني كان يدعو إلى التجديد والأخذ بأسباب الحضارة ، ولكن « يبدو أن أصداء النهضة في المشرق العربي التي رأت الخلاص في العودة إلى منهج العصور الذهبية للأدب العربي ، ودواعي الالتزام بالمنهج السلفي التي هي جوهر الإصلاح الديني ، قد فعلت فعلتها في جعل بعض الشعراء يرتدون عن مسالك التجديد ، ويرتبطون نهائياً بالشكل الموروث للقصيدة العربية ، كما تدل على ذلك سائر القصائد في ديوان شاعرنا .²

ويقدم الشاعر ما جادت به قريحته من قصائد الوطنية ، ويجول بنا الأستاذ بينها ، ليصل إلى خلاصة مفادها أن لأحداث الثامن مايو بالغ الأثر في عواطف الشاعر وعلى شعره ، ومع ذلك لم يترك سبيلاً لليأس إلى قلبه ، فراح يشحذ الهمم ، وملأ ديوانه بأصوات مجلجلة تحث على العزم على الكفاح ، ومع انفجار الثورة تختلف بالشاعر كل الأحاسيس ، وتتصاعد الزفرات من قلبه تارة ، وينتابه القلق أحياناً ، حتى ينتهي المخاض على خير ويأتي وليد الحرية ، فيهنئ به الشاعر نفسه وشعبه ووطنه وحتى بلدان أشقائه ، وهنا تفتُح البوابة الثانية .

ولنا في القصائد التي نظمها مخاطباً الدول العربية والإسلامية خير مثال ، فيها قد يظن القارئ أن الشاعر يتحدث عن الجزائر، لكنه مع ذلك يتحدث أيضاً عن كل أمة من الأقطار العربية الأخرى.

1 - المصدر السابق - ص 22 .

2 - المصدر نفسه - ص 23 .

والشاعر في كل مرة ينظم فيها قصيدة عن قطر عربي يحرص على تحديد مضمون القراية فهو يؤكد أنها ليست مجرد « انتماء نظري ، بل هي دم يجري في العروق ، آت من شرايين الأعمام والأحوال ، بل هي وشائج وطنية واحدة ، كتلك التي تربط الجزائريين فيما بينهم »¹ ويؤكد أن نفس المظهر من الانتماء يتميز به المضمون الإسلامي ، فيصبح الكيان بناء واحد إطاره الوطنية ، مضمونه الإسلام فلسفة وأخلاقا وانتماءه العروبة لغة وثقافة وجنسا .

ويخلص الأستاذ أن القصائد ذات الطابع الديني تتضمن جانبين مهمين من شخصية الشاعر :

1. البعد الأول : يتمثل في الفيض الروحي ، والحياة الصوفية التي يبحر فيها الشاعر فيتخلص من سجن جسده ، ويكسر قيود المادة ، ليرحل إلى عالم من المجردات والنورانيات بحثا عن عالم أعلى وأسمى . ومع ذلك سرعان ما يتخطفه الشوق المتأجج إلى الحرية ، فيفريق من إغفائه « إن شاعرنا ما إن ترجل عن شعاع النجم الذي حمله عبر الزمان والمكان ، حتى استشعر لهب الشوق ، وحريق الحنين . وهكذا ينجح في أن يستحضر شفافية القرب وكثافة البعاد ، حلمية المشاهدة وواقعية الغياب ، في وقت واحد »²

2. البعد الثاني : يتمثل في تطبيق معالم العقيدة الإسلامية السامية في سلوكه ، بعد شهادتها في عالم النور الذي جاء للقضاء على ظلام الجهل ، فكما مثل البعد الأول « المنطلقات الأولى العامة لعقيدة الصفاء ، فإن القسم الثاني هو الذي يمثل ترجمة تلك المنطلقات على مستويات سلوكية متنوعة ، هي المواقف العملية التي يسجل فيها الشاعر طبيعة انفعاله بأحداث دهره من موقع إيمانه »³ ولا يخلو البعدان من نفحة إنسانية في نظرة شمولية لكل قارات العالم التي أصبحت مكانا للمستضعفين يعانون صنوف الأذى ، وهذا التضامن الإنساني إلى جانب كونه نابعا من فطرة الإنسان السوي بالتعاطف والمؤازرة ، فهو أيضا تطبيق لتعاليم الدين في سلوك الإنسان وسلوك الشاعر .

1 - المصدر نفسه - ص 34 .

2 - بوابات النور - التقديم - ص 39 .

3 - المصدر نفسه - ص 40 .

وعن هذه البوابات يختم الأستاذ قوله « هذه بوابات ثلاث استطعنا أن نلمح مواقعها المتميزة في هندسة الديوان الشعرية ، فحاولنا أن تلج منها ، الواحدة بعد الأخرى ، إلى هذه المدينة الفاضلة ، وقد كان بإمكاننا أن نتوقف عند كثير من المشاهد الأخرى التي كانت تنتشر أمامنا كلما وقفنا عند عتبة هذه البوابة أو تلك ، ولكننا آثرنا الاختصار على ما تناولناه منها لأن التدقيق والتقصي يخرجان هذه الصفحات عن الغاية التي توختها .¹»

ويشير الأستاذ أنه ألم في هذا التقديم بقضايا المضمون دون قضايا الشكل ، وذلك للأسباب التي قدمها في تشكيل شخصية الشاعر الأدبية ومنهجه في نظم الشعر ، وهنا ما يبين بقدر كاف « أن هذا النمط من فنون القول يغري بمضامينه أكثر مما يغري ببريق شكله الظاهري ، والواقع أن الانطلاقة التعبيرية تبدو في أغلب الأحيان دون جلال المحتويات وأن مسيل الصياغة لا يخلق في أكث الحالات إلى مستوى الغايات المعنوية التي يرومها الشاعر .²»

كما أن التقييد الدقيق للوقائع ، وتسجيل الأحداث التاريخية ، إضافة إلى الأهداف التعليمية والتوجيهية للديوان ، قد حرمته من الضباية المحببة في الشعر كما يقول الأستاذ ، ولا يختلف معنا ثالث أن الشاعر سليل محمد العيد ، نهل منه وتأثر به إلى حد كبير ، فنظم على نهجه ، وجاءت آثاره تابعة له شكلا ومضمونا ، وحتى من حيث جميع معالمها .

والملاحظ على التقديم أنه — كما سبق قول الأستاذ — قد اقتصر على الحديث عن البوابات الثلاث الرئيسية ، وقد نصحتني في مراسلة * سابقة أن أحاول التعرض لباقي بوابات مدينته الفاضلة .

1 - المصدر السابق - ص 43 .

2 - المصدر نفسه - ص 43 .

* - المراسلة كانت عبر البريد الإلكتروني يوم الخميس 26 أوت 2010 على الساعة 01 زوالا ودقيقة واحدة و 55 ثانية من /

Madrasala@hotmail.com

التأريخ :-

نقصد بالتأريخ في هذا الديوان أن تربط القصيدة بحدث أو موقعة ما ، سواء كان هذا الارتباط مستبقا فيصبح عبارة عن استشراف وتقدير تنبؤي ، أو معاصرا فيكون عبارة عن معايشة وتسجيل للأحداث ، أو يكون مواليا لها فيكون حينئذ في شكل إحياء لذكرى ، أو تذكير بموقعة .

ومن خلال تتبع طبيعة قصائد الديوان من حيث جانب التأريخ ، تبين أنه قد يتعلق بأحداث عاشها الشاعر مع شعبه ووطنه وهي التي تسمى بالأحداث الوطنية ، وقد تكون خاصة بالشاعر مرتبطة بحياته الشخصية أو المهنية أو ردود أفعال اتجاه أحداث أو شخصيات معينة .

وقد امتدت المرحلة الزمنية التي كان الشاعر خلالها يقدم نتاجه من هذا الديوان من سنة 1945 إلى غاية سنة 1983 ، وقد اهتمت الدراسة إلى وضع تقسيم زمني عبر عشرينيات هذه الفترة ، وتتبع ما يميز نتاج كل عشرية من السنوات كما يلي :

01/ من 1945 إلى 1949 :

في هذه الفترة كان عمود الشعر قد استقام للشاعر وهو في ريعان شبابه ، ولأن الخلفية الثقافية عنده كانت قد بنيت على أساس ديني متين فإنه أول ما نظم كان قصيدته " إلى بني الإسلام " ¹ ، يناشد فيها المسلمين أن يوحدوا صفوفهم ويجمعوا شملهم ، وبعد أحداث المجازر المهولة في الثامن ماي 1945 ، جاء نتاج شعري آخر للشاعر يظهر فيه تأثره الشديد بهذه الأحداث وقد ذكرها صراحة في قصيدته " بلادي " ² الذي نظمها إحياء لهذه الذكرى بعد مرور سنة .

1 - عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 47 .

2 - المصدر نفسه - ص 83 .

وقد عايش الشاعر أحداث الحرب العالمية الثانية ، وألم بآثارها ونتائجها على واقع الشعب الجزائري ، فنظم قصيدته " فما غلب الغيوم الرياح الشوائر " ¹ ، متفائلا بالنشاط السياسي في الجزائر ، ومثيلتها القصيدة التي نظمها بعدها بعام ، أي سنة 1949 وهي " بين اليأس والأمل " يصور فيها حالة الشعب الجزائري تتجاذبه أحاسيس اليأس من جهة ، والأمل في قدوم الحرية من جهة أخرى .

أما باقي القصائد التي نظمها الشاعر في هذه الفترة فقد عبرت عن حالات وجدانية إنسانية ، ومواقف تأملية ، وبعض العلاقات الودية مع الأهل والأصدقاء مثل قصيدته " مناجاة البدر " ² التي تصور مدرجا من مدارج التصوف عند الشاعر .

02/ عشيرة الخمسينات :

تعد هذه الفترة بالنسبة للشاعر فترة ترتب وتفاؤل من جهة ، وفترة تسجيل ومواكبة لأحداث الثورة وفترة تلهف وشوق إلى الاستقلال .

فخلال السنوات الثلاث الأولى كان الشاعر يتغنى بماضي الأجداد ، ويجدد في الأسماع الذكريات الوطنية ، ويبيدي موقف الحيرة والقلق على مصير الوطن عند اشتداد الأزمة عليه ، وقد جسد هذه المواقف ورصدها في قصائد كثيرة مثل " اليوم عيد لنصر الدين والعرب " ³ نظمها سنة 1951 إحياء لذكريات وطنية ، وفي نفس العام يواكب أحداث الأزمة الوطنية والضغط الاستعماري على الشعب في قصيدته " حيرة شاعر " ⁴ ، و " حدث الشعب " ⁵ ، وسجل الشاعر أيضا ذكرى وفاة العلامة ابن باديس ، ورثاه في قصيدته " على قبر ابن باديس " ⁶

1- المصدر السابق - ص 85 .

2 - المصدر نفسه - ص 199 .

3 - الديوان - ص 89 .

4 - الديوان - ص 299 .

5 - المصدر نفسه - ص 93 .

6 - المصدر نفسه - ص 233 .

وبعد عام **1954** ، تفاعل الشاعر مع أحداث الثورة ، واكتست قصائده نوعا جديدا من أسلوب الإخبار مع نوع التحريض والاندفاع ، وجاءت مشيدة بالثورة ومساعدتها ، مباركة لها ، فجاءت قصيدته " إقبال الحرية " ¹ مخبرة عن حالها ، " كلنا اليوم ثوار " ² ، وغيرها من الأحداث التي تضمنتها مثل تذكر مجازر الثامن ماي ، ومقتل الكوميسار " سامر سيللي " وما انجر عن ذلك من بطش وعدوان على الشعب.

03/ عشرية الستينات :

بدأت بشائر الاستقلال تلوح في الأفق فيستبشر الجميع بقرار وقف القتال في **19 مارس 1962** ، ويخلد الشاعر الحدث بقصيدته " تحية جهاد الجزائر " ³ ، وتوالت بعدها القصائد مهللة بالاستقلال « تحية جيش التحرير ، ارفعي الرأس وسيري يا جزائر . » ⁴ وجاء الآن دور البناء والتشييد ، فيذكر لنا الشاعر ضمن قصائده الكثير من الملتقيات والندوات العلمية الثقافية ، سواء ما كان منها داخل الوطن أو بين الدول العربية الشقيقة ، وأهم حدث تاريخي سجله في هذه الفترة هو استقبال وفاة الشهيد الأمير عبد القادر الجزائري سنة **1967** في قصيدته " إلى روح الشهداء " ⁵ .

04/ عشرية السبعينات :

تعد هذه الفترة من أزهى فترات عطاء الرجل في الميدان التربوي ، يظهر ذلك جليا من خلال ذكره نشاطاته ضمن وزارة التربية ، كما ودع زملاءه في أكاديمية قسنطينة ، ويسجل أحداث المؤتمر الرابع لوزراء التربية العرب الذي انعقد في اليمن سنة **1972** ، ونظم قصيدة قدم فيها تحية إلى

1 - المصدر السابق - ص 95 .

2 - المصدر نفسه - ص 99 .

3 - المصدر نفسه - ص 109 .

4 - المصدر نفسه - ص 111 إلى 115 .

5 - المصدر نفسه - ص 119 .

الأعضاء في " المؤتمر العاشر للأدباء العرب سنة 1975 " ¹ ، وفي نفس السنة نظم عن قضية " التعريب " ² الذي اختتمت ندوته الوطنية الأولى من 10 إلى 13 ماي .

وبعد الصدمة التي مني بها هو وزملاءه بقرار إنهاء مهامهم في وزارة التربية ودع الجميع في " وداع وشكر ودعاء " ³ ، وأبدى موقفه من هذا القرار الغريب والمفاجئ في قصيدته " أرثيك يا نفسي بنفسي " ⁴ ، وذلك سنة 1978 .

وفي خضم كل ذلك فالشاعر لا ينسى حظ الجانب الوجداني في شعره ، ولقد ظهر هذا النوع في كل مراحل نظمه لقصائد الديوان .

وانقطع الشاعر ثلاث سنين عن النظم بسبب ما حدث لكن الذكريات الوطنية وتاريخ بلده عاد ليدغدغ ذاكرته ، فنظم سنة 1982 قصيدة إحياء لذكرى الاستقلال العشرين ، كما قدم التفاتة أخرى إلى نشاطات وزارة التربية حين عاد إليها من خلال التعاون بين الدول الشقيقة في قصيدته " من وحي القنيطرة " ⁵ وذلك عام 1982 .

وعموما ، فإن الديوان قد سجل أحداثا وطنية ، وأخرى شخصية ، أمكن من خلالها الوصول إلى الكثير من الملامح العامة للحياة السياسية والاجتماعية والثقافية التي عاش في خضمها الشاعر ، وكثير من المحطات الخاصة في حياته الشخصية .

وختاما ، قد تبين لنا جانب كبير من حياة الشاعر ما قدم له ، وما أثر فيه ، وما تسبب في تكوين شخصيته الإنسانية والأدبية على ذلك النحو .

1- المصدر السابق - ص 73 .

2 - المصدر نفسه - ص 75 .

3 - المصدر نفسه - ص 195 .

4 - المصدر نفسه - ص 253 .

5 - الديوان - ص 79 .

- ظهر أن للشاعر أعمالا كثيرة غير هذا الديوان يمكن أن تكون محل دراسة جادة هي الأخرى .

- من خلال ما يرويه تلميذه عنه ، فقد كان رجلا نبيلًا ، استحق أن يكرم من طرف السلطات ، وهذا ما جعل الأستاذ يؤنّب في مقال اتخذ نبرة لوم وعتاب لهؤلاء .

- مثل تقديم الديوان نافذة واسعة يطل من خلالها القارئ على خبايا بوابات الديوان .

- سجل الديوان الكثير من الأحداث الوطنية ، والنشاطات التربوية التي ساهمت في بناء وتشبيد المدرسة الجزائرية ، فكان بحق شاعرا ومؤرخا .

وفيما يأتي دراسة مستفيضة لهذه البوابات بمضامينها ومحتوياتها .

الفصل الثاني

الموضوعات و المضامين في ديوان بوابات النور لابن القاضي:

1. الوطن

2. الإسلام و العروبة

3. التربية و التعليم

4. الطبيعة

5. شعر الإخوانيات

6. الرثاء

7. الحنين

8. الحكمة و التأمل

يبحث هذا الفصل أهم المضامين التي طرقها " عبد القادر بن محمد بن القاضي" في ديوانه الشعري "بوابات النور" ، و تتوقف الدراسة في محاولة لتحليل هذه الموضوعات التي تتراوح بين القدم و الجدة, و الكثرة و القلة ... و هذه المضامين لا تقل مستوى عن غيره من الشعراء ، إذ لا تخلو دواوين معاصريه منها، و ما من شاعر إلا و طرقها ، و لكن شاعرنا حاول أن يضيف نفحة نورانية و إنسانية ، تجعل من هذه البوابات – كما أسماها مناهج يتبعها الإنسان في مسيرة حياته .

و هذه المضامين تراوحت بين المواضيع الوطنية و القومية ، و بين المواضيع الوجدانية الذاتية و أخرى تتمثل في الوقفات التأملية الفلسفية آملين أن يكون هذا موضحا و مفصلا في هذه الدراسة التي اشتملها هذا الفصل .

01 - الوطن :

لطالما كان الوطن هو المكان الذي يقف أمامه الشاعر و لا يملك إلا أن يطلق العنان لشعره حاملا كل صنوف الإجلال و القداسة ، وكل عواطف التعلق به ، ولما كان لهذا الوطن منذ القديم إلى يومنا هذا صور مختلفة - و المقصود هنا تطور مفهوم الوطن عبر الزمن - فإن الشعراء عبروا عنه بألفاظ مختلفة لكنها مشتركة الدلالة ، متمحورة على مجموعة الروابط الشخصية و الروحية و الثقافية و الاجتماعية و التاريخية و السياسية ، فكلمة الوطن جاءت في « ألفاظ مختلفة متعددة تختلف بحسب مساحة دلالتها المكانية ، ... ، و بحسب الترتيب التالي ، ... ، المنزل و الدار و البيت ، ... ، و المغاني و الربوع ، ... ، و الأطلال و الدمن و الأوثان... ، و المدينة و الوطن و البلد، و الأرض. »¹ أما في وقتنا ، فمع أن الوطن ظل محتفظا بمفهومه اللغوي القديم فإنه قد تأطر في أطر جديدة ، وأصبح يعني التمتع في مساحة ترابية تحكمها سلطة سياسية .

و تختلف الرؤى حول صور الوطن ، فمنه ما يسمى بالأوطان الصغرى ، أو الدول ، ثم الأوطان القومية مثل الوطن العربي الكبير ، ثم تتسع دائرة الوطن حتى تصل إلى القارة ، و ذلك حسب قوة الروابط ، و هناك من يتبنى فكرة الوطن الإسلامي و القومية الإسلامية التي كانت وظلت حلم كل الشعراء المسلمين .

كما أن هناك من ركز في إعطاء مفهوم للوطن على الجانب اللغوي و السياسي ، فيصبح الوطن بمعنى : « استوطن القوم هذه الأرض توطنها ، أي اتخذوها سكنا ، وهو عند أهل السياسة مكانك الذي تنسب إليه ، ويُحفظ حقك فيه و يُعلم حقه عليك ، و تأمن فيه على نفسك و آلك و

1- د. وهيب طنوس - الوطن في الشعر العربي ، منشورات جامعة حلب - سوريا ، 1980 ، ص 178 .

مالك ، ومن أقوالهم فيه لا وطن إلا مع الحرية .¹ ، ومن دلالات الوطن اللغوية أيضا أن يكون بمعنى : « عش الإنسان الذي درج عليه ومنه خرج ومجمع أسرته ، وهو الذي أنشأته تربته و غذاؤه و هواؤه .² »

ومن هذا المنطلق ، فإن رواد الفكر الإصلاحي الجزائري يتفقون على تقارب مصطلحات الأمة ، و الوطنية و القومية و الجنسية ، كما أنهم يتفقون أن التفريق بين هذه المفاهيم لا يتضح إلا من خلال « مقومين أساسيين هما : الدين و اللغة و اتخاذهما معيارين للتفريق بين المدى الوطني الإسلامي و المدى الوطني القومي .³ »

أما ما يخص مشاعر حب الوطن ، فقد كان الجزائريون مثلاً رائعاً يُحتذى به في تقديس الوطن و سمو العواطف التي يحملونها اتجاهه ، لأن الوطن في نظرهم « لا يمثل التراب فقط ، بل يمثل كيان الإنسان الروحي و المادي ، و استمراره في الحياة بل إنه رمز الحرية و الانطلاق .⁴ »

وقد جند الشعر الجزائري الحديث كل طاقاته الإبداعية من أجل طرق مختلف الأغراض و المواضيع ، و قد نال حصة الأسد منها شعر حب الوطن و التغني بمفاخره و أمجاده ، و تمجيد بطولاته

1 - د. محمد محمد حسن ، الاتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر ، دار النهضة العربية - بيروت لبنان - ط 3 - 1972 - ص 78 .

2 - بحوث و مناقشات الندوة الفكرية حول القومية العربية و الإسلام - مركز الدراسات الوحدة العربية - بيروت لبنان - 1980 - ص 35 .

3 - معمر حجيح - البعد الوطني و القومي و الإسلامي في ديوان التراويح و أغاني الخيام لأحمد الطيب معاش - دراسة تحليلية فنية - رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي - جامعة باتنة - معهد الآداب - 1992-1993 ، ص 40 .

4 - د. محمد زغينة - شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - دار الهدى للطباعة و النشر و التوزيع ، عين مليلة - 2004-2005 ، ص 59 .

و تسجيل كل حدث من أحداثه ، فأصبح بذلك سجلا خالدا يحفظ ذاكرة الجزائر و يدافع عن قضاياها دفاعا مستميتا .

ويمكن أن ندرج شعر " عبد القادر بن محمد بن القاضي " ضمن هذا الإطار لأنه من الشعراء الذين عبّؤوا كل « طاقاتهم من أجل الوطن الذي حاولت فرنسا سلب شخصيته ، ومسح هويته ، وانبروا للدفاع عن الوطن و حراسة قيمه و مثله التي ورثوها عن آبائهم و أجدادهم ، ووقفوا في وجه تيار التفرنس و الإدماج يصارعون المد الاستعماري بوجهيه الظاهر و المكنع .¹

وشعر " عبد القادر بن محمد " الذي نظمته في موضوع الوطن قد طرق مجموعة من الذكريات الوطنية ، وتحدث أيضا عن حال الجزائر المزرية جراء ما حدث من نزاع و تضارب بين الأحزاب الوطنية وناشدها بنبذ الخلاف وجعل مصلحة الوطن فوق كل مصلحة شخصية ، و قد تأثر الشاعر كثيرا بأحداث الثامن ماي 1945م ، ونظم فيها أبياتا رائعة ، واستهوته الحرية فنظم عنها على لسان حاله ، ولسان الطير و شذا بها و رآها شعلة قد أنارت حتى قبل مجيء الثورة ، واستبشر بها بعد اندلاع الثورة التحريرية ، وكان يرافق و يعيش أحداث الثورة بروحه و قلبه و يدعو و يبتهل إلى الله أن يأخذ بيد الثوار إلى النصر ، وتغنى بالأناشيد بعد مجيء النصر وانفراج الأزمات وحيى الجبهة و الجيش ووقف أمامها وقفة إجلال و إكبار ، وظل ينظم قصائده حتى بعد الاستقلال في تخليد

1 - كمال غجالي - ديوان مصطفى بن رحمون - دراسة فنية تحليلية - ديوان المطبوعات الجامعية - الساحة المركزية بن عكنون ، ص 148 ، 149 .

الشهداء و إحياء أجداد الأجداد و بطولاتهم ، و ككل جميع هذه القصائد ، بوحدة من أروعها إلماما بتاريخ الجزائر و قد عنوانها ب " مسيرة الجزائر " ¹

هذا بصفة إجمالية جل ما تناوله الشاعر في شعره عن حب الوطن و إجلاله ، و سنحاول الآن التفصيل في حديثنا عن هذه النقاط التي تناولها في قصائده :

إن أول ما يشد انتباهنا ونحن نقرأ قصائد ابن القاضي في الوطن أنه كان من الشعراء الذين نظموا للثورة و استشفروا معركة النصر قبل مجيئها ، و كان ممن « عاشوا الثورة واقعا ملموسا بعد أن تنبأوا بها قبل اندلاعها بسنوات » ² . فهو يرى أن المقل و إن سكبت الدموع الحارة ، و القلوب و إن تحسرت و تفجعت على ما حدث بعد آلام الثامن ماي فإنه لابد للشعب أن يتحرك ، أن ينفجر ، أن يثور من أجل هدفه النبيل و لابد أن تعم الثورة كل ربوع الوطن ، لتطهره من آثار القدم الاستعمارية الهمجية :

بلادي بلادي كبلوها بأغلالِ رموها بأهوالِ
وناح عليها النائحون كأطفالِ لدى كل أجيالِ
أبكي؟ وهل يجدي انسكاب المدامع كضرب المدافعِ
أشكو؟ ومن يرثي لتلك الفواجع ومن للنداء يعي؟ ³

ثم يدرك انه لابد من أخذ العبرة من أحداث الثامن ماي ، و أنه لا اتفاق مع فرنسا بعد أن أثبتت في أكثر من مناسبة نقضها للعهود و خيانتها للمواثيق ، يقول مخاطبا بلاده :

1 - بوابات النور ، عبد القادر بن محمد بن القاضي ، المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1990 - ص 123 .

2 - شلتاغ عبود شراد ، حركة الشعر الحر في الجزائر - المؤسسة الوطنية للكتاب - 3 شارع زيروت يوسف - الجزائر 1985 - ص 92 .

3 - بوابات النور - ابن القاضي - ص 83 .

فلم يبقَ إلا أنْ تثوري وَ تصْعدي لأنبِلِ مقصدِ

فثامِنُ ماي يا بلادِي شاهدُ وَ للشعبِ رائدُ

حوادثُهُ رَغَمَ المآسي فوائدُ فَهَلْ أَنْتَ راقِدُ ؟

لقد حَانَ وَقْتُ الزَّحْفِ شَرْقا وَمَغْرِبا تَهَيَّأ لِتَضْرِبَا؟¹

فالشاعر هنا وإن بكى ، لم يكن بكاء سلبيا ، غرضه النواح و العويل و التفجع ، إنما كان بكاء يصور لنا واقعا وحالا بائسا و خطيرا « فالشاعر لم يكن مدعيا ، ... ، و لكنه كان رسول تعبير صادق ، عن واقع لا يسعف بأكثر من (دمعة حارة) أو آهة ممزقة ، ... ، وفلسف البكاء بالترويح عن النفس المعذبة و تأثير الموعظة و الذكرى .»²

ومن القضايا الوطنية التي عالجها الشاعر قضية الخلافات في الرؤى السياسية بين الأحزاب السياسية و الوطنية ، وقد نظم قصيدة طويلة لهذا الغرض في حوالي واحد و تسعين (**91 بيتا**) ، نظمها في قسنطينة في الثامن ماي من عام **1948م** ، ويبدو أن شاعرنا يراعي كثيرا هذه المناسبات الوطنية ، فيقول عنها : « نظمناها لأصف وضعية الجزائر و ما حل بها من شدائد و أهوال و من تضارب الأحزاب ، وأنشدتها في بيت أحد المناضلين أمام جمع غفير من الوطنيين و كان ذلك سرا بأحد المنازل تحت قنطرة سيدي راشد كعهدنا في كل اجتماع من الاجتماعات النضالية السرية . »³

1 - المصدر نفسه - ص 83 .

2 - د. صالح خرفي - الشعر الجزائري الحديث - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر 1984 - ص 106 .

3 - ديوان بوابات النور - ابن القاضي - ص 88 .

مُستهلُّ القصيدة تحية وسلام إلى جمع المناضلين ، وإكبار لمساعيهم في حفظ الدين و اللغة ، و الذين بذلوا النفس و كل الغالي في سبيل تشييد وجد و سؤدد لا يهدم و لا يبارى :

سَلامٌ عَلَى مَنْ يَنْصُرُونَ الشَّعَائِرَ سَلامٌ عَلَى مَنْ يَحْفَظُونَ الْعَشَائِرَ

سَلامٌ عَلَى مَنْ يَرشِدُونَ نَفوسَهُمْ وَمَنْ فِي سَبِيلِ الدِّينِ عَافُوا الْجَوَاهِرَ

بَتَيْتُمْ صُرُوحًا لِلشَّهَامَةِ وَالْحِجَا وَأَحْيَيْتُمْ بِالصَّالِحَاتِ الْجَزَائِرَ

وَمَثَلْتُمْ الْإِخْلَاصَ وَالصِّدْقَ وَالنَّهْيَ وَلِلْمُخْلِصِينَ اللَّهُ كَانَ مُسَايِرًا¹

ثم يلج الشاعر إلى حديث طويل أو حوار وجداني بينه و بين ملهمه فيأخذ يخاطبه و يستجديه ألا يهجره في وقت قد خيم فيه ظلام الاستعمار ، وثقلت وطأة الظالمين و البلاد تنوء تحت هذا النير الذي يخنقها ويشد من خناقها كلما حاولت الإفلات ، « فيجأ الشاعر مخاطبا حفيه و صفيه الشعر مفرج الكرب ، و سر الجمال للشاعر المختنق ، و هواء الوطني السجين . »² فيوجه ندائه قائلا :

أَيَا شَعْرُ حَبِي الْعَامِلِينَ تَحِيَّةً مُبَارَكَةً وَأَذْكَرُ نِسَاءً حَرَائِرًا

بِرَبِّكَ غَرَّدَ مَا دَهَاكَ هَجَرْتَنِي وَهَاتَ لَنَا تِلْكَ الْأَغَانِي هَاجِرًا

وَلَا تَخْشَ كَيْدَ الظَّالِمِينَ فَإِنَّمَا خَلَقْتَ عَزِيزًا لِلْحُقُوقِ مُظَاهِرًا

بِلَادُكَ أَضْحَتْ لِلْبَلَايَا فَرِيَسَةً يَسُومُونَهَا خَسْفًا وَقَدْ كُنْتَ قَاهِرًا

رَمَاهُ الْعِدَى بِالنَّائِبَاتِ وَ طَالَمَا أَذَاقُوهُ ظِلْمًا فِي اللَّيَالِي الْمَخَاطِرَا³

1 - المصدر نفسه - ص 85 .

2- د. محمد زغينة- شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - ص 12

3 - ابن القاضي - الديوان - 85

و يسترسل في حديثه مع شعره ، و يسرد ما جارت به يد المستعمر الأفافة في حق البلد وفي حق الشعب ، ثم يسترجع أحداث المجازر في : سطيف ، خراطة و قالمة ، و ما خلفته من آثار و كلوم في جسد الوطن و في روح شعبه ، يقول :

تخضبت الأرض العزيرة بالدمما ففاضت وأمسى فوقها الدمع ماطرًا

فسل حادثات "أسطف" إن كنت جاهلاً و"قلمى" و "خرّاطى" إذا كنت ناكراً

تجبك الرياح السافيات بواكيا و تنبئك آثار الطلول حواسراً¹

كأنى بالشاعر قد قام بطقس من طقوس الشعر وهو يقدم لنا قصيدته و يستهلها بهذه المقدمة التي لا يمكننا أن نقول إنها غزلية على غرار ما نلقاه في الشعر القديم ، إنما يمكن لنا أن نقول عنها وجدانية لأن الشاعر فتح قلبه ، و بث مشاعره و شكاهها إلى شعره .

بعد هذه المقدمة يخلص بنا إلى الموضوع الرئيسي الذي سبقت الإشارة إليه ، وهو خطاب موجه إلى الشعب يتساءل فيه الشاعر أين بنو النخوة ؟ ، أين الوطنية ؟ أين وحدة الآراء ؟ أين الوفاء ؟ ونبذ الغدر و الشقاق ؟ ، يقول :

بني الشعب هل في قلبكم وطنية ؟ وهل صار ذاك العزم للمجد طائراً ؟

بني الشعب هل حب الجزائر خالص ؟ وهل في دم الأحرار يزيد زائراً ؟

بني الشعب هل وحدتم الصف والخطا ؟ وهل سرتتم نحو الأعالي قساوراً ؟

بني الشعب هل شحذتم السيف والقنا ؟ ليطعن عدو كان بالعرض ساخراً ؟²

ثم يكشف المستور أكثر ، ويرفع الأسدال عن أسرار هذه المقاطعات و دواعي هذه المشاحنات ، و يتساءل كيف يتغير المرء و يحيد عن مبدئه و يقدم غرضه على وطنه ، وبذلك فقد كان «

1 - ابن القاضي - الديوان - ص 86 .

2 - المصدر نفسه - ص 86

متعقبا هذه المأساة ، تعقبه الذين وراءها ، يفضح أبعادها الاجتماعية بما بثت من فرقة و انشقاق في الشعب ، و أبعادها السياسية بما جرت من الانحراف عن المصلحة العليا للقضية الوطنية ، ... ، يفضح التناقض الصارخ بين الوعود البراقة في الدعايات الانتخابية ، والتنكر الأرعن بعد الجلوس على الكراسي . ¹ « وهذا فعلا ما نراه في قوله :

فَمَالِي أَرَى هَذَا التَّقَاطُعَ بَيْنَكُمْ وَ بَيْنَكُمْ هَذَا التَّبَاغُضَ سَائِرًا ؟
وَ فِي الدِّينِ أَنْتُمْ وَ الْجَزَائِرُ إِخْوَةٌ أَمِنْ يَرْضَعُ الشَّدِيدِينَ يُضْحِي مُنَاكِرًا ؟
أَلَا أَيُّهَا الْأَعْلَامُ أَعْلَامَ شَعْبِنَا لَقَدْ سِرْتُمْ سَيْرًا يُنَافِي الشَّعَائِرَ
فَمَا قَوْلُكُمْ يَوْمًا أَمَامَ إِهْنَا إِذَا سَأَلَ الرَّحْمَانُ مَنْ كَانَ غَادِرًا ؟
وَ مَنْ كَانَ شَرِيرًا جَبَانًا مُنَافِقًا ؟ وَ مَنْ كَانَ جَبَارًا ؟ وَ مَنْ كَانَ جَائِرًا ؟
وَ مَنْ أَثَرَ الْأَعْرَاضَ دُونَ بِلَادِهِ ؟ وَ مَنْ سَعَى بِالْمَكْرُمَاتِ مُتَاجِرًا ؟ ²

وبعد تشخيص الداء ، لا بد من وصف الدواء ، إن علاج داء الفرقة هو التنبيه إلى عواقبها الوخيمة ، فالشاعر يحذر و ينبه و يذكر ، و يرغب و يرهب ، و يحاول أن يجمع بين كل الأطراف ، و يشيع بينها التسامح ، و ييث في الضمائر الميتة حياة دافئة تجعلها ترشد إلى الطريق السوي فتنبذ الخيانة ، و تمجد الشعب ، و تبعث روح الغيرة على الدين و الوطن و العرض ، و كان هذا الكلام « أقوى دافع للوحدة الوطنية ، و أكبر باعث على العمل الإيجابي للبناء ، ... ، و تبصير الشعب بالعواقب السيئة لهذا الانحراف و تذكيره بالرسالة المقدسة التي تسمو فوق المهارات الحزبية و الهدف البعيد الذي لا تقربه إلا التضحية . ³ « وهذا فعلا ما نجده في قوله :

أَحْذَرُ مَنْ يَرْضَى الْهَوَانَ لِشَعْبِهِ وَ مَنْ ظَلَّ فِي بَحْرِ الْخِيَانَاتِ مَاجِرًا

1 - د. صالح خرفي - الشعر الجزائري الحديث - ص 178 .

2 - ابن القاضي - الديوان - ص 87

3 - د. صالح خرفي - الشعر الجزائري الحديث - ص 181 .

أَشْجَعَ مَنْ فِي قَلْبِهِ الْخَوْفُ سَاكِنٌ^{٨٨} بِقَوْلِي وَ أَفْعَالِي لِيَغْدُو نَائِرًا
فَوَاحِسَرَةً لَوْ كَانَ فِي الْقَلْبِ ذَرَّةٌ^{٨٩} مِنْ الْعِزِّ لَاخْتَارَ الْحُتُوفَ الْغَوَادِرَا
إِذَا كَانَ لَا يَهْتَزُّ حُزْنًا وَغَيْرَةً^{٩٠} عَلَى مَنْ قَضَوْا دَهْرًا أَبَاةً قِيَاصِرَا
إِذَا كَانَ يَسْعَى فِي شِقَاقٍ مُنَافِقَا وَيَضْمُرُ بِاسْمِ الدِّينِ دَاءً مُحَامِرَا
إِذَا كَانَ يَحْمِي الْكَافِرِينَ وَ يَنْتَمِي إِلَيْهِمْ وَ لِلْإِخْوَانِ يَنْدِي الْخَنَاجِرَا^{٩١}

ومع كل هذه الآفات المستعصية ، فإن الشاعر حاول أن ييث روح التسامح و يشيع مبادئ التسامي عن النقائص ، و الترفع عنها ، و طلب المجد للوطن و الدين و الإسلام ، والشاعر يحذوه أمل كبير و رجاء عميق ، بأن يجد سامعين لندائه ، و ملبين لصوت النصر و الحرية :

سَلَامٌ عَلَى الْإِسْلَامِ وَ الضَّادِ وَ الْحِمَى سَلَامٌ عَلَى مَنْ كَانَ لَيْثًا مُغَامِرَا
أَلَا لَيْتَ قَوْمِي يَسْتَجِيبُونَ لِلْنَدَا مِنْ الشَّامِخَاتِ الشُّمِّ يَسْمَعُ زَائِرَا
يَكُونُ لَنَا نَصْرٌ مُبِينٌ مُحَقَّقٌ^{٩٢} وَمَنْ يَنْصُرُ الرَّحْمَانَ يُسْعِفُهُ نَاصِرَا^{٩٣}

و نلمس في هذه الأبيات بعدا إصلاحيا يكمن في نبذ الخلافات و شد عرى التآخي و الاتحاد بين المطالب و إن اختلفت السبل ، فمادام الوقت يؤذن بحدوث التغيير فلا بد من التحضير و التوعية و التعبئة من أجل الثروة .

فقضية الخلافات الحزبية هذه ، قد شغلت بال شاعرنا على غرار كل الشعراء الوطنيين لأن «المتتبع للشعر الوطني في هذه المرحلة ، يلاحظ اهتمام الشعراء بقضية الخلافات الحزبية بصورة جدية ،

1- ابن القاضي - الديوان - ص 88 .

2 - المصدر نفسه - ص - 88

فالخلافات السابقة عصفت بوحدة الصف الوطني، وأدت إلى ركود الأوضاع ، ما أعاد إلى الأذهان أوضاع ما قبل النهضة.¹

و الشاعر في كل مرة يدعو إلى الوحدة ويذكر بماضي الأجداد ، وينصح الجزائريين برجوع إلى بعضهم البعض بعد الانقسام الذي وقع بينهم ، والشقاق الذي حصل بين الأشقاء ، بتدبير من الاستعمار و المغرضين . ومع هذه الدعوة يَحْذو الشاعر رجاءً وأملٌ أن يلقي نداؤه أدنا صاغية يقول :

أَشْجَعُ مَنْ فِي قَلْبِهِ الْخَوْفُ سَاكِنٌ بِقَوْلِي وَأَفْعَالِي لِيَغْدُو نَائِرًا
أَرْغَبُ فِي الْجَوَازِ مِنْ صَارِ فِي الدُّنَا مُعِيدًا لَهُ تِلْكَ الْقُرُونِ الْغَوَابِرَا
عَسَى هَذِهِ الذِّكْرَى تَقْوِي شُعُورَهُ وَتَبْعَثُ فِيهِ الرُّوحَ إِنْ دَامَ فَاتِرَا²

ولم يدخر الشاعر جهدا في تبصرة الشعب وتنبيهه، ودعوته إلى نبذ الخلاف ،وتوحيد صفوف والسير قدما حاملين مشعل الحرية إلى النصر.

و الشاعر مع اهتمامه بقضية الخلافات الحزبية ، قد نحا نحو آخر من أجل الدعوة إلى التخلي عن النعرة ، و توحيد صفوف الشعب ، وذلك من أجل إنعاش الذاكرة الجزائرية و الحديث عن الذكريات الوطنية و عما كان للسابقين من مجد وسؤدد سجل على صفحات التاريخ .يعود لإحياء الذكرى من أجل الاتعاظ وأخذ العبرة ، يذكر الشعب بها ، ويبصر الشباب ليعملوا لنيل مكرمات مثلها نظم في إحياء الذكريات الوطنية قصيدتين الأولى « اليوم عيد لنصر الدين والعرب »³ ، والثانية «حدث الشعب »⁴ ، وفي كل منهما حديث ونداء وتذكير، كان فيهما يحدث الشعب عن

1 - أحمد أشرف الرفاعي - الشعر الوطني الجزائري من 1925 إلى 1945 - دكتوراه الدرجة الثانية - السنة الجامعية 1978-1979 - بإشراف د. عبد الله الركبي - نقلا عن : كمال عجلي : أبو بكر مصطفى بن رحمون حياته و شعره - ديوان المطبوعات الجامعية - 1991 - ص 156 .

2- ابن القاضي - الديوان - ص 87 .

3 - المصدر نفسه - ص 89 .

4- المصدر نفسه - ص 93 .

شبابه ، وأحيانا العكس ، فإنه يحدث الشباب عن شعبه ، وسيأتي تفصيل ذلك في الأبيات ، وهو في الأولى أكثر إلحاحا على الشباب فكان « داعيا الجيل الجديد للعمل والإخلاص فيه ، والوفاء لأجيال التضحية والغداء . »¹

ورغم أن الشاعر لم يفصح أيُّ من الذكريات كانت مناسبة لنظم قصيدته ، إلا أن تاريخ إلقائهما ، قد يدلنا على أنهما من ذكريات شهر مارس ، شهر الأحداث وشهر البطولات وشهر الشهداء ، فقد ألقى الأولى بالجزائر العاصمة في يوم يوافق الحادي عشر (11 مارس) من عام 1951² والثانية في اليوم العاشر من نفس الشهر عام 1952³ .

لقد نظم الشاعر القصيدة الأولى وهو في ريعان الشباب والفتوة ، وهو بعد الطالب « في معهد الدراسات الإسلامية العليا بالجزائر العاصمة . »⁴

وكونه كذلك فقد كانت الأبيات دعوة إلى إحياء الدين والعروبة من أجل أن يحيا الوطن ، فهذان عرقان أساسيان من أجل بعث الحياة في شجرة مجد الجزائر .

يبدأ بداية متفائلة ، يعطينا مشهدا حيا بالألوان والأنوار ، هذا اليوم الذي اجتمع فيه مع إخوانه ليلقي قصيدته يوم مبارك ، يوم لا بد فيه من إزالة غيوم الظلم والظلام ، والسعي نحو غد مشرق ، يضمده فيه الشعب جراحه ، ويللمه شمله ، يوم يحمل البشرية قي أهي صورها ، ويبعث الأمل في مشاعر كادت تنخبو وتموت ، يقول :

اليَوْمَ عِيدٌ لِنَصْرِ الدِّينِ وَالْعَرَبِ اهْتَرَّ قَلْبِي لَهُ بِالشَّعْرِ وَالطَّرَبِ
اليَوْمَ شَمْسٌ بَدَتْ فِي الأفقِ بِاسِمَةٍ رَغَمَ الرُّعُودِ وَرَغَمَ اللَّيْلِ وَالسُّحُبِ

1 - د.عمر بن قينة - في الأدب الجزائري الحديث : تاريخا وأنواعا وقضايا وأعلاما - ديوان المطبوعات الجامعية - 1995 - ص 70 .

2 - ابن القاضي - الديوان - ص 91 .

3- المصدر نفسه - ص 94 .

4 - المصدر نفسه - ص 7 .

فَبَادَ مَا كَانَ فِي الْأَرْجَاءِ مِنْ ظَلَمٍ وَعَادَ لِلشَّعْبِ نُورُ الْعِزِّ وَالْحَسَبِ

وَزَالَ مَا كَانَ فِي الْأَرْوَاحِ مِنْ كَمَدٍ وَمِنْ جَرَّاحٍ جَرَّاحِ الْيَأْسِ وَالرُّغْبِ

بَشْرَاكَ يَا شَعْبُ هَذَا الْعِيدُ بَسْمَتُهُ مِنْ وَمَضَّةِ الْبَرْقِ أَوْ مِنْ لَمْعَةِ الذَّهَبِ

والنور نور من الآداب منبثق أحیی مشاعرنا من قبرها الخرب¹

ثم يعقب هذه المقدمة مجموعة من التساؤلات نحو شعبه ، وطاب لي أن أسميها « يا شعب كنت فكيف أصبحت ؟.... » ، كيف كان الشعب مفتخرا بالعلم والأدب ، عزيزا لا تناله الخطوب ، كيف كان بنو الشعب الأباة يصونون مجدهم و سيادتهم ، كيف كان يعين الشعوب على تخطي مصائبها ويحس بآلامها وكروبها ، " وكيف أصبح " هي مجموعة من الحالات التي آل إليها الشعب في نظر الشاعر ، من تفهقر أدبي وعلمي وأخلاقي ، وهذا ما جعله عرضة للأطماع ، عرضة لتهالك الأنذا ل على عزته ومجده ، عرضة لشق أنواع الذل الذي ينطق الصخر من جرائها ، " كفى ذلا وهوانا " :

يا شَعْبُ كُنْتَ عَلَى الْأَقْوَامِ مُفْتَخِرًا بِالْعِلْمِ وَالْمَجْدِ وَالْأَخْلَاقِ وَالْأَدَبِ

فَكَيْفَ أَصْبَحْتَ بَيْنَ النَّاسِ مَسْخَرَةً وَجُثَّةً بَيْنَ حُبِّ اللَّهِ وَاللَّعِبِ

يا شَعْبُ كُنْتَ أَبْيَا صَانَ حُرْمَتَهُ وَصَانَ سُدُودَهُ مِنْ أَقْدَمِ الْحِقْبِ

فَكَيْفَ أَصْبَحْتَ تَرْضَى بِالْهَوَانِ وَلَا يَنْشَقُّ قَلْبُكَ مِنْ حُزْنٍ وَمِنْ غَضَبِ

يا شَعْبُ كُنْتَ تَعِينُ الْبَائِسِينَ عَلَى حَرْبِ الزَّمَانِ وَحَرْبِ الْفَقْرِ وَالْكَرْبِ

فَكَيْفَ أَصْبَحْتَ مِثْلَ الصَّخْرِ فِي صَمَمٍ؟ وَالصَّخْرُ صَدَّعَهُ : أُمِّي أَخَاهُ أَبِي !²

1 - ابن القاضي - الديوان - ص 89

2- المصدر نفسه - ص 89 .

وقد استغل الشاعر هذه الذكرى وهذه المناسبة استغلالاً يجعله ييث أفكاره وآماله ، مستعملاً تقنية « الالتفات إلى الماضي واستحضار مواقفه المجيدة ومقارنتها في هلع وتفجع بالحالة الراهنة التعيسة ،... ، وفي كل ذلك تحفيز للهمم وبعث للنخوة التي كان انفصالها عن ماضيها تحت تأثير الجهل والثقافة المدسوسة من أكبر العوامل على قتل الحيوية الدافقة ، وإخماد الجذور المتقدة في نفوس المواطنين .»¹

واستطاع بهذا السبيل ، أن يصل إلى الحديث عن غايته وهي استنهاض النفوس من أجل الإعداد للتغيير ، إذن هذه المناسبة لم تكن « أكثر من وسيلة يتستر بها الشاعر خشية عين الرقيب ، الذي يحرص على قتل كل نفس ينشد الحرية أو يتشوق للاستقلال .»²

ثم يبرر الشاعر لشعبه لماذا تحدث إليه بهذا الكم من الصراحة ، وبهذا الواقع الذي صدمه به ، ويؤكد له أن الحال ما جعل مدامعه تنسكب ، ثم أعطى لنفسه فسحة من الأمل والرجاء ، لعل هذه الدموع تكون دواء لفؤاده المكلوم ، ويذا حانية على الأشقياء ، لعل فيها المطر الذي يبعث الخضرة و الحياة يقول :

يا شَعْبُ عُدْرًا إِذَا جَاءَ الْقَرِيضُ بِمَا	يشجيكَ ، إِنَّ شُعُورِي الْيَوْمَ كَالْعَبَبِ
جئنا نقيمُ احتفالَ الذِّكرياتِ وَمَا	للذِّكرياتِ كلامُ العلمِ والأدبِ
كلامُهَا الشَّعْرُ، وَالشَّعْرُ الدُّمُوعُ ، فلا	تلمْ دُمُوعِي إِذَا سَالَتْ مَعَ الطَّرَبِ
فاذرفِ معي دَمْعَةً يَا شَعْبُ وَاحِدَةً	لعلَّ في الدَّمْعِ مَا يَشْفِي مِنَ الوَصَبِ
لعلَّ فيه دَوَاءَ الحُبِّ مُسْتَتَرًا	وبلسمًا لِجراحِ البُغْضِ والشَّغْبِ
لعلَّ فيه حنانًا لِلَّذِينَ شَقُّوا	والشَّقْوُ لِلرُّوحِ مِثْلُ النَّارِ لِلْحَطَبِ
لعلَّ فيه الدُّمُوعَ السَّائِلَاتِ عَلَى	تلكَ الرُّوابي تَرِينَا حَضْرَةَ العُشْبِ ¹

1 - د. صالح خرفي - الشعر الجزائري الحديث - ص 52 .

2 - كمال عجالي - أبو بكر مصطفى بن رحمون - ص 166

لكن الشاعر سرعان ما يكفكف دمعته ، وتسري في عروقه حرارة الشباب ، فيرنو إلى بلوغ مطامحه والنهوض بشعبه ، فهو لم يستسلم لمدامعه ويعيش في عزله كما سنرى ، لأن هذا الصف «ليس بشاعر بل ليس بإنسان على الإطلاق ، لأنه إما ألا يتأثر بما حوله ، وإما أن يعيش في عزلة ذاتية تخيم عليها الدموع ، وتكتنفها الأوهام والأباطيل .»² ، وهذا ليس منطبقا على شاعرنا فهو يرى الشعب و شبابه كالبحر وموجه ، ولا بد لهما من السير معا وإعداد الوثبة للتغيير من أجل تحقيق مطمح غال وعزيز إنه النصر يخاطبهما مناشدا إياهما بالإنحداد والتكاتف :

نحنُ الشبابُ كورْدٍ باتَ في هَبٍ والورْدُ يهوى الندى إن باتَ في هَبٍ
نحنُ الشبابُ كمَوْجِ البحرِ مَطْمَحُهُ بلوغُ غاياته بالوثبِ والجَلْبِ
وأنتَ يا شعبُ مثلَ البحرِ حِكْمَتُهُ بلوغُ تلكَ المني بالسحبِ لا الخَبَبِ
يا بحرُ! يا مَوْجُ! يكفي الخلفُ بينكما إنَّ اتِّحادَكما نصرٌ بلا ريبٍ³

فالشاعر يرى الشباب في عنفوانه وقوته واندفاعه كثر ورصيد ثمين للوطن ، لكن لابد له من سياسة رشيدة تسوس قوته وتوجهها بحكمة من أجل تحقيق أهداف الحركة نحو التغيير والنصر .

ولا يكل الشاعر و لا يمل من نداء الشباب ، نداء تحدث فيه « عن الأخلاق و دعا فيه إلى الفضيلة و السلوك الإسلامي الأمثل ، و حذر من سوء العاقبة ، و المصير للفرد و الجماعة . »⁴ ، وهو من خلال حديثه إلى الشباب عن روح الاتحاد و التكاتف من أجل استعادة الكرامة ، إنما كان يرمي إلى أهداف إصلاحية تيسر السبيل لإعداد جيل المقاومة الذي سيأتي فيما بعد :

رُحْمَاكُمْ أيها الشبابُ لا تدعوا عَرْضَ الجزائرِ في ذلٍّ و في سَلْبِ

1 - ابن القاضي - الديوان - ص 89 ، 90

2 - د. عبد المالك مرتاض - نهضة الأدب العربي في الجزائر - 1925 ، 1954 - الشركة الوطنية للنشر و التوزيع - الجزائر - 1983م - ص 14 .

3 - ابن القاضي - الديوان - ص 90

4 - كمال عجالي - أبو بكر مصطفى بن رحمون - ص 165

رُحْمَاكُمْ وَحَدُّوا الْقَوَاتِ وَ انْتَصِرُوا
لِلْمَجْدِ يَا قَوْمَ إِنَّ الْمَجْدَ فِي صَبَبِ

حَيْثُ الْحَقِيقَةُ أَضْحَتْ لَا وُجُودَ لَهَا مُذْ جَرَّعُوهَا كَثُوسَ الذِّلِّ وَالْكَذِبِ¹

وهو يحاول تبصرة الشعب و الشباب إلى محاولات الاستعمار في تشويه الحقائق و تزييف الوقائع ، و
إلباس ثوب الحق ، من أجل هذا يدعو و يستنهض لإعادة العدل إلى نصابه و الحق إلى ذويه ، لا بد
من إعلان صرخة مدوية ترفض هذا الباطل و تدحره و تقتلعه من أصوله :

حَيْثُ الْفَضِيلَةُ ظَلَّتْ عِنْدَنَا شَبَحًا تَبْكِي دِمَاءَ عَلَى أَثْوَابِهَا الْقَشْبِ

قَدْ جَرَدُوهَا بِلَا عَطْفٍ وَ لَا خَجَلٍ وَ أَلْبَسُوهَا ثِيَابَ اللُّومِ وَ الرَّجْبِ

وَ قِيدُوهَا وَ دَاسُوا وَجْهَهَا عَبَثًا وَ زَيْنُوا ضِدَهَا لِلنَّاسِ بِالذَّهَبِ

كُلِ الْقُلُوبِ تَضْجُ الْآنَ مِنْ كَمَدٍ وَاحِرَ قَلْبَاهُ مِنْ قَوْمٍ بِلَا أَدَبٍ !²

ثم يقرر الشاعر أن سكب المدامع و التحسر دون تحريك ساكن ، لا يجدي نفعا أمام ما تنوء البلاد
تحتة من ظلم و استبداد ، فلا الشعر و لا الرسم و لا اللحن الغاضب ، و لا الخطب المجلجلة تحقق
الوثبة و التغيير دون أن تدعم بأعمال جادة ذات تخطيط محكم يقود بالأجيال إلى تحقيق الغاية :

رَبَاهُ ! يَكْفِي بِلَادِي الْيَوْمَ مَا لَقِيتُ إِذْ كُلُّ مَا لَقِيتُ لَمْ يُحْصَ بِالْكُتُبِ

الشَّعْرُ وَ الرَّسْمُ وَ الْأُلْحَانُ قَدْ عَجَزَتْ وَضَاقَ بِالْوَصْفِ ذُرْعًا أَبْلَغُ الْخُطْبِ

لَمْ تَبْقَ إِلَّا الدُّمُوعُ الْيَوْمَ سَائِلَةً وَ هَلْ أَفَادَتْ دُمُوعِي أَوْ دُمُوعُ أَبِي ؟

كَلَا فَهِيََا إِذْنُ نَسْعَى إِلَى جَبَلٍ نُخْطِطُ نَهْجَ الْعُلَا بِالْجِدِّ لَا بِاللَّعِبِ³

1- ابن القاضي - الديوان - ص 90 .

2 - المصدر نفسه - ص 91 .

3 - المصدر نفسه - ص 91 .

ومن هنا نلمس أن الشاعر إنما استغل المناسبة ليخرج على قضية الوطنية و أحسب هذا نهج كل الشعر الذي يقال في المناسبات و الذكريات و إن تعددت بين « سياسية و ثقافية ، و دينية ، و قومية ، فهو يربط دوما بين المناسبات السابقة و بين القضية الوطنية ، فيصف الأوضاع السيئة ، و يبحث على التخلص منها . »¹ .

وهو في ندائه هذا و صرخته هذه ، يشيد بمكارم الشعب منذ الزمن الغابر وهو بذلك يلمح إلى بطولات الأجداد ، أجداد الشعب من العرب و المغاربة و بطولاتهم الضاربة في أعماق التاريخ العربي و التاريخ الإسلامي فهو يعتبر تاريخ بلاده « امتدادا للتاريخ العربي الإسلامي و ، ... ، أبطال العرب أجداد أبطال الجزائر . »² :

يا شعبُ إن الكِفاحَ اليَوْمَ واجِبُنَا مَنْ مَاتَ مَاتَ عَلَى الإِسْلامِ وَ العَرَبِ

يا شعبُ شَمَتَكَ الإِقْدَامُ مِنْ زَمَنِ مَا كُنْتَ تَعْرِفُ بِالْإِدْبَارِ وَ الهَرَبِ

نَحْنُ الأَسْوَدُ وَ لَلْأَسَادِ عَاطِفَةٌ حُبِّ العَرِينِ وَ هَلْ فِي الحُبِّ مِنْ عَجَبِ؟

نَحْنُ الجُنُودُ جُنُودُ اللهِ لَيْسَ تَرَى فِينَا الرَعَادِيْدُ فِي الأَهْوَالِ وَ التُّوبِ³

ثم يأتي جواب الشاعر ، إزاء الإغراءات و العروض الزائفة التي كان الاحتلال يوهم بها الشعب مقابلا أن يركن إلى الصمت ، و يستكين إلى حياة الذل و قبول الأمر كواقع راهن لا مفر منه ، و من ثم يضمن بقاءه في أرض ليست له ، جاءت إجابته كإجابة خير خلق الله لما عرضت عليه السيادة و الأموال مقابل أن يتخلى عن دعوته إلى دين التوحيد ، فقال : « والله إن وضعت الشمس في يميني و القمر في شمالي ما تركت هذا الأمر حتى أتمه أو أهلك دونه » ، أما الشاعر فيقول :

وَ اللهُ لَوْ وَضَعُوا فِي كَفْنَا قَمَرًا أَوْ أَخْتِ يَوْشَعَ ، أَوْ مَا كَانَ مِنْ شُهْبِ

1- أحمد شرقي الرفاعي - الشعر الوطني - ص 1

2- د.نور سلمان - الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير - دار العلم للملايين ، بيروت - ط1 - 1981 - ص 343 .

3- ابن القاضي - الديوان - ص 91 .

أَوْ مِنْ مَنَاصِبَ فِي الْإِجْلَالِ عَالِيَةٍ أَوْ مِنْ جَمَالٍ ، وَمِنْ سِحْرِ ، وَ مِنْ نُشْبٍ
لَمَّا تَرَكْنَا الْحِمَى لِلْعُلْجِ مَجْزَرَةً حَتَّى إِلَى النَّصْرِ أَوْ إِلَى التُّرْبِ
هَذَا جَوَابٌ تَعَلَّمْنَاهُ مِنْ رَجُلٍ قَدْ غَابَ لَكِنَّ ثُورَ اللَّهِ لَمْ يَغِبْ¹

ويستشرف الشاعر انتصار الإسلام و انتصار الوطن و انتصار العربية ، لأنها ثلاثة لا انفصام لها ، وحدة لا تتفرق عراها مادامت متمسكة بكتاب الله و سنة نبيه و هذا ما استوحاه الشاعر في هذه الأبيات من خلال قوله تعالى : ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا . ﴾² .

الْيَوْمَ يَتَسَمُّ الْإِسْلَامُ مُفْتَحِرًا لَمَّا اعْتَصَمْنَا بِحَبْلِ اللَّهِ فِي الْكَرْبِ
يَا شَعْبُ أَبْشِرْ بِنَصْرِ لَا نَظِيرَ لَهُ إِذَا عَزَمْتَ عَلَى التَّحْرِيرِ بِاللَّهَبِ
أَدْعُوكَ رَبِّي بِدَمْعِ الشَّعْرِ مُبْتَهَلًا تَحْيَى الْجَزَائِرُ لِلْإِسْلَامِ وَالْعَرَبِ³

وهكذا نرى الشاعر يختم ختاماً متفائلاً ، آملاً بنصر الله وقربه ، مستشرفاً رياح الثورة المباركة وهي تدنو من ميلادها .

أما القصيدة الثانية فهي إن اقتربت في مضمونها من سابقتها ، فقد زادت عليها بأن حملت في طياتها قضايا جديدة ، كقضية الإدماج ، والتجنيس ، وتقديس العلم الوطني وهذا ما سنفصله في هذه الأبيات التي ابتدأها وهو يخاطب نفسه و يأمرها أن تفتشي أسرار الحديث إلى هذا الشعب الذي تقاذفته الآلام و النوب إلى أن أصبح أسقم من السقم نفسه ، يطلب الحديث عن الذكرى الجميلة في هذا الوطن عليها تسلي الروح و تنفس عن القلب المكلول الذي بات يبحث عن فرحة أو بسملة تطفئ حرقته :

1 - المصدر نفسه - ص 91 .

2 - سورة آل عمران - الآية 103 .

3 - ابن القاضي - الديوان - ص 91

حَدَّثِ الشَّعْبَ وَ لَا تَخْشَ اللِّثَامَا
 حَدَّثِ الشَّعْبَ عَنِ الذِّكْرِ الَّتِي
 وَأَتْرُكِ الذِّكْرَ تَعَالِجُ سَقَمَهُ
 فَلَقَدْ حُمِلَ آلامَا جَسَامَا
 بَاتَ يَرْجُو نَسْمَةَ الْعِيدِ كَمَا
 بَاتَ يَرْجُو الْعَاشِقُ الصَّبَّ النَّسَامَا
 وَ غَدَا يَرْصُدُ مِنْهُ بَسْمَةً¹
 إِنَّ فِي الْبَسْمَةِ بَرْدًا وَ سَلَامًا¹

و يري الشاعر في هذه البسمة أملا جديدا في الحياة ، أملا لكل من يحلم بالعز و الحرية ، و أملا لكل
 محب و في لوطنه بذل في سبيله كل غال و ثمين من أجل أن ترفع رايته عاليا ، و يحتال وطنه حرا بين
 الأوطان لا يلحقه ظلم و لا يكبله حيف :

إِيْتِهِ يَا نَسْمَةُ هُبِّي وَأَنْشُرِي
 فِي الْفَضَا الطَّيِّبِ الَّذِي يُحْيِي الْعِظَامَا
 جَدِّدِي رُحْمَاكِ آمَالَ الْحِمَى
 إِنَّ فِي الْآمَالِ مَا يَشْفِي السَّقَامَا
 جَدِّدِيهَا مِثْلَمَا جَدَّدَهَا
 كُلُّ مَنْ بِالْعِزِّ وَ التَّحْرِيرِ هَامَا
 كُلُّ مَنْ ضَحَى بِمَالٍ وَ دَمٍ
 فِي سَبِيلِ الْمَجْدِ لَا يَرْضَى الْمَنَامَا
 رَفَعَ الرَّأْيَةَ فَاخْتَالَتْ عَلَى
 أَنْجُمِ اللَّيْلِ جَمَالًا وَاضْطَرَامَا
 وَ غَدَا بَيْنَ الْأَعَادِي جَاهِرًا
 مَوْطِنِي مَا دُمْتُ حَيَا لَنْ يُضَامَا²

و هذا الشعب إذا تجددت في عروقه الحياة ، لا بد أن يثبت وجوده و يُعَيِّنَ كيانه الذي لا ينفصم عن
 كيان الوطن ، فقد استطاع أن يرد عنه كل المحاولات الدنيئة في دمجها في كيان المستعمر ، و تجنيسه

1 - المصدر السابق - ص 93 .

2 - المصدر نفسه - ص 93 .

بغير الجنسية الجزائرية ، و ما هذا الرفض في نظر الشاعر إلا إحساس بقرب الانتفاضة التي تكسر القيد ، و الاستفاقة التي تقرب يوم استعادة الوطن المسلوب :

وَحَمَى الْمَوْطِنَ مِنْ إِدْمَاجِهِ مُذْ رَأَى التَّجْنِيسَ عَارًا وَ هَزَامًا

خَطَطَ لِلْأَحْرَارِ مِنْهَا جَ الْعُلَا بِجَهَادٍ قَرَّبَ الْيَوْمَ الْمَرَامَا

كُنْ هَنِيئًا يَا حِمَى الْعِزِّ فَقَدْ أَقْسَمَ الشَّعْبُ عَلَى أَنْ لَا يَنَامَا¹

و مما يفخر به كل شاعر بل كل جزائري العلم الوطني ، الذي كان في نظر الشاعر أكث من ذلك ، كان بوابة للأمل ، يرى من خلال الفرحة مرتسمة على محيا كل أبناء الشعب ، وانعتاقه من كل قيد و سجن نحو عالم فسيح ، و بلد جميل جمال كل غيداء ، بل أكثر من ذلك جميلة جمالا قدسيا حباها إياه الخالق :

إِنَّ ذَاكَ الْبُنْدَ فِيهِ نَجْمَةٌ وَ هِلَالٌ قَدْ جَلَا عَنَا الْغَمَامَا

فَأَرَانَا بِهَجَّةِ الدُّنْيَا وَ قَدْ كَانَتْ الدُّنْيَا خَرَابَا وَ ظَلَامَا

وَ أَرَانَا سَعَةَ الْكَوْنِ الَّذِي كَانَ بِالْأَمْسِ سُجُونَا وَ رَجَامَا

وَ أَرَانَا غَادَةً قَدْسِيَّةً فَاقَتْ الْغَيْدَ جَلَالًا وَ احْتِشَامَا²

ويستوقفنا الآن حديثه عن هذه الغادة ، لنقول إن شاعرنا لم يُسْتَشَنَّ عن بقية الشعراء الجزائريين الذين فرضت عليهم الازدواجية بين المضمون الوطني و العاطفي ، فيصبح الوطن هو المرأة و العكس أيضا ، لأن الشاعر في الحقيقة يرى أن الوطن المسلوب ، هو كالشرف المغتصب ، وقد ألبسه من صفات محبوب أسير قد عُلق به ، ولا بد أن يهُب إليه لفك أسرهِ و بذل الغالي و النفيس في سبيل تحريره و الفوز به و نيل رضاه :

1 - المصدر السابق - ص 93 .

2 - المصدر نفسه - ص 93 ، 94 .

أيها الشعبُ الذي عُلِقَها وَ رَجَا مِنْهَا لِقَاءً وَابْتَسَامَا
كَسَرَ القَيْدَ وَ حَرَّرَ جَيْدَهَا وَاحْمِهَا إِنْ كُنْتَ مِنْهَا مُسْتَهَامَا
قَدْ سَبَّاهَا العُلْجُ ظَلَمًا فَاغْسِلُوا بِالذَّمِّ العَارَ فَإِنَّ العَارَ دَامَا
فَلَقَدْ نَادَتْكَ قَمٌ لَبَّ النَّدَا قَبْلَ أَنْ يَمْنَعَهَا العُلْجُ الكَلَامَا
فازَ بالغَادَةِ مَنْ هَبَّ لَهَا وَ رَأَى فِي نَيْلِهَا المَوْتَ غَرَامَا¹

ومن خلال هذه الأبيات ندرك أن الشاعر يرمي إلى بعد قومي فألبسه ثياب العاطفة و كان هذا لزاما في واقع مرير و أليم عاشه الشاعر و عاشته كل الجزائر ، وقد صدق " صالح خرفي " حين قال : « قد يكون الإحساس القومي هو الغاية فيركب له متن العاطفة تسترا وتقية ، وكل قصيدة مزدوجة المضمون من هذا اللون ، تستطيع أن تتأرجح فيها بين مضمونين حقيقيين و مجازي . »² ، ولا يمكننا أن نرجح إحدى الكفتين إلا إذا أمكن لنا أن نطلع على بعض الملابس التي قيلت لسببها هذه الأبيات ، وما يجعلنا نرجح المعنى الثاني (المجازي) هو أن الأبيات قيلت لإحياء إحدى المناسبات الوطنية عام 1952³ .

ولعل شاعرنا ممن يستهويهم وصف المدن التي يزورونها ، ويتباهون بجمالها ، خاصة حين تكون هذه المدينة في يوم من أيام فرحها ، تحتفل بقدوم الحرية ، وها هو يصف لنا ذلك و يصور لنا هذه الحرية تحتال عروسا وسط موكب أهل مدينة " سطيف " ، و يصور لنا كل حيثيات هذا العرس البهيج :

أَقْبَلْتُ بَيْنَ مَوَكِبِ الأَحْرَارِ مِثْلَ شَمْسٍ وَضِيئَةِ الأنْوَارِ
يَسْتَحْيِي مَنْ جَمَّاهَا كُلُّ وَرْدٍ فَتَحَ اللَّيْلُ وَجْهَهُ لِلنَّهَارِ

1 - المصدر السابق - ص 94 .

2 - د. صالح خرفي - الشعر الجزائري الحديث - ص 296

3 - ابن القاضي - الديوان - ص 94 .

فإذا بالنساء يُرسلنَ الحانا على الحاضرينَ و الزوّارِ

وَ إذا بالخُيُولِ مِنْ فَوْقِهَا الْفُرْسَانُ تغدُو كالْبَرْقِ فِي الْمَضْمَارِ

وَ إذا بالطُّبُولِ تُضْرَبُ وَ "البارودُ" يعلو شُواظُهُ بِشَرَارٍ¹

و يعرج الشاعر إلى خطاب هذه المدينة العريقة مشيدا بأخلاق أهلها و نبل شيمهم و حبهم لمكارم العرب من الشجاعة العفوية على الأرض و الوطن :

يا سِطِيفُ ابْتَهَجْ ! حِمَاكَ حِمَى حُسْنٍ وَعِزٌّ وَسُودَدٍ وَ فَخَارِ

نَبْتَ الْجُودِ فِي رَوَابِيكَ وَ الْأَخْلَاقُ وَالْحُسْنُ فِي ظِلَالِ الدِّيارِ

وَتَرَبَّتْ شَجَاعَةُ الْعُرْبِ فِيهِ فَتَحَلَّتْ أَبْطَالُهَا بِالْغَارِ²

و القصيدة هذه نظمت على شرف هذه المدينة ، و بالذات في شهر ماي ، كانت وقفة يتذكر فيها الشاعر بطولات أهلها ذات يوم من هذا الشهر عام خمس و أربعين ، هذه الأحداث التي كانت « كاللهيب الذي ملأ دنيا الجزائر فأثر في الشعب الجزائري عامة و في بعض شخصياته الفكرية و الأدبية حتى جعلوا من هذا الحدث موضوعا لكتابتهم التأملية أو الشعرية أو حتى الغنائية . »³

وكذلك هذه الأبيات التي نظمها الشاعر « تعيد إلى الذاكرة كبريات المشاهد العميقة التي ارتكبت في حق الأبرياء العزل من الجزائريين المقدمين على الفرحة بانتصار الديمقراطية على الفاشية . »⁴ ، يقول:

مَوْطِنَ الْمَجْدِ كَمْ تَذَكُرُنِي أَرْضُكَ فخرَ الأماجدِ الأحرارِ

رَفَعُوا رَايَةَ الشَّهَامَةِ وَ الْإِقْدَامِ وَ التَضَحُّياتِ وَ الْإِثَارِ

1 - المصدر السابق - ص 95 .

2 - المصدر نفسه - ص 95 .

3 - د. عبد الله حمادي - أصوات من الأدب الجزائري الحديث - دار البعث قسنطينة - 2001 - ص 233

4 - المصدر نفسه - ص 239 .

كتبَ الدَّهْرُ مَجْدَهُمْ صفحاتٍ بحُرُوفٍ مِنْ فِضَّةٍ وَنُضَارٍ*

تركت في نفوسنا ذكريات خالداً على مدى الأعصار¹

نرى بوضوح إشادة الشاعر بهذه البطولات التي سجلها أصحابها حين سال دمهم غزيراً ، ليسجل هذا المجد التليد على صفحة التاريخ ، وشهادات لا تزول و لا تفند ، و الذكرى خالدة خلود الزمن .

مما قد لا يختلف فيه اثنان أن من أبرز سمات الشعر الجزائري ، وهو يتناول في موضوعاته التغيي بالحرية ، سمة يمكن القول إنها غلبت على معظم الشعراء ، و هي أن الحرية لديهم تكتسي أثواباً و حللاً عدة : قد تكون الوطن ، أو المرأة ، أو حبيبة معينة أو من صنع مخيلتهم ، إذ نجد كل واحد منهم « يقرن بين وصف الطبيعة و التغزل بالمحبة التي قد تكون الوطن ، ... ، و قد تكون امرأة حبيبة أو متخيلة أو غير ذلك . »² ، ثم إن الشاعر قد يجعلنا نتوه بين كل هؤلاء .

و لعل ذلك يعود إلى أسباب عدة : إما إلى قلة حيلة الشاعر اتجاه فيض مشاعره ، فيلغي نفسه متحدثاً عن مقصوده مباشرة ، أو إلى أن المقصود هو المرأة أساساً لكنه يحاول إلباسها ثوب " حورية " كما يقولون ، أو الحرية ، فيلتبس الأمر حول ذي و تلك ، أو أن مرد ذلك يعود إلى « الجدبة التي عمت حياة الجزائري و التقاليد الجزائرية القاسية التي كانت تحدد مجال القول بالنسبة للشاعر و تزجر كل من حاول الخروج عن هذا المجال »³ ، كما ان هذه الظاهرة قد يقودنا تفسيرها إلى ارتباط معظم الشعراء بالنفحة الإصلاحية التي « أنكرت على الشعراء التعبير عن عواطفهم إزاء الجنس الآخر

* - النضار بضم النون أو كسرهما ، الذهب أو الفضة ، الجوهر الخالص من التبر ، ينظر منجد الطلاب - دار المشرق - بيروت
- ط 55 - 1997 - ص 803 .

1 - ابن القاضي - الديوان - ص 95 ، 96 .

2 - د. عبد الله الركيبي - الشعر الديني الجزائري الحديث - ش و ن ت - الجزائر - ط 1 - 1981 - ص 668 .

3 - الوناس شعباني - تطور الشعر الجزائري منذ سنة 1945 حتى سنة 1980 - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - ص 110 .

بصدق و بصراحة . و إذا حصل ذلك قيل عنهم أنهم يخاطبون في ذلك شخصا غير مرئي .¹ ، كما أن السلطات الاستعمارية كان لها دور أو يد من قريب أو من بعيد في شيوع هذه الظاهرة ، لما تمارسه من قمع و ظلم ضد أصحاب القصائد الصارخة تناجي الحرية أو تطالب بها أو تستشير الهمم للنهوض من أجل نيلها .

ونجد كل ما سبق من حديث يكاد ينطبق على هذه القصيدة " إن الهوى من عهد آدم واحد " التي صرح الشاعر في هامش الصفحة عنها بقوله : « أصف فيها أثر الهوى في قلب الإنسان »² ، ومضمون الأبيات يأخذ بأيدينا إلى ما بين السطور تارة ، وإلى ما بين الكلمات تارة لندرك أنه يتغزل " بالحرية " يستهل مناجيا طيرا يث إليه شكواه من بعد " ليلاه " ، وهي طريقة مألوفة لدى كل الشعراء استعمال مثل هذه الأسماء ليلي ، سلوى ، جميلة وغيرها ، يشكو إلى الطير نأيها بعد الوصال ، و حزنه بعد أن ألف أنسها ، يقول :

يا أيها الطيرُ الجميلُ تعالَا
وَاسْمَعْ مِنْ الصَّبِّ الغريبِ مَقالَا

فَلَقَدْ نَأَتْ لِيَالِي بَعْدَ وَصَالِهَا
يا لَيْتَ شِعْري هَلْ تَعِيدُ وَصالَا ؟

كَانَتْ تَوَاسِسُ وَحْشَتِي بِكلامِهَا
فَتَزِيلُ عَنِّي بِالْحَدِيثِ مَلالَا

كَانَتْ تَنْيرُ دُجَايَ مَهْمَا أَشْرَقَتْ
كَالشَّمْسِ حُسْنًا وَالهلالِ جَمالَا³

ثم يحملُ الشاعر طيره رسالته إلى هذه الحرية المحبوبة رسالة محبة ووفاء تعبق بالشوق للقائها ، و الفضول و التوق إلى سماع أخبارها :

رَفَرِفْ عَلَي حُرِّيَّتِي وَاعْرِزْ لَهَا
لَحْنُ الوَفاءِ وَصِفْ لَهَا الأَحْوالَا

1 - د. أبو القاسم سعد الله - محمد العيد رائد الشعر الجزائري الحديث - دار المعارف - مصر - ط2 - 1975 - ص

2 - ابن القاضي - الديوان - ص 98 .

3 - ابن القاضي - المصدر نفسه - ص 97 .

بلغ لها شوقاً يكاد يذيني وأحملُ إليها قبلةً و سؤالاً
سلم عليها يا رفيق و قل لها أضحى أليفك من هواك خيالاً
و أعد لي الأخبار كيف وجدتها هل حققت يا طير لي الآمالاً؟¹

ورغم بعده عنها ، فهو باق على عهده معها ، وملتزم بما كان بينهما ، ثم يتساءل أتراها هي الأخرى
حفظت هذا العهد ، أم تخلت عنه ، لأنه يرجو نيلها ، ويلتمس نورها في ظلام الاستعمار و دجاء
العابس :

هل صانت العهد المقدس بيننا مهما اعتدى زمن الفراق و طالاً ؟
أما أنا فلقد حفظت عهداً و ذكرتها صبحاً وزدت زوالاً
حرّيتي أو ما دريت بأني ألفت عيشي في الفراق محالاً ؟
أرجو لقاءك كل يوم مثلاً يرجو المسافر في الظلام هلالاً²

وهنا يقف بنا الشاعر و يؤكد على أن حب الحرية عريق عراقة الإنسان لأن الإنسان يولد و في داخله
هذا الحب ، و هنا تحضرني مقولة الصحابي الجليل **عمر بن الخطاب رضي الله عنه** : « متى استعبدتم
الناس وقد ولدتم أمهاتهم أحرارا ! » ، ويرى فيه صورة جميلة تتجلى في شدة الطير ، وجمال النجوم
، وفي هبوب النسيم ، و في صفاء النبع يطفي نار الظمان إليها ، ثم هي بعد كل ذلك النعمة الحية
التي تبعث أجيال الشعب ، لتنهض و ترومها وتفوز بها :

إن الهوى من عهد آدم واحد من ذاقه منا سما و تعالى
فكأنه بين الحمائم طائر يشدو به الغدوات و الأصالاً
و كأنه بين المنابع منهل يروي قلوب الظامنين زلالاً

1 - المصدر السابق - ص 97 .

2 - المصدر نفسه - ص 97 .

وَكَأَنَّهُ يَبَيِّنُ الْمَعَارِفِ نِعْمَةً^١ تحي بأرواح لحنها الأجيالا...!¹

وقد استطاع الشاعر من خلال تجربته هذه أن ينقل جانباً من واقع وطني وهو التوق إلى الحرية و الاستقلال و لكن نقله نقلاً فنياً لا نقل مؤرخ أو عالم اجتماع ، « كما عكست توقاً وجدانياً محتدماً في نفس الشاعر ، تكامل فيه حب الأرض و الوطن مع حب المرأة . »²

وفي قوله : « تحيي بأرواح لحنها الأجيالا . » ، تنبؤاً بقدوم تبشير الحرية ، والأمل الجميل و الفرحة المنتظرة ، وهو بذلك « يحمل إلينا معنى الحياة و طعمها ، و يبشرنا قي كل يوم بنسائم الحرية و خيوط الأمل و الفرح الإنساني القادم ، و بأصالة هذه الأمة وصحة عراقتها . »³

ونخلص من خلال هذه الأبيات أن حب الشاعر لحيته نابع من حب أكبر و شعور متجذر عميق هو حب الوطن ، هذا الوطن الذي يعاني مأساة الاستعمار التي أدت إلى « تضخم هذا الشعور ، فكان هذا الحب فوق كل اعتبار ، و فوق كل معاناة . »⁴

والثورة الجزائرية في عامها الثاني حدث أن قتل أحد قادة الجيش الفرنسي فسلطت سلطاته على الأهالي أبشع أنواع الذل و القهر و التعذيب ، وهذا ما صورته لنا الشاعر في قصيدته " كلنا اليوم في الحمى ثوار " :

أَخْرَجُونَا مِنَ الدِّيَارِ وَجَارُوا بَعْدَمَا فِي أَمْرِ الْجَزَائِرِ حَارُوا

جَعَلُونَا مِثْلَ ثَلَاثِي رُبَاعِي ثُمَّ سَاقُوا كَأَنَّا أَبْقَارُ

مَنْ سَوَّالٍ وَمَنْ هَوَّانٍ وَ تَفْتِيشٍ جَيْبٍ خِلَالِ ذَاكَ احْتِقَارُ¹

1- ابن القاضي - الديوان - ص 97 ، 98 .

2- د. عمر بن قينة - في الأدب الجزائري الحديث (تاريخاً ... و أنواعاً ، و قضايا ... و أعلاماً) - ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية - بن عكنون - الجزائر - 1995 - ص 91 .

3 - د. علي عباس علوان - دور الأدب في الوحدة العربية ، الشعر بين الحزبين ، ينظر دور الأدب في الوعي القومي العربي - بحوث و مناقشات الندوة الفكرية - مركز دراسات الوحدة العربية - ص 294 .

4 - د. محمد زغينة - شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين - ص 60 .

و مع اشتداد هذه الأزمة ، فإنها سائرة للانفراج ، لأن الأفق يلوح بأنوار الحرية و نسائهما :

إِنَّ فَجَرَ الْحَرِّيَّةِ الْيَوْمَ قَدْ لَاحَ وَ لَاحَتْ مِنْ بَشْرِهِ الْأَنْوَارُ²

إن كل شبر من أرض الوطن ، وكل قمة شماء وجبل شامخ من الأوراس إلى جرجرة ، وكل قلاع و حصون العلم و الإسلام من تلمسان إلى مزغنة و قسنطينة كل منها يكاد ينطق و يحدث عن بطولات الكفاح و كم ارتوى بدم الأحرار :

إِيَّهِ "أَوْرَاسُ" حَدَّثَ الشَّعْبَ عَمَّنْ رَفَعُوا رَايَةَ الْكِفَاحِ وَ ثَارُوا

يَا تَلْمُسَانُ أَنتِ لِلضَّادِ وَالْإِسْلَامِ حَصْنٌ وَ لِلْعُرُوبَةِ دَارُ

كُلُّ شَيْبٍ بِأَرْضِنَا قَدْ سَقَتْهُ مِنْ دُمُوعٍ وَمِنْ دِمَا أَمْطَارُ³

ثم يقدم لنا صورة حية عن الكفاح : الكل شارك فيه ، الحي و الجماد ، الشجر و الحجر ، صبيا كهلا و شيخا ، الكل تجند للدفاع مستميتا عن الأرض و الكرامة ، ولا بد أن يبقى كل ميت من أجل الجزائر خالدا في طيات تاريخها :

وَالْفَتَى وَالْفَتَاةُ وَالْكَهْلُ وَالشَّيْخُ مَعَ الْجَيْشِ وَالْبُنُونِ الصَّغَارُ

كُلُّهُمْ جَاهَدُوا جِهَادًا عَظِيمًا وَعَلَى الْعَرَضِ وَالْكَرَامَةِ غَارُوا

كُلُّ مَيِّتٍ عَلَى الْجَزَائِرِ حَيٌّ قَبْرُهُ عِنْدَ كُلِّ جَيْلٍ يَزَارُ⁴

لقد عاش الشاعر أحداث هذا القمع بعد مقتل هذا القائد الفرنسي " سامر سيللي " يقول : « شاهدت بنفسي ما أصابنا من ألوان الإهانة و التعذيب و الاحتقار و التخريب . » ، لذلك لم يكن

1 - ابن القاضي - الديوان - 99 .

2 - المصدر نفسه - ص 99 .

3 - المصدر نفسه - ص 99 .

4 - المصدر نفسه - ص 100 .

تسجيله نقلا صحافيا إنما كان « رائدا و متنبعا بما سيحدث ، ... ، و مستشيرا للهمم مستنهضا للغزائم مجسدا لما نسميه بالرفض . »¹

ومعايشة الحدث و تسجيله ، لا تخلو من انفعال و ثورة في العواطف ، وإن هي أحيطت « بعاطفية الرؤيا ، فهي ذات فائدة في عنونة حوادث الثورة ، وفي نقل انعكاساتها في نفس الجزائري المتعاطف معها و المتحمس لها . »²

في أبيات سابقة وجدنا الشاعر يناجي الطائر ، ويشكو إليه توقيه لحرته ، وها هو الآن يضعنا أمام صورة أخرى مشابهة تلتقي إلى حد كبير إلى الصورة التي كان فيها الشاعر الأمير " أبو فراس الحمداني " يناجي حمامته و هو في أسره ، ولابد أن صورة الطير لدى الشعراء تعني إلى حد كبير حب الحرية و عدم القدرة على المساومة بالحياة بدونها و قد يلعب دور الطير « في مثل هذه التجربة دور المعادل الموضوعي مقدما الانعكاس الدلالي لإحساس الشاعر بموقفه الشخصي »³ ، وذلك على نحو ما نجده :

يَاطِيرُ مَا لِي أَرَاكَ	حَرَمْتَنِي مِنْ صَدَاكَ
قَدْ كُنْتُ عِنْدَكَ خَلَاً	وَكُنْتُ عِنْدِي مَلَاكَ
فَمَا لَكَ الْيَوْمَ تَجْفُو	وَ الْقَلْبُ يَصْلَى هَوَاكَ ⁴

يرسل الشاعر رجاء للطير أن يعود ، و يخفف عنه ، ويث إليه شكواه و شوقه إلى الحرية ، و توقيه إلى كسر القيد ، ثم تتسع دائرة المشتاقين من الشاعر إلى كل هيمان بالتححر و كل من يعاني ويلات

1 - هلال ناجي - دور الشعر في المغرب الأقصى في مقاومة الاستعمار - بنظر الندوة الفكرية - ص 181

2 - د. نور سلمان - الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير - ص 349

3 - د. محمد مصطفى أبو شوارب - جماليات النص الشعري (قراءة في أمالي القالي) - دار الوفاء لنديا النشر و الطباعة الاسكندرية . ط 1 - 2005 - ص 61 .

4 - ابن القاضي - الديوان - ص 101 .

الجوع و الاستعباد و قد سُرِّبَ بسرَّابيل الظلم و الأمية ، ثم يرسلها زفرة تتصاعد من أعماق الشعب الجريح ، لأن ألم الشاعر من ألم الجسد الكبير :

هنا غريبٌ كئيبٌ متيمٌ قد رجاكا

وَتِلْكَ زَفْرَةُ شَعْبٍ من قيده يتشاكي

بؤسٌ و فقرٌ و ذُلٌّ لم يلقَ منها انفكاكا

فصرْتُ أخشى عليه من الشقاءِ الهلاكِ¹

ثم يأتي الجواب على لسان هذا الطير ، جواب يحمل من المعاني ما قد تتعظ به الأجيال منذ القدم ، معان مفادها أنه لا بقاء للظلم مهما طال أمده فأين كل من جار على أنبياء الله ، وأين قياصرة روما الذين عاثوا في أرض العرب و البربر فسادا ، ثم إن الأمم ولادة للأبطال ، منذ أيام نوميديا إلى قدوم العرب و المسلمين ، حين امتزجت دماؤهم وتمخضت عن أبطال استردوا الحمى و الأرض من كل مغتد رغم الأذى :

ألم تعظك قُرُونٌ بما حوتهُ ، غوَبَرا ؟

سلِ الأعاربَ فيها كم جاهدُوا و البرابرا

في كلِّ قلبٍ و رُوحٍ حبُّ الجزائرِ زَاخرُ

فقلْ معي اليومَ جهراً تحيا بلادُ الجزائرِ²

وهذه الإشادة بأبطال العرب ، إنما هي تعبير عن قوة الصلة بمؤلاء الأجداد ، وتمجيدهم تعبير عن الارتباط « بالجدور و السلف و بالشخصية الجزائرية العربية الإسلامية ، فالجزائر المغربية جزء من بلاد العرب و نضالها ، وامتداد لجهاد العرب عبر التاريخ .¹

1 - المصدر السابق - ص 101 .

2 - المصدر نفسه - ص 102 .

وهنا يشدو الشاعر مع طيره بأنغام الحرية ، و نسائم الحياة الهنية في كنف بلاد العزة و بلاد
الشهداء الذين سقوها بدماء غزيرة ، في بلاد يعمها الأمن و السلام :

تحيا الجزائرُ حرّةً في جبهة الدّهرِ غرّةً

وَدُمْتَ يا شعبُ فيها في عزّةٍ مستمرّةً

إنّ ننسَ لا ننسَ قومًا ضحوا بآخرِ قطرةً

جيشا وشعبا جبهة أرضًا وجبهةً مشمخرّةً²

فالشاعر دائما يستبشر بالحرية ، و الثورة قد اشتعل لظاها ، و الحرب قد حمي وسيطها ، لأن صوت
الحق قد علا ، و لا بد لصوت الظالم أن يخفت .

ومن علامات البشرى أيضا ، تمجيد العلم الوطني و تقديسه لما تحمل ألوانه من رموز و دلالات ،
وأشكاله من معان سامية ، انظر إليه يعطينا أجمل هذه المعاني في هذا العلم الذي أقسم أبناؤه أن يظل
عاليا شامخا :

يا أيها العلمُ العزيزُ على الحمى رَفِرْفِ على أرضِ الجزائرِ مُكرّما

فانشرْ على الدُّنيا هِلَالَكَ ساطِعًا وَ بنجمِكَ اللّماحِ باهِ الأَنجِما

إنَّ الرّبيعَ حباك خَضْرَة فَصله وَ حبتك حمرَها مِنَ الأسدِ الدِّما

وَأَعَارَكَ السّلمُ الجليلُ بياضه فإذا بوجْهِكَ قدْ بدأ متبسما³

ومن منا لا يقف وقفة إجلال أمام هذه المعاني : حياة خضرة نضرة يعيشها هذا الشعب في كنف
أرضه الجزائر ، يسودها أمن و سلام أبيض لا تشوبه شائبة بعد ما قدمت عرايين الحرية دما أحمر

1 - د. نور سلمان - الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير - ص 343

2 - ابن القاضي - الديوان - ص 102 ، 103 .

3 - المصدر نفسه - ص 107 .

للسهداء الأشاوس ، من أجل أن يعيش الجزائري ساطعا كالنجم بين الأمم رافعا رأسه شامخا ومعتزا
بكيانه العربي الإسلامي ، وهنا نقف لنشير إلى أن للهلال بعدا عقائديا تكرر جليا ليكون رمزا
لوقوف الخير ضد الشر ، و الحق في وجه الباطل ، الإسلام في وجه الصليبية و الصهيونية ، وهذا ما
تبرره «الإشارة و التنويه إلى تلك العبارة الجامعة المانعة التي انطلقت كالرصاصة أو أشد في عالم
العقائد و القيم حيث قال أحد وزراء فرنسا : " إنني لن أترك الهلال ينتصر على الصليب . " ¹

وهذا ما أكدته في قصيدة أخرى يجيي فيها جيش التحرير ، يحرضهم على الجهاد و نصره الحق :

قوموا لنصرِ الهلالِ وَ نجمهِ المتلالي

في حمرةِ الصبحِ يبدؤُ رَمَزَ القَوَى وَ التَّزَالِ

وَ خضرةِ بياضٍ رَمَزَ المنى وَ الجلالَ ²

وهذا النشيد قد أهده الشاعر بمناسبة النصر الذي حققه ، وهو وقفة تفيض إجلالا و إهابة بالمسيرة
الجهادية و إشادة ببطولة الجيش و الشعب معا حين قال :

من مات فهو شهيد من عسكر أو أهالي

في ساحة الحرب أو من فرط الشقا المتوالي ³

و يدعو لتحيتهم ، واستحقاقهم التبجيل و التكريم :

يا قوم حيوا جنودا ضحوا بروح و مال

جيش الجزائر حر جيش الجزائر غال ⁴

1 - مالك بن نبي - في مهب المعركة - دار الفكر ، بيروت - 1981 - ص 56 .

2 - ابن القاضي - الديوان - ص 111 .

3 - المصدر نفسه - ص 112 .

4 - المصدر نفسه - ص 111 ، 112 .

و يشيد صبرهم واستماتهم رغم صعوبة الظروف التي مرت بها الثورة ، و رغم طول مدتها :

وجاهدوا واستماتوا وأخلصوا في النضال

سبعاً شداداً و نصفاً من السنين الطوال¹

وكان لنفس المناسبة وهي مناسبة عيد النصر في التاسع عشر مارس عام **1961** ، وقعا في نفس الشاعر لينظم قصيدة أخرى يحتفي بها بالمشوار الكفاحي الذي كلل بهذا النصر المؤزر ، و ما هذا النصر إلا انتصار للشعب و للجزائر ، و للإسلام و العروبة و كل أقطارها ، ويتعدى كل هؤلاء ليشمل نصر الإنسانية و كل المستضعفين في القارة السمراء لتأخذ القصيدة بعداً وطنياً ، وآخر قومياً ، وتتسع لتصل إلى مصاف البعد العالمي الإنساني :

لكلِّ يَوْمٍ عَنِ الْأَبْطَالِ أَخْبَارُ هذا شهيدٌ وَ ذَاكَ زَانُهُ الْغَارُ

وَذَا عَلَى جُرْجُرٍ كَالنَّمْرِ مُكْتَمٍ وَ ذَاكَ فِي جَبَلِ الْأَوْرَاسِ مِغْوَارُ

بَشْرَاكَ يَا شَعْبُ هَذِهِ ثَوْرَةٌ سَطَعَتْ مِنْهَا عَلَى الْأَطْلَسِينَ الْيَوْمَ أَنْوَارُ²

ولئن الشعب قد صبر و لم يضعف أمام القمع و التنكيل فإن الله نصره كما نصروا الدين و اللغة و البلاد :

لَمْ يَثْنِ عَزْمُهُمُ الْقَتْلُ الشَّنِيعُ وَلَمْ يَصَدَّهُمْ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ غَدَارُ

وَاللَّهُ يَنْصُرُ مَنْ جَادُوا بِمَاهُمْ وَبِالْأَنْفُسِ لِيَمْحَى الذُّلُّ وَ الْعَارُ³

1 - المصدر السابق - ص 111 .

2 - المصدر نفسه - ص 109 .

3 - المصدر نفسه - ص 109 .

ويسترسل في عرض مشاهد الدمار التي خلفتها يد المستعمر و هي تبطش بالسكان في القرى ، وتهلك الخلق ، وتشكل الأيامي ، وتشرذ اليتامي ، لكن كل ذلك قد هان مادام النصر حليف الشعب ، وتاج الجزائريين الأمم ، و يختال الشاعر وهو يفخر بهذا النصر :

حرية الشعب عيد للجزائر بل لكل من هم لحزب الحق أنصار
المغرب العربي اليوم في فرح والشرق في مراح للبشر مضمار
والمسلمون لهم في كل جمهرة عيد كبير وعيد النصر كبار
نصر إفريقيا لاحت بشائره السود والبيض فيها اليوم أحرار
نصر مبين وفتح لا مثيل له فلنحمد الله إن الله نصار¹

ثم يخص المقطع الأخير بنداء يستحث فيه القارة السمراء لتقوم وتهب كل شعوبها لتسترد مسلوبتها ، كيف لا تقدر وقد نبض قلبها في الجزائر وثار نصر وانتصر ، وكذا تفعل جارتها وكلهن يمثلن بالنسبة لهذه القارة بوابتها و درعها و حصوتها :

قومي إلى المجد يا إفريقيا سحرا سيري فقد سبقتك اليوم أعصار
مرکش تونس يمنى وميسرة هما جناحاك لا يحزنك إعصار
و قلبك الخافق الميمون بينهما جزائر الصيد طيري كلهم طاروا
يا رب صنهاتبقى رمز مفخرة وجنة من جنان الله تختار²

وهذه الأبيات وغيرها تعبق بعطر نسائم القومية العربية و الإسلامية وحتى الإقليمية التي نقصد بها وحدة القارة ، فالشاعر كباقي نظرائه لا يملك على نفسه أن يمسك عن الخوض في مسائل الوحدة و النهوض صفا واحد مع كل عربي ، مع كل مسلم ، وحتى مع كل إفريقي ، ذلك أن هذه المقومات

1 - المصدر السابق - ص 110 .

2 - المصدر نفسه - ص 110 .

لا ترسو على ركيزة غياب أخرى ، و نحن لا نتصور « ثقافة جزائرية إذا لم يكن لها بعد قومي ، أي عربي ، ودون أن تركز على القيم الإسلامية . »¹ ، وهذا ما يؤكد الإبراهيمي بخصوص حديثه عن عروبة الشمال الإفريقي وكل السدائس التي حيكت ضده من طرف الاستعمار « ليتم له ما يريد من الاستئصال ، و إنما يتعمد العربية بالحرب لأنها عماد العروبة وممسكة الدين أن يزول ، ولأن لها كتابة ومع الكتابة العلم ، و أدبا ومع الأدب التاريخ ، ومع كل ذلك البقاء و الخلود . »²

وبنفس المناسبة ينظم الشاعر نشيدا يهنئ فيه الجزائر بهذا النصر :

ارفعي الرأس و سيري يا جزائر فلقد نلت من النصر المفاخر

كلنا ثرنا رجالا و حرائر كلنا في جبهة التحرير سائر³

و يقدم لنا صورة هذا الشعب الذي أقسم بالله أن تحيا البلاد ، رغم احتراق الأكباد ، وقد عانق أبنائه الجبال ، و تصدوا للمدافع بالصدور ، وثاروا كما ثار أجدادهم منذ العصور ، ليسوا ببالون بالموت لأن :

هذه الأجساد ترمى في اللحد وذه الأرواح تسمو للخلود

رفر في فوق الضحايا يا بنود فلقد ماتوا لنحيا و نسود⁴

وعلى ذكر من ثار من الجدد ، لم يفوت الشاعر مناسبة عظيمة لأحد هؤلاء وهو الأمير عبد القادر حين استقبلت الجزائر وفاة ابنها البار من سوريا الشقيقة ليترحم على كل من لفظ زفرته الأخيرة لأجل حرية الجزائر :

رَحِمَ اللهُ أَضْلَعَ الشَّهْدَاءِ وَ سَقَاهُمْ بِأَذْمَعِ الْأَنْدَاءِ

خَفَّفَ اللهُ عَنْهُمْ كُلَّ ذَنْبٍ وَوَقَاهُمْ لَوْفَحِ الرَّمْضَاءِ

1- د. عثمان سعدي - عروبة الجزائر عبر التاريخ - ش و ن ت - الجزائر - 1982 - ص 64 .

2 - محمد البشير الإبراهيمي - عيون البصائر - ج 2 - ص 277 .

3 - ابن القاضي - الديوان - ص 115 .

4 - المصدر نفسه - ص 116 .

ضربوا في الجهادِ أعلى مثالٍ وَ بالفدا بالنفوسِ أعلى فِداءٍ¹

وبعد هذا الدعاء يعيد إلى أذهاننا ليلة الفاتح من نوفمبر و كيف أن الأرض و الشعب كلُّ كان في شوق إلى هذا اليوم المبارك ، الكل فرح بها ، وهلل واستبشر بالحرية من أقصى الشرق إلى أقصى الغرب و في كل شبر من هذا الوطن :

صعد الصوتُ منْ نغميرِ والأوْ راسِ فجراً فثارَ كلُّ فدائي

غرّةَ الشهرِ أنتَ نورُ الأمانِ أنتَ فجرُ الحريةِ الحمراءِ

منذُ عهدِ الأميرِ وَ الأرضُ تهُتُّ اهتزازاً في عزّةٍ وَ إباءِ

طفٌ بوهرانَ وَ الجزائرِ وَ الأوْ راسِ أختُ القبائلِ السماءِ

و تلمسانَ معقلَ العزِّ غرباً وَ قسنطبي في شرقها البهْجاءُ²

و إذا كان للثورة هذا الوقع الرنان في قلوب الجميع ، فإن التغني بشهادتها و بطولاتهم و أجداد أسلافهم ، و الوقوف عند ذكر الأوراس و الحرص على ذلك كلما عنَّ الحديث للشعراء عن الليلة الغراء ، كان جلياً عند شاعرنا أيضاً فهو الآخر « ينظر إليه على أنه بداية للحرية و منطق للتحرر من العبودية ، و أملاً في المستقبل ، و كل هذه القيم النبيلة الخالدة في حياة الشعب . »³

ثم ينقل إلينا الشاعر وصية الشهداء إلى إخوانهم الأحياء بصون الأهل و الأبناء و كل من تركوهم في سبيل أن تحيا البلاد و يحيا أعزة كرماء ، وعلى لسانه يجيبهم بأننا سنحفظ العهد و نكرم الأهل و نرفع الرؤوس عاليا :

فلذاتُ الأكبادِ بينَ أيديكمُ فاستجيبوا رُحماكمُ للنداءِ

صعدتْ زفرةُ اليتامى فهزّتْ كلَّ شبرٍ منْ أرضنا السمحاءِ

1 - المصدر السابق - ص 119 .

2 - المصدر نفسه - ص 119 .

3- د. عبد الله ركيبي - الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى - ش و ن ط - الجزائر - 1982 - ص 17 ، 20

سَوْفَ نَرْعَىٰ عَهْدَكُمْ فَاطْمَنُوا

إِنَّ أُنْجَالَكُمْ مِنَ الْأَوْفِيَاءِ

وَبَفَضْلِ الْفِدَا نَرْفَعُ رَأْسَا

بِفَخَارٍ وَ سَوْدُودٍ وَ عِلَاءٍ¹

ثم يخلص إلى تحية الأمير عبد القادر ، هذا القائد الفذ الذي أرسى قواعد الدولة الجزائرية الحديثة ،
وقد أبلى بلاد عظيمًا فكان فارس زمانه و قائد ثورة التف حولها الشعب غربا و مشرقا ، قائدا دَوْخ
الاستعمار بتقنياته الحربية ذات الطراز العالي :

رَجَعَ الشَّهْمُ مِنْ شَقِيقَتَنَا سُوْرِيَا

عَزِيزًا مَظْلَلًا بِاللَّوَاءِ

جَالَ فِي سَاحَةِ الْكِفَاحِ عَظِيمَا

مَسْتَمِيتَا كَاللَّيْثِ عِنْدَ اللَّقَاءِ

جَالَ فِي مَوْطِنِ الْجَزَائِرِ غَرْبَا

ثُمَّ شَرْقَا وَصَالَ كَالْعِظْمَاءِ

سَادَ فِي قَوْمِهِ فَتِيَا وَ أَبْلَى

فِي اقْتِحَامِ الْحُرُوبِ أَسْمَى بَلَاءٍ²

وبعدما عرض هذه الفترة المضيفة من تاريخ المقاومة الجزائرية التي قادها هذا البطل الفذ ، ختم بالدعاء
بالرحمة لكل من سقط في ميدان الشرف شهيدا :

نَفَخُوا الرُّوحَ فِي الْجَزَائِرِ حَتَّى

حَفَظُوهَا مِنَ الرَّدَى وَ الْغِنَاءِ

رَحِمَ اللَّهُ رُوحَهُمْ فِي خُلُودٍ

إِنَّهُمْ عِنْدَهُ مِنَ الْأَحْيَاءِ

كُلُّ مَيِّتٍ عَلَى الْجَزَائِرِ حَيٌّ

مَا تَوَالَتْ حَوَادِثُ الْآنَاءِ³

وليس شاعرنا أول من تناول ذكرى الأمير عبد القادر في شعره ، فقد برز « في الشعر الحديث عموما
رائد الكفاح و رمزا للجهاد الجديد في تاريخ الجزائر فهو بطل جزائري كما أنه يمثل استمرار البطولة
العربية الإسلامية و نضالها ضد أعداء الوطن و الدين . »⁴

1 - ابن القاضي - الديوان - ص 120 .

2- المصدر نفسه - ص 120 .

3- المصدر نفسه - ص 120 .

4- د. نور سلمان - الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير - ص 346 .

كما أن بادرة التكريم ، تكريم من أخلص لهذا الوطن هي عادة حميدة تعود الشعب أن يحييها لأنها سبب « التفاف الشعب الجزائري حول ثورة نوفمبر العظمى ، فوعده مع تحرير الأرض بتحرير الإنسان و تحرير التاريخ ، وليس أدل على ذلك من تكريمها لأبناء الوطن المخلصين و الشهداء الخالدين و سعيها إلى كتابة تاريخها . »¹ .

ولإحياء العظماء في تاريخ الوطن أثر جلي وهدف سام يلتزمه كل شاعر وهو يبحث برسالته إلى قراءه وأبناء الجيل الذي يحمل لواء التشييد و مشعل المسيرة التاريخية ، يهدف إلى تقصي هذه المراحل المضيئة من حياتهم لجعلها قدوة يستضاء بها « من خلال إبراز القيم و المبادئ التي دعوا إليها ، وعاشوا لها ، وماتوا في سبيلها ، لأن التماس القدوة الحسنة من صميم العبادة و من الأهداف التي حث عليها القرآن الكريم . »²

ومن الأبطال الذين أقصهم بهذا الحديث " يوغرطا " الذين سالت أشعار الناظمين تتغنى ببطولاته ، فالشعر الجزائري ومنه الأبيات التي سنعرضها لم يكن « ضعيف الذاكرة بل التفت إلى الماضي يستلهم أمجاده و يعيد ذكرى أبطاله ، فذكر أبطالاً سبقوا الفترة العربية و قاموا الاحتلال الأجنبي ، ومن أبرزهم يوغرطه . »³ :

يوغرطا ! نَمْ هنيئاً! يا يُغرُطا*!	لقد سطرْتَ للأجيالِ خطاً
وقد أصبحتَ في التاريخِ نجماً	تألاً نورُهُ من فوقِ سُرْطاً*
يُغرُطا ! كنتَ للرومانِ خصماً	و للشجعانِ شمساً لن تغطى
لنسعَ اليومَ في طلبِ المعالي	لندركَ من ضياءِ المجدِ قِسْطاً ⁴

1 - د. عبد الرحمان شيبان - من أعلامنا - ينظر مجلة ثقافية - وزارة الثقافة و السياحة - الجزائر - العدد 88 - سنة 1985 - ص 71 .

2 - د. عبد الرحمان شيبان - من أعلامنا - ص 71 ، 72 .

3 - د. نور سلمان - الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير - ص 344 .

4 - ابن القاضي - الديوان - ص 121 .

وعودة الشعراء للحديث عن بطولات الأسلاف ، و تمجيد تاريخهم ، وتقديس مساعيهم لنيل الحرية كان رداً على سياسة المستعمر الذي كان يسعى إلى قلب الحقائق و إعطائها وجهاً غير وجهها حين تفتن مبكراً إلى « خطر تمسك الأمة بماضيها ، و إحيائها لمآثر أسلافها ، فعمل على تشويه التاريخ ، و طمس حقائقه ، ليفصل ماضي الأمة عن حاضرها ، فيسهل انقيادها له و يضمن لنفسه البقاء . »¹

ويبدو أن شاعرنا يجيد قلمه السير حثيثاً وهو يخط أسطراً للنشيد يتغنى فيه بأعز و أغلى ذكرى وطنية على قلب كل جزائري ، وهي ذكرى عيد الاستقلال ، وقد نظم هذا النشيد عام **1982** (على الطريقة الحرة)² كما قال ، صور فيه العلم الجزائري وهو يرفع عالياً في سماء البلاد دون أن يخفض له جناح بعد هذا اليوم ، وأثنى على جهود كل فدائي ومناضل ومسبل مستفتحاً بسيرة القائد الأمير عبد القادر :

تاريخُ أمتنا جهادٌ منذُ عبدِ القادرِ

صوتُ الجزائرِ قدْ علاَ منْ كلِّ شبرٍ ثائرٍ

فتردَّدَتْ أصدائُهُ منْ كلِّ شبلٍ زائرٍ

وسطُ البلادِ كغرْبها وكشرْقها المتظافرِ³

وقبل الاستقلال كان شهر يوليو يحمل صور الاستسلام و الخضوع للاستعمار حين وقع **الداي حسين** على هذه الاتفاقية في مثل هذا الشهر من عام **1830** ، ولكن بمجيء ثورة نوفمبر ، أبدلت المأساة فرحاً ، وقلب الموت حياة :

يا شهرَ يوليو قدْ خرَّجتَ منَ العدمِ

مذْ صرْتَ عيداً للجزائرِ تحترَمُ

1 - د. عبد الرحمان شيبان - من أعلامنا - ص 72 .

2 - ابن القاضي - الديوان - ص 157 .

3 - المصدر السابق - ص 149 .

أَحْيَاكَ شَهْرُ نَوْفَمْبِرٍ مِنْذُ الْقَدَمِ

وَرَعَاكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ مِنَ الظُّلَمِ

ثم إن ضريبة الحرية كانت باهضة ، وثمنها غال ، لكن كل ما بذل من نفس و نفيس هان أمام هذه الحمراء :

كَمْ مِنْ عَشَائِرَ مَزَّقَتْ أَعْرَاضُهُمْ وَشَرَّدَتْ

كَمْ مِنْ حَرَائِرَ عُدْبَتْ فَلذَاتِهِنَّ وَحَرَّقَتْ

كَمْ مِنْ عَسَاكِرَ فِي اللَّيَالِي الْحَالِكَاتِ تَهَجَّمَتْ¹

والثورة الجزائرية كانت نتاج تآزر بين النضالين : السياسي و المسلح ، فالأحزاب كانت تنادي بصوت الشعب ، و الشعب كان يدعم النداء بصوت الرشاش :

فإذا بأحزابٍ تنادي وَ النداءُ مهذبٌ

كلُّ يدافعُ عَنْ حَقُوقِ الشَّعْبِ وَ هُوَ معذبٌ²

إلى أن يقول :

يا شعبُ كَمْ نَزَلْتُ جَمُوعَكَ فِي الْوَعْيِ تَتَآزَرُ

وَتَقَابِلُ الرَّشَاشَ وَهُوَ كَوَابِلٌ يَتَنَاثَرُ

الله أكبرُ كلُّ مَنْ فَوْقَ الْحِمَى يَتَظَاْفَرُ³

1 - المصدر سابق - ص 151 .

2 - المصدر نفسه - ص 151 .

3 - المصدر نفسه - ص 153 .

ثم يدعو الشاب الجزائري إلى إكمال درب البناء و التشييد بعد ما أفتك حرите من يد الغاصب ، لابد للخراب الذي خلفه المستعمر أن يختفي و يحل محله صرح مشيد ، و إصلاح لدور العلم ، و حماية للأرض و صون حدودها :

قَمْ لِلْمِزَارِ عِ وَ الْمَصَانِعِ وَ الْكِفَاحِ الْأَفْخَرِ

قَمْ لِلْمَدَارِسِ وَ الْقُرَى وَ السُدِّ ؟ ذَاكَ الْأَخْضَرِ

وَ ابْنِ الطَّرِيقِ مَنْ الشَّمَالِ إِلَى الْجَنُوبِ الْأَوْعَرِ¹

ومشوار البناء و التشييد طويل ، لكنه الضمان لكي يعيش الجزائري مستقبلا يجعله قادرا على مواكبة السير الحضاري و التقدم في الركب مع باقي الأمم :

يا أيها المستقبل الميمونُ كنْ لجزائري

مستقبلَ الأجيالِ يَرْقُبُهُمْ بَوَجْهٍ نَاضِرٍ

فكنْ الضَّمِينِ لَهُمْ إلهي وَ المَقِيلَ لِعَاثِرِ²

وبهذا تكون الأمة قد رسمت مستقبلها ، وخطت ملامحه ، لتعد لنفسها مكانتها بين الأمم ، المكانة التي « تستحقها أو ترغب فيها ، ... ، و تحقق الانسجام الثقافي بين فئات الشعب ، و تضع الخبرة و فن الحياة في متناول الجيل الصاعد . »³

وكل هذه المعاني السابقة هي نفسها تقريبا تكررت في نشيده الذي سماه " نشيد جبهة التحرير الوطني " ، والذي أشاد فيه ببطولة الجيش ، و قدرته على الوقوف في وجه أعنف قوى العلم، ثم وجه نداء للشباب مذكرا إياه بواجبه في صون الوطن و بناءه ، لأن الجزائر أمانة لابد من حفظها ، وعهد لابد من الوفاء له :

1 - المصدر السابق - ص 155 .

2 - المصدر نفسه - ص 157 .

3 - د. محمد العربي ولد خليفة - الجزائر المفكرة و التاريخية ، أبعاد و معالم - دار الامة الجزائر - ط 2007 - ص 258 .

بلوائك الميمون نبلغ ما تراءى في الحلم

و بصالح الأعمال تنقشع السحاب والظلم

لنعاهد الرحمن أنا للجزائر زارعون !

و جنودها ، و شبابها و نساؤها ، و مجاهدون¹ !

وبهذا صار حلم حرية الجزائر ، واقعا يراه الشعب ، وفرحا جميلا عاشه ، بعدما سار و ناضل ،
وجاهد وضحي ، كي ينقشع ضباب الذل و المستعمر ، وتبزغ شمس الحرية ، و كل ذلك لم يتح لنا
إلا بفضل هذه الثورة المباركة و بفضل أبناءها الذين تمكنوا من كسر المستعمر « وإذلال كبريائه و
تخظيم غروره ، و إخضاعه لإرادتهم ، و لقد خاضوا صروف الزمان و روّضوا أحداثه ، و صنعوا
النصر الذي وعدوا به أنفسهم . »² .

ولعل ما استرعى انتباهي و أنا أتصفح هذا الديوان أنه حوى على قصيدة عنوانها الشاعر ب :
" مسيرة الجزائر " ، وهل عمل شعري أنجزه الشاعر على حدث حد قوله من "واقع تاريخنا المجيد"³
وقد نظمها في قالب ما يسمى **بشعر التفعيلة** ، لأنه تصرف في الناحية الموسيقية وزنا و قافية ، بينما
عناصر التجديد الأخرى التي تخص هذا النوع من الشعر الجديد فلنا فيها حديث في الفصل القادم إن
شاء الله .

وقد قسم الشاعر هذا العمل إلى (13) ثلاث عشرة قصما أو وحدة ، كان يتوقف في كل
وحدة ليتناول موضوعا معينا ، وتراوحت القصيدة في زهاء سبعمئة واثنى عشر (712) بيتا ، لتصور
لنا الجزائر في ملحمتها التاريخية ، و إن جاز إلى أن أصف هذه القصيدة بالملحمة ، لأن تقف في كثير
من المخطات التاريخية التي مرت بها أرض الجزائر بدءا بعهود المستعمر القديمة التي بسطت براثنها على
أرض نويميديا الوسطى من الفينيقيين ، و الوندال ، و الرومان ، و إمبراطورية بيزنطة ، ثم يتوقف في

1 - ابن القاضي - الديوان - ص 162 .

2 - د. أحمد أبو حاقه - الالتزام في الشعر العربي ، بيروت - دار العلم للملايين - 1979 - ص 995 .

3 - ابن القاضي - الديوان - ص 147 .

عدة وحدات يروي فيها حقبة الاستعمار الفرنسي الذي عبر عنه ب " الغول " ، صور لنا مشاهد القتل و التنكيل ، ثم توالي الثورات و المقاومة الشعبية ، التي توجت بثورة الاستقلال ، ثم فجر ثورات أخرى هي ثورات البناء و التشييد ، من خدمة الأرض وتنميتها ، إلى خدمة العقل وترقيته ، إلى تكوين الثروة و تطويرها بكل التقنيات التكنولوجية ، وكل ذلك مدعاة للفخر ، وتذكر من كان لهم الفضل للوصول إلى هذه الحال ، لأن الجزائر بهذه الثورة أصبحت مضرباً للمثل ، و سيرة تقتدي بها كل الشعوب المقهورة و المظلومة ، ثم يختم الشاعر بالدعاء لروح كل شهيد ، دعاء للجيل الصاعد بأن يلهمه القدرة على حمل المشعل ومواصلة المسيرة على درب الأجداد مستنيرين بآثارهم و ذكراهم المجيدة في كل حين .

وقد استطاع وهو يتتبع مسيرة الأمة ، استطاع أن يأخذ بأيدينا و نشاهد كل صور « الحياة السياسية و الاقتصادية و الاجتماعية ، فأنشد شعراً نادى فيه بالتحريض ، و إيقاظ الوعي في الأمة ، و الانتفاع بشرواتها . »¹

ونشاهد في أول مقطع من هذه المسيرة صورة الحلم الجميل صورة الحلم البريء ، الحلم الجميل بالحرية ، وبرؤية ذاك العلم يرتفع شامخاً في سماء الأحرار ، ثم يتساءل متى يأتينا هذا النبأ يقينا ، متى يأتي شافيا كل عليل ، ومنيرا درب كل مستنير :

رَفَعْتُ يَوْمًا قَلَمًا

وَلَوْحَةً وَعَلَمًا

رَسَمْتُ فِيهَا قَمَرًا

وَنَجْمَةً ، وَحَلَمًا ...

1 - د. علي علي مصطفى صبح - من الأدب الحديث في ضوء المذاهب الأدبية و النقدية - دار المريخ للنشر - الرياض - ديوان المطبوعات الجامعية - ط 1985 - ص 35 .

يا حسنَ ذاكَ العلمُ

يا طيبَ ذاكَ الحلمُ

يشفي العليلَ منَ الجراحِ ...

أيتها الآمالُ يا نورَ السما !

هل أنتِ تحملينَ للشعبِ خبرَ ؟

وهلَ لديكِ نبأُ المستقلِ ؟

وهلَ أطلَّ البدرُ خلفَ الجبلِ ؟

ينيرُ للمدّجِ كلَّ السبلِ ! ... ¹

وبعد التساؤل عن قدوم الحرية ، يأتي الجواب مثبتاً ذلك ، ولا يأتي هذا الإثبات إلا في شكل
تساؤل لا ينتظر تفسيراً ولا جواباً ، لأن هذا الجواب كامن فيه و نابع منه ، يتساءل أين كل
الأجناس التي أرادت أن تغصب هذه الأرض المباركة وتسلبها منذ الأزل ، يأتي الجواب مؤكداً ؛
الكل قد رحل :

فأين " وندال " ؟ وأين " الروم " ؟

وقبلهم " فينيقيون " هائمون هاهنا ؟

وأين " بيزانس " التي جاءت تسوم ؟

و " الغول " ؟ ... قد لاذوا جميعاً بالهروب ²

1- ابن القاضي - الديوان - ص 123 و 125

2 - المصدر نفسه - ص 126 .

ثم إن هذا الشعب متأصلة فيه محبته لحرية ، يناضل عنها في كل زمن ، يبذل الدم و الدمع في سبيلها جيلا عن جيل ، وماضيا بجانب حاضر ، ومسيرته تمضي قدما و لا تستكين ، وفي كل محطة تبني صرحا من المجد ، ثم تواصل عبر العهود و عبر القرون سيرا لا يتوانى و لا يخون :

مسيرة^{*} تخللتها الثورات

منذ^{*} القدم ،

يا روعة^{*} الشعب إذا الشعب مشى !

يبني الخلود حجرا بحجر ،

و جثة^{*} بجثة ،

و قطرة^{*} بقطرة ،

من عرق^{*} الجبين ، من دمع^{*} ، و دم

ليصل^{*} الحاضر بالماضي المجيد

شعب^{*} يسير ...

منذ^{*} القرون الغابرة

إلى العهود الحاضرة

إلى الأبد^{*} ! ... ¹

وتوجت كل هذه الثورات ، وكل هذه المقاومات بالثورة المباركة ، التي جاءت لتبعث الحياة من الموت ، و الفرح من الحزن ، و الحيوية بعد الهزال و الجمود :

نوفمبر الميمون^{*} يا شهر الحياة !

1 - المصدر السابق - ص 128 ، 129 ، 130 .

يا مشعلَ الحرِّيَّةِ الحمرَا !

يا كوكبا أطلَّ منْ بَعْدِ السرى !

قد كنتَ قبلاً عندهم شهرَ المماتِ

تضعُ في غرَّتكَ الزُّهورُ

على القبور !

سبحانَ منْ جعلَ منْ نهايةٍ بدايةً¹ !

ومن كفاح لكفاح ، فما ثورة التحرير ، وفرحة الاستقلال ، إلا بداية لثورات ومسيرات لاحقة لا بد من اكتمالها ، تبدأ إذن في حياة الشعب مسيرة البناء و التشييد ، البناء الاقتصادي الذي لا تقوم لدولة قائمة إلا بصرح متين منه ، من خلال تحريك ما يكمن في باطن الأرض من طاقة ، واستغلال كل ثروة من شأنها رفع مكانة الوطن :

يا ألفَ معملٍ و معملٍ ! بدَا

دُخانها يعلو منْ المداخنْ

يذوبُ فيها الصلبُ و الحديدُ

يسيلُ فيها النفطُ و الغازُ العتيْدُ

وتُخرُجُ الطاقةُ و البأسُ الشديْدُ !

مصادرِ القوَّةِ و الحياهِ !²

1 - المصدر السابق - ص 130 ، 131 .

2 - المصدر نفسه - ص 132 ، 133 .

ثم يصور لنا الهدوء و الجمال وقد عادا إلى أريافنا ، والحلم مازال يراود الأنفس ، حلم البناء و الحياة الكريمة تحت ظلال الحرية ، حلم يسري نغمه عذبا في رنة المزمار ، وفي ضوء الأصيل ، في هبة القطيع عائدا نحو الديار :

في البعدِ تقطعُ الدُّجَى منتقلاً معَ النسيمِ الطيبِ
راجعةً إلى القرى معَ ثغاءِ الغنمِ
مزمارُهُ معبرٌ عنْ حُلُمٍ عندَ الأصيلِ !
قدْ خالَجَ الأنفُسَ منذُ القَدَمِ يُحْمَلُ في أصوْفِهِ عطرَ القصيلِ
صوتُهُ الرَّخِيمُ يعلو مُنْشِداً وَ الطيرُ فوقَهُ يشدُّو وَ يسجعُ¹

رحل المستعمر يجر أذيال الهزيمة ، لكنه ترك آثارا مشينة يندى لها الجبين ، كان يقتفي أثر المدارس ومعادل اللغة العربية و الثقافة الإسلامية ، وكان في كل مرة يحاول اقتلاع ما يجد من الجذور، وزراعة الثقافة الأجنبية ، ثقافة المفرنس و المنصر ، ورغم مساعيه ، وما خلفه من ملامح هذه الثقافة على قسم لا يستهان به من أبناء الشعب ، إلا أن معركة الضاد قد حملت اللواء ضدها ، وعزم الجميع على إحياء الضاد ، من أجل أن يكتب بحروفه كل ما شهد به التاريخ لهذه الشعب ، و التصحيح يبدأ بأول نواة في المجتمع وهي الناشئة :

ياما أحلى البسمات

كأنها نورٌ على وُجوههم

يجرُونَ في غُدُوهم

وَ في الرِّوَاخِ ! ...

1 - ابن القاضي - الديوان - ص 135 ، 136 .

على رنينِ المقلّماتِ !

يرشّفون العلمَ كالماءِ القَرّاحِ

وَ يستعدُّونَ لخوضِ المعركةِ

بلغةِ الضادِ المجيدِ الخالدِ

بلغةِ القرآنِ

بينونَ مجدّاً طارفاً إزاءَ مجدٍ تالدٍ

يحيونَ عهداً قد مضى

بينونَ مجدّاً مرّتضى¹

وتبدو رسالة الشاعر واضحة المعاني ، من خلال إلحاحه على إحياء لغة الضاد ثم يؤكد مكانتها و يعززها بأنها لغة القرآن ، ولهذا « معنى عميق ، إذ يفهم منه انصراف الناس عن قرآئهم ، و عن هذا المصدر الثري ، وهذا المنهل الصافي ، ... ، كما يدل على سيطرة فكرة الإحياء على النفوس كمحاولة للنهوض من الكبوة ، و القيام من العثرات ، و الإفاقة من الغفلة ... »²

وبعد فإن الشاعر يدعونا إلى أن نقف وقفة تذكّر ، واعتبار ، ثم نعطي الوثاق و العهد بأن نكمل مسيرة هذا الدرب حين نتذكر من عذب في السجون وقتل ، و من ناضل في الجبال واستشهد ، من أجل كرامة الحياة :

قف بالسجونِ «بَرْبُوسَ» وَ «تُرْلَتَ»

وَأَبْكَ عَلَى الْمَعْدَمِينَ !

1 - المصدر نفسه - ص 138 .

2 - د. ناصر بوحجام - أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث - (1925-1974) - ج1 - ط1 - المطبعة العربية غرداية

- 1992 - ص 30 ، 31 .

قفْ بالمساجِدِ التي حشَرَتْ

بمِجْثِ المستشهدين¹ !

والحالِ هذا ، فإن الجزائر وشعبها أصبحت رمزا للبطولة و مثالا تقتدي بها كل الأمم ، لأنها مسيرة
للخير ، وعمومه على كل الإنسانية :

مسيرة الشعب الكريم الماجد ...

قد أصبحت رمزا لكل سائر

للعالم الثالث في إفريقيا

و أمريكا العانية

و آسية² !...

و التأكيد في الأخير على البقاء على العهد ، عهد الجزائر منذ القدم ، يتجسد في ندائه الذي
وجهه إلى جبهة التحرير سليله جيش الأمير عبد القادر الجزائري ، وجيلا عن جيل ، و أبا عن جد ،
ستواصل المسيرة :

يا جبهة التحرير قري عينا !

ورفرفي فوق الحمى علينا !

وواصل مسيرة الجزائر !

مسيرة قد بدأت منذ القدم ؛

طريقها دمع و دم ،

1 - ابن القاضي - الديوان - ص 140 .

2- المصدر نفسه - ص 142 - 143 .

منذ قرُونٍ قد مضتْ غَوَابِرِ

إلى الأميرِ الشهمِ عبدِ القادرِ ،

إلى منْ استشهدَ في الأواخرِ

إلى الأبدِ ! ... ¹

وهذا النموذج من القصائد التي نظمها الشاعر كشعر حر ، أو شعر تفعيلة يختلف عما سبق من القصائد في الناحية الموسيقية ، إذ تصرف في عدد التفعيلات ، لكنها لا تقترب كثيرا من مواصفات و خصائص الشعر الحر الذي يغرق في التأمل ، و نشيع في صوره الشعرية ظاهرة الغموض و الضبابية واستلهم الوقائع التاريخية جنبا إلى جنب مع حديث الأسطورة ، ويصدق هذا القول ما قاله الأستاذ " علي بن محمد " في تقييمه للديوان : « و نعتقد أن الحرص على الوظيفة الديوانية التسجيلية التي تعنى بالتقييد الدقيق للوقائع و آثارها في النفس ، بالإضافة إلى المنطلقات الأولى التي كانت تعليمية بحتة ، تتبنى خطاب الوعظ و الإرشاد و التوعية ، قد ضاقت أشكال التعبير الفني ، و ألزمتها نوعا من الالتصاق بالواقع القريب ، حرما من تلك " الضبابية " المحببة في الشعر . » ²

من خلال ما سبق نصل إلى أن الشاعر كغيره من شعراء عصره عاش أزمة وطنه و شعبه و روى وقائعها ، واستبشر بقدوم الحرية مع الثروة المباركة و تفاعل مع كل أحداثها و توقف في كل محطاتها و بث في شعره آلامه و آماله و حماسه لدنو الاستقلال ، تعلق روحه بالحرية ، و ملكت عليه قلبه ، و تفنن في الإنشاد لها والترنم بأنغامها ، وكان لهذا النوع من المواضيع في شعره بعد اجتماعي يرمي إلى توعية أفراد الشعب و ضرورة إبقاء ضميرهم الوطني حيا و متيقظا ، و حتى بعد إعلان الاستقلال « بقي جو الثورة في الذاكرة ، مما يؤكد أجواءها بصورها و مآسيها و شهدائها و بطولاتها هي حتى اليوم الموضوع الرئيسي . » ³

1 - ابن القاضي - الديوان - ص 144 .

2 - علي بن محمد - مقدمة الديوان - ص 43 .

3 - د. نور سلمان - الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير - ص 403 .

و إلى جانب ذلك فقد نظم الشاعر ضمن هذا الغرض أشعارا تحث على مواصلة درب الأجداد و صون الأمانة و خدمة الوطن و المساهمة في بنائه و تشييده لئيزغ نجمه بين الأمم ، ويساير ركب الحضارة .

02 - الإسلام و العروبة :

منذ أن منَّ الله على أرض الجزائر بنور الهداية و الإسلام ؛ الجميع ممن شهدوا هذا الالتحام و الانضواء تحت لواء هذا الدين ، يروي و يؤكد كيف كان أهل شمال إفريقيا مهيين بقدره إلهية وفطرة ربانية إلى أن لهذا الكون خالقا واحدا ، و أن الإنسان لا محالة من صنع هذا المعبود ، ومع هذا الاستعداد الفطري فقد كان نور الإسلام بمثابة التتويج لهذه التصورات الفكرية التي شغلت إنسان شمال إفريقيا .

والذي لا يختلف فيه اثنان أن الإسلام دين يحمل كل المعاني السامية و القيم النبيلة لكافة الإنسانية ، وقد كرمَّ الله تعالى اللغة العربية بهذا الدين ، و جعلها لسان الكتاب المبين ، و بذلك حمل الإسلام و العربية لواء واحد ينير العقل البشري ، ويهديه لحقيقة الخلق و الكون ، و يرشده إلى الطريق الصحيح نحو الواحد المعبود .

وبهذا كان لكل شعب عربي تاريخ أصيل يستمد روحه وانبعاث أصالته من تاريخ هذا الدين و مسيرة اللغة العربية جنبا لجنب معه ، فقد اعتبر « معظم شعراء العربية تاريخ بلادهم امتداد للتاريخ العربي الإسلامي . »¹ ، وكان يشيدون بكل إنجاز في بلادهم يخدم و يدعم صرح الدين و اللغة في كافة أقطار العالم الإسلامي .

و القارئ المتمعن للقصائد التي نظمها الشاعر في هذا المضمون ، يدرك أن هذا الشعر له من النظائر ما لا يحصى سواء في شعر المشاركة أو المغاربة ، بيد أنه كان يحمل في طياته أيضا مدلولات

1 - د. نور سلمان - الأدب الجزائري في رحاب الرفض و التحرير - ص 343 .

أخرى هي أن الجزائريين كانوا «أشد التصاقا بدينهم ، و عدم فصلهم بينه و بين عروبتهم ، وظل هذا التلازم بين العروبة و الإسلام عميقا إلى اليوم .¹»

وفي هذا المقام يمكن الحكم على هذه القصائد أنها نظمت لعدة مناسبات ، وهذا ما عززه الشاعر ببعض تصريحاته بعد كتابة تاريخ نظم القصيدة ، غير أن باكورة ما نظم في هذا الغرض حسب قوله ، كانت بدافع الغيرة على الإسلام و بلاد العرب شرقا و مغربا ، وحث أهليها على ضرورة اللحاق بركب الحضارة :

يا بني الإسلامِ يا أهلَ العلا	شيدُوا مجداً طريفاً فاضلاً
يا بني العربِ ويا أهلَ النهى	حاربوا الجهلَ المهينَ القاتلاً
إنكم في غفلةٍ فاستيقظوا	ونفضوا عنكم غباراً شاملاً
كيف دأوتم على الجهلِ وقد	سارعَ الغربُ لعلمٍ عاملاً
يا بني الإسلامِ قوموا جدّوا	شرفَ الأسلافِ وابنوا المائلاً ²

وهذا نداء صريح ، وخطاب وجهه الشاعر إلى بني الإسلام الذين هم في حقيقة الأمر بنو العروبة ، و الحال كذلك ، فإن الإسلام و العروبة وجهان لعملة واحدة ، وإذا تعمقنا في منحى هذا الخطاب و طبيعته ، فإننا نفهم أنه موجه بكل تأكيد إلى الجزائريين ، وهم جزائريون مسلمون و جزائريون عرب ، لذلك فإن هذه الأبيات تصلح في منطوقها خطاب كل العرب و كل المسلمين ، لأنه لا شيء يوحي بأنها وقف على الجزائريين وحدهم .

ومن المناسبات التي سبق لنا الحديث عنها : نظم الشاعر قصائد جميلة يحيي بها الوفود العربية و الجزائر تستضيفها لإحياء المؤتمر العربي الثقافي السادس في مدينة قسنطينة ، وقد كان لهذا الحدث بالغ

1 - د. شلتاغ عبود شراء - أثر القرآن في الشعر العربي الحديث - مؤسسة الثقافة الجامعية - ص 17 .

2 - ابن القاضي - الديوان - ص 47 .

الأثر من الفرحة في نفس الشاعر ، ونحن نعلم مقدار و مكانة هذه المدينة في قلبه لدرجة أنه أفرد أبيانا في مقدمة هذه القصيدة يتغنى بجمالها و يتغزل بسحرها :

قسنطي ! هيجتْ ذِكرَاكِ شِعْري بأصداءٍ تردُّدُها حيالي
أسرتْ عواطفِي وسَحَرَتْ رُوحِي بأنغامٍ منَ السحرِ الحلالِ
بلادَ العِزِّ كنتَ وَلَنْ تَزَالِي بلادًا للمفاخرِ وَ المعالي
رَعَاكِ اللهُ مِنْ كُلِّ العَوَادي ودَامَ بنوكِ أعلامَ الرِّجالِ¹

و الشاعر تملأوه الفرحة ، ويستبشر بقدوم إخوانه العرب ، فالجمعُ مجمعٌ خير للإسلام و اللغة ، سار أبناؤها على درب الكفاح طويلا ، وامتزجت دماء الشهداء على تراب الوطن العربي ، ووحدهم الكفاح ضد المستعمر و الكفاح ضد ظلام الجهل و الأمية :

أمؤتمرَ العُرُوبةِ قرَّ عينا وطب نفسا على مرَّ الليالي
يوحُدُ بيننا دينٌ وَ خلقٌ وَ أعلامُ النجومِ معَ الهلالِ
يوحُدُ بيننا ضياءٌ عزيزٌ وَ قرآنٌ منَ العصرِ الخوالي
توحدُ بيننا شرقًا وَ غربا ضحايا الحربِ في زمنِ القتالِ
يوحدُ بيننا تعليمٌ نشءٌ وَ توجيهُُ الشبابِ إلى المعالي²

و لنبل رسالة العلم ، فإن الشاعر يدعو مؤكدا على أواصر اللغة و الدين ، إلى واجب تعليم النشء ، واصفا له ما وصلت إليه آخر ابتكارات العصر من فنون العلم في الحياة ، مغريا بها لوجوب نهل علومها إما لصنعها أو اتقاء مخاطرها :

1- ابن القاضي - الديوان - ص 57 .

2 - المصدر نفسه - ص 58 .

بَوَاحِرُ فِي الْعَوَالِمِ سَابِحَاتُ
مَنْ الْأَقْمَارِ لِلنَّجْمِ الْعَوَالِي
وَصَارُوهُ يَشْقُ الْأَرْضَ شَقَا
وَيَبْحَثُ عَنْ خَبَايَا ذِي الْجَلَالِ
وَأَجْهَزَةً لَهُمْ وَمَحَرَّكَاتٍ
وَأَسْلِحَةً تَهْدُدُ لَا تَبَالِي
فَهَلْ قَسَطْنَا مِنْ كُلِّ عِلْمٍ
وَمَكْتَشَفٍ وَمَخْتَرِعٍ مِثَالِي¹

ولا شك أن الحديث عن مظاهر الحضارة هذه ترمي إلى دفع الأجيال في الأمة العربية المسلمة إلى العودة إلى منابعها التي كانت من صنع أجدادهم في القدم ، و لا نجد الغرب إلا وهم يتصفحون كتب الخوارزمي ، و ابن سينا وكل فطلحة العلوم و الطب و الفيزياء ، و بنوا ما نراه اليوم فيه من حياة التقدم والترف و الرفاء ، لذلك كان واجبا على الشاعر كغيره من الغيورين على مستقبل أجيال الأمة : « أن يتجهوا للحديث عن مظاهر هذه الحضارة و يضربوا بها المثل لأبناء وطنهم يفتحون عيونهم عليها و على أصحابها ، و هم يقصدون العبرة من هذا . »²

و لأن المؤتمر قد عقد لأجل هذه المسألة ، فقد عزم كل أبناء هذه الأمة على حمل مشعل العلم ، و التكاتف جنبا إلى جنب ينير درجهم الإسلام ، و تحت خطاهم أصالة العروبة ، و كما كان النصر المؤزر حليف الشهداء ، سيكون كذلك مكللا جهود الباحثين و العلماء :

لَقَدْ كَانَ شَعْبُ الْعَرَبِ يَحْمِلُ مَشْعَلًا
أَضَاءَ بِهِ الْأَنْحَاءَ مِنْ سَالِفِ الدَّهْرِ
فَعَارٌ عَلَيْهِ أَنْ يَرَى مِتْخَلِفًا
وَقَدْ سَارَ رَكْبُ الْعِلْمِ لِلشَّمْسِ وَالْبَدْرِ
فَهِيَ بَنَّا نَبِي الثَّقَافَةِ كُلْنَا
عَلَى أَسْسِ الْقُرْآنِ وَالْدِّينِ وَ الْعَصْرِ
سَنَعْلَنَهَا حَرْبًا عَلَى الْجَهَالَةِ وَالْحَنَّا
نَثُورُ لِتَحْرِيرِ النُّفُوسِ مِنَ الْأَسْرِ

1 - المصدر السابق - ص 58 .

2 - د. عبد الله الركبي - الشعر الديني الجزائري الحديث - ص 581 .

كما انتصر الأبطال في ساحة الفدا ستنتصر الأقالم في ساحة الفكر¹

و العواطف نفسها ييشها في أبيات أخرى ينشد فيها أنغاما للوحدة العربية ، و يعلن عن آماله المتجددة في عزم هذه الأمة على رفع لواء العلم كما رفعوا لواء المجد ، واستعادة ماضي الأجداد المجيد ، وبناء الحاضر السعيد :

سنحيي بحول الله عهد موحّد وعهد بني عباس ، عهد أمية

وعهد الألى من قبل بعد محمد أناروا سبيل الحق للبشرية

سنرجع عهدا كان كالشمس مشرقا ونبي عهدا كالنجوم الوضية

ونحن كما كنتم لنا يوم محنة على العهد ضدّ الجهل والجاهلية

وما خيب الرّحمان قوما تعاونا على البرّ والتقوى بأصدق نية²

ومن هنا نلمس في نداء الشاعر و من خلال صيغ الاستقبال «سنحيي ، سنرجع .» ، «دعوة ملحة إلى النهضة و الأخذ بتلايب العلم ، و بأسباب الرقي و التقدم ، ولا يرقى الشعب إلا إذا أخذها .»³ و يصير الشاعر أن هذه النهضة يوجهها الإسلام وتقو بها الروح الأصيلة للغة العربية ، بما حملته من تراث دعا الشاعر إلى « العناية به و بالتحديد ديوان العرب رمز عزتها و مفاخرها . »⁴

كما أنه كان يتطلع و يأمل أن يكون هناك لم للشمل ، و جمع أواصر هذا الجسد المترامي الأطراف مشرقا و مغربا ، هذا و حتى إن كان شعره موجهها صوب « الوعي القومي ، من ذكر

1 - الديوان - لابن القاضي - ص 62 .

2 - ابن القاضي - الديوان - ص 73 ، 74 .

3 - د. محمد الطمار - تاريخ الأدب الجزائري - ديوان المطبوعات الجامعية - بن عكنون الجزائر - 2006 - ص 392

4 - د. عبد الله حمادي - أصوات من الأدب الجزائري الحديث - ص 34

الأعجام العربية ، و استعراض تطلعات شعوب الأمة العربية نحو المصير الواحد المشترك ، فإن هذا الشعر لم يهمل التحدث عن الوحدة العربية . ¹ »

و الملفت و المسترعي للانتباه أن القصائد الموالية نظمها الشاعر في فترة تالية للاستقلال ، أي منذ حوالي سنة 1964 إلى سنة 1974 ، و شاعرنا كما نعلم أفنى حياته في ميدان التربية و التعليم، فكانت رسالته تحمل في طياتها إرساء قواعد متينة لتعليم النشء على أسس الخلق و الطبع السليم الذي يستقي من منابع الإسلام ، و تنمية حسه الإبداعي ، و ذوقه الفني و قدراته اللغوية على أسس الحفاظ على موروث اللغة العربية الزاخر بالمفاخر ، و الحال كذلك فإن الشاعر قام بعدة زيارات إلى بلدان شقيقة لأجل هذا الغرض ، و كان في استضافة أخرى إلى الجزائر من أجل تحقيق هذا الهدف .

كان يوجه باقات من شعره إلى مصر و السودان ، إلى اليمن و إلى سوريا ، و كان في كل مرة لا يغفل عن ذكر شمائل العرب ، و أمله في الوحدة القومية ، و صفاء الأصول العربية الإسلامية التي انصهرت في كيانها كل هذه البلدان ، يقول موجهها تحيته إلى مصر أم الدنيا مركزا على معالمها التاريخية ، و أقطابها العلمية و الإسلامية :

سلامٌ على أرضِ الكنانةِ وَ النهرِ وَ مَنْ سَدَّ أسْوَانَ إلى شاطئِ البحرِ
على العلمِ وَ التقوى على الأزهرِ الذي أنارَ بلادَ العربِ مَنْ سالفِ الدهرِ
سلامٌ على أبطالِها وَ « جمالها » فقدَ بعثوا مجدَ العروبةِ مِنْ قبرِ
أفاهرةِ الأعداءِ يا معقلَ الحمى فقدَ زِدَتْ فخراً « بالجمال » على فخرِ
فتيهي على كلِّ العواصمِ وَ افخري بثورتكِ الكبرى وَ بالعلمِ وَ الشعرِ ²

1 - د. عثمان سعدي - دور الشعر الجزائري في بث الوعي القومي - الندوة الفكرية - ص 392 .

2- ابن القاضي - الديوان - ص 63 .

ونرى إشارات بآبائها وقد خص بالذكر " جمال عبد الناصر " ، وساح في مظاهر جمال مصر ، وبين مدنها العريقة عراقا الحضارات التي مرت من هناك ، من بلدة الأقصر إلى أهرامات الفراعنة ، من سد أسوان إلى الاسكندرية الحسناء :

وَجَلْنَا مَعَا فِي بِلْدَةِ "الأقصر" الَّتِي بِهَا آيَةُ الْإِبْدَاعِ فِي الْكَرَنكِ الدُّرِّيِّ

وَقَفْنَا بِأَسْوَانَ الْجَمِيلَةِ فَانْبَرَى لَنَا سُدُّهَا الْعَالِي وَخَزَانُهَا الْمَغْرِي

وَزُرْنَا حَمَى الْإِسْكَندَرِيَّةِ فَانْجَلَتْ كَمَا تَتَجَلَّى الْحُسْنَاءُ فِي مَلَبَسِ سِحْرِي¹

ونفس المعاني نجدها وهو ينشد في مدينة الخرطوم بحضور وفد الجزائر من وزارة التربية ، ركز فيها على الأبعاد التاريخية و الإسلامية ، ووحدة الكيان الروحي حتى لأنه استعمل ضمير جمع المتكلمين في أسلوب قصر شامل :

وَمَا نَحْنُ إِلَّا إِخْوَةٌ فِي عُرُوبَةٍ وَفِي الضَّادِ وَالْإِسْلَامِ دِينُ الْمُهَاجِرِ

وَمَا نَحْنُ إِلَّا أُمَّةٌ عَرَبِيَّةٌ نَمُوتُ وَنَحْيَا فِي سَبِيلِ الْمَفَاخِرِ

فَكُنْ حَازِقًا يَا ابْنَ الْعُرُوبَةِ وَاحْتَفِظْ بِقِرَآنِكَ الْأَسْمَى وَ أَسْمَى الشَّعَائِرِ²

ونداؤه الذي وجهه إلى مخاطب واحد " يا ابن العروبة " إنما يحمل من ضمن ما يحمل من دلالات ، معاني الوحدة ، وتراص كل أبناء الأمة في هذا الواحد " ابن " ، وهذه اللحمة لا تنفصم عراها مادامت وشائج الدين و اللغة متماسكة ، ومادام هذا " الابن " متشبثا بهذه الروابط .

أما حديثه إلى بلاد اليمن فقد كان ملما أيضا بكل ملامح الجمال والجلال في مهد التاريخ و الحضارات ، و أرض الأنبياء و الكرامات :

إِيَّاهُ صَنَعَاءُ أَنْتِ مَهْدٌ أَصِيلٌ لِلْحَضَارَاتِ مِنْذُ خُلِقَ الْبَرِّيَّةُ

1 - ابن القاضي - الديوان - ص 63 ، 64 .

2 - المصدر نفسه - ص 65 .

إِيَّاهُ صَنَعَاءُ أَنْتِ قِطْعَةُ أَرْضٍ قَدَّسَ اللَّهُ تَرْبَهَا بِالنَّبَوَّةِ

يَمْنُ الْعَرَبِ أَنْتِ وَالْعَرَبُ أَهْلُوكِ الْمَيَامِينُ أُمَّةٌ أَرْيَحِيهَ¹

وبنفس الأسلوب الذي قصر فيه هذه الأمة على العروبة و الإسلام في قصيدته إلى السودان نجد نفس الأسلوب حتى أننا لا نملك على أنفسنا إلا أن نقول إن مثل هذه الأبيات إنما حملت في دائرة دلالاتها الكبرى خطاباً موجهاً إلى جميع من العرب و المسلمين لا إلى بلد بعينه :

إِنَّمَا نَحْنُ أُمَّةٌ دِينُهَا الْإِسْلَامُ وَالضَّادُ نَطْقُهَا وَبِالسُّوِيَّةِ

جَمَعْتَنَا أَوَاصِرُ الْعَمِّ وَالْخَالِ وَرَبَطُ الْوَشَائِجِ الْوَطَنِيَّةِ

فَإِذَا الشَّعْبُ كُلُّهُ عَرَبِيٌّ وَإِذَا الْأَرْضُ كُلُّهَا عَرَبِيَّةٌ²

أما بلاد الشام فقد كان لها الخطوة في قلب الشاعر ، خاصة و أنها احتضنت ابن الجزائر " الأمير عبد القادر " ووفته حتى نضاله ، بلدا احتضن ثورة نوفمبر ، تحمس لها ، واهتز لها ، و طرب لنصرها ، بلدا أحب الشاعر ربوعه ، و تغنى بجلال الخلق وروعة الجمال في أرضه .

لقد كان الشاعر في هذه القصائد ممن عني بالحديث عن بلاد المشرق و الحنين إليه ، « فما من قصيدة إلا و تشيد بالشرق و تنسب الجزائر إليها و تهاجم الغرب ، لأن المفهوم منصب على التفريق بين الإسلام و المسيحية . »³

1- ابن القاضي - الديوان - ص 67 .

2 - المصدر نفسه - ص - 67 .

3- د. عبد الله الركيبي - الشعر الديني الجزائري الحديث - ص 682 .

كما انه من دعاة إحياء التراث العربي و تمجيد اللغة العربية ، فمن غيرنا نحن العرب « يفهم تراثنا خيرا منا ، ومن يغار عليها و يحميها و يطورها بإخلاص لا شبهة فيه غير أولئك الذين عبروا بها عن آلامهم و أحلامهم و ذكرياتهم و المعاناة التي عرفتھا * . »¹

وحسب مسعى الشاعر في تحقيق النهضة الثقافية فلا بد أن تبدأ العناية بالدين لأنه أساس اللغة، و هذا يحتم علينا أن نوالي هذا الدين « ما يستحقه من إطار مسعانا لتحقيق الثورة الثقافية ، ... ، لأنه يضمن لشخصينا الوطنية أن تتطور في ظل توازن نفسي و روحي يجنبها مخاطر الاستلاب و الانحراف و الجمود . »²

و من جميل ما نظم الشاعر في هذا المضمون ، قصيدة أخرى إلى جانب ما تحمل من أبعاد العروبة و الإسلام ، معاني و أبعادا إنسانية ، فهو يتمنى فيها الخير و السلام ، لكافة البشرية ، تغنى فيها بمولد الهادي الأمين بأخلاقه ، ونبل قيمه قبل و بعد البعثة ، و فيها دعاء للإله بفك قيود كل مستعبد ليخلص في الأخير ، و يعبر عن مدى ألمه بمصاب القدس و فلسطين و دعا الله أن يعز الإسلام في أرض الإسلام و الأنبياء و يقهر الصهاينة المعتدين :

يا فلسطينُ أينَ قبلتنا الأولى ؟ ترى هل يعيدُها الخلاقُ ؟

يا نبيَّ الإلهِ يا سيدَ الكونينَ هذي دُموعنا تَهراقُ

قلْ لعسى و قلْ لموسى : أهذا الودُ ؟ أم هكذا تجارُ الرفاقِ

قدْ غرسنا السلامَ في الأرضِ ولكن أزعجتهُ الرُّعودُ و الأبراقُ

* - يقصد معاناة اللغة العربية من أساليب المستعمر في محاولات طمس وجودها .

1 - د. محمد العربي ولد خليفة - الجزائر المفكرة والتاريخية ، أبعاد و معالم - دار الامة الجزائر - ط2007 - ص 255 .

2- الشاذلي بن جديد - مفهوم الثورة الثقافية - ينظر مجلة ثقافية - الجزائر - السنة 13 - عدد 78 - 1983 - ص

وَأَقْتَتَلُ بَيْنَ الْوَرَى وَافْتِرَاقُ

أَوْ بَعْدَ الْكِتَابِ يَبْقَى نَزَاعُ

سَادَ فِيهِ الْأَخَا وَ سَادَ الْوِفَاقُ¹

أَوْ لَمْ يَسْعِدِ الْوُجُودُ إِذَا مَا

والشاعر إذ يسأل " أين قبلتنا الأولى " ، إنما يحاول أن يقرب إلى أفهامنا أن المسجد الأقصى هو شريان وجود هذه الأمة ، و سبب عزها و مجدها و لابد من استعادته فهل يعود ؟ و يؤكد أن « الأمة العربية فقدت مجدها بنكية فلسطين ، و لكنه واثق من عودته بعد أن يُطرد الإسرائيليون من فلسطين و تعود عربية خالصة . »²

وفي قوله : " وقل لعيسى و قل لموسى ... " ، إنما يرمي إلى أن ما يرتكبه اليهود و النصارى ليس من صميم ديانتهم في شيء ذلك أن الحرب « مدامت بين اليهود و العرب في فلسطين ، هي حرب عقائدية من أساسها ، ... ، فموسى و عيسى عليهما السلام مترهان عن فعل أتباعهما ، حتى يبين عدالة القضية و شرعيتها و أن اليهود هم الظالمون . »³

وهذا ما أكدته قول الشاعر مفدي زكريا :

وَهَلْ يَرْضَى الْمَسِيحُ وَفِيهِ غَابَا ؟⁴

أَيْهَتَكَ بِاسْمِ مُوسَى قَدْ سُطِّهَ

وبالعودة إلى قضايا الوطن ، نرى الشاعر وهو من دعاة التعريب ، يقوم منشدا وهذا المجهود يكلل بخطوة رشيدة هي انعقاد الندوة الوطنية الأولى للتعريب ، ينادي فيها الشباب الذي خطفت أبصاره ألوان و بريق الثقافة الأجنبية ، ويذكرهم بأن الشهيد مات لتبقى عروبة الجزائر حية :

وَلْتَبْقَى عَرَبِيَا

وَلَقَدْ مَاتُوا لَتَحْيَا

1 - ابن القاضي - الديوان - ص 54 .

2 - د. عمر محمد الطالب - الأدب و الشعور القومي من خلال القضية الفلسطينية - ينظر الندوة الفكرية - ص 328 .

3 - حواس بري- شعر مفدي زكريا- دراسة و تقويم - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - 1994 - ص 165

4- مفدي زكريا - المغرب - مطبعة الأنبياء - 1976 - ص 62 .

لا لتبقى أعجميا في الأهالي أجنيا

سرّ إذا شئت رويدًا إنما كنّ وطنيا¹

ويعضي الشاعر متفائلا بأن العلاج سينجح ، و أن الجهود ستكلل بالنجاح ، خاصة و أن هذه الندوة ختمت و هي عزم مع أصحابها على تحقيق ما كان أملا و حلما ، ليصبح حقيقة تلمس في واقع الجزائر :

ندوة التعريب قدّ أحيت آمالاً كباراً

سوف تضحى في سمانا مثل شمس لا تجارى²

مما سبق نجد أن الشاعر قد تبني لغة الوطن الأم « التي كانت هما من هموم الشاعر الجزائري ، ودافع عنها و عن عروبة الجزائر ، و نادى بها لغة للأجداد و الأسلاف و كذا كل الأجيال . »³ ، كما حارب كل أشكال الاستيلاء الفكري و حذر الشباب من الوقوع في شرك الحضارة الغربية و بين أنياب ما « يسهل تذويب الشخصية الوطنية في ثقافة غريبة عنها . »⁴ ، وفي كل ذلك لا يغفل الشاعر عن التنبيه و التأكيد على عامل الانتماء إلى العروبة و الإسلام كونه « جزءا أساسيا من الانتماء القومي الأشمل للأمة الإسلامية كما أنه لا عروبة من دون إسلام ، وهو انتماء أبدى طموحا في نفس الشاعر إلى وحدة رشيدة تكون مصدر المنعة و القوة و الغلبة . »⁵ .

كما نجد النفحات بالإيمان القومي تنبعث من كل قصيدة أو حتى من كل مقطوعة ، خاصة حينما يكون الحديث عن أقطار عربية و إسلامية أو قضاياها المختلفة و على رأس هذه القضايا قضية فلسطين.

1 - ابن القاضي - الديوان - ص 77 .

2 - المصدر السابق - ص 78 .

3 - د. نور سلمان - الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير - ص 361 .

4 - د. شلتاغ عبود شراد - حركة الشعر الحر في الجزائر - المؤسسة الوطنية للكتاب - الجزائر - 1985 - ص 23

5 - د. عمر بن قينة - في الأدب الجزائري الحديث - ص 67 .

وكل هذا يسلمنا إلى أن الكيان الواحد في الأمة و في الشعب الجزائري ، قوامه الإسلام و أساسه العروبة ، إذ يعتبران « عملة الهوية الوطنية و لا ثالث لهما . »¹ .

03 - التربية و التعليم :

لقد طرق الشاعر في هذا الباب مضمونا تربويا ، يوسم اتجاهه الدعوة إلى تعليم الأبناء في فترة خلف فيها الاستعمار مساحات مظلمة من الجهل ، إذ لا ينكر أحد منا تلك النسب المربعة من عدد الأميين في صفوف الشعب بعد الاستقلال ، وقد استرعى ذلك الواقع نظر الشاعر و هو من شبّ و شاب في هذا الميدان الجليل ، لهذا نجد معظم قصائده قد نظمها في الفترة ما بعد الاستقلال باستثناء ثلاث منها ، و قارئها يدرك أن كلا منها كانت تروي محطة من محطات حياته المهنية ، نظمها إثر حادثة أثرت في نفسه كقصيدة " منظر الشبيبة " ، و " يوم الدخول " ، أو بمناسبة تربوية على إثر انعقاد المؤتمرات التربوية و الملتقيات كما في قسنطينة ، وتلمسان و غيرهما من المناسبات التي كانت في كل مرة تستفز قريحة الشاعر لينشر من درره قصائد طوالا أو مقطوعات قصارا .

و أول ما نظمه الشاعر في هذا السياق كان عام 1953 ، كان في عز شبابه و الثورة في مخاضها ، حث الفتاة الجزائرية على إعلان ثورتها على مستعمر اسمه الجهل و تطرق باب التعليم لتبني أجيال الشعب تحت أنوار العلم :

يا بنتُ يا أملُ البلادِ تعلّمي وتبسمي بلوامعِ الأنوارِ

إنَّ اجتِهادكِ بالعلومِ فضلةٌ هيَ عندنا للبتِ أجملُ غارِ

إذ أنتِ مدرّسةٌ لشعبٍ كاملٍ متخبطٍ في أبشعِ استعمارٍ²

وكان بذلك أول ما نظمه داعيا فيه إلى الأخذ « بالعلم و الحضارة ، و تحرير المرأة و تعليمها و الاهتمام بالثقافة و التجدد . »¹ ، و في المقابل يوجه نفس النداء إلى الشباب ، و ينبه الفتى إلى

1 - د. عثمان سعدي - عروبة الجزائر - ص 119 .

2 - ابن القاضي - الديوان - ص 167 .

الواجب الوطني الذي يحتم عليه أن يتسلح بسلاح العلم ، ويتجنب أسباب اللهو ، عليه أن يجيل نظره فيمن سبقه ، و يأخذ العبرة من حياة الشعوب و الحضارات ، و يغنم الدنيا في كسب فائدة العلم :

أيها الطالبُ قمِ ناجِ العلا فوقَ وَجهِ الأرضِ أَوْ فوقَ الشَّهَابِ

وَاجعلْ الأخلاقَ مفتاحًا فكمْ فتحتْ للمجدِ بابا إثرَ بابْ

فالتفتْ حولكَ واسمعْ واستفدْ واعتبرْ ممنْ غداً تحتَ الترابِ

وَاجنِ مِنْ كُلِّ جيلٍ عِبْرَةً إِنَّ فِي العِبْرَةِ خيرًا للشبابِ²

والشباب في كل أمة هم معقد آمالها ، وذخرها و ثروتها الحيوية ، وهم طاقاتها المتدفقة ، تعقد عليهم الآمال في رسم غد جميل و مشرق ، وتشرب إليهم الأعناق كي يكونوا أسودا لحمى الدين و العروبة ، يقول الشاعر مستفزا هذه الطاقة كي تنفجر ، و تبني المجد و المفاخر :

الشعبُ منتظرٌ لسعيكَ فانتَهزْ فرصَ الشبيبةِ قبلَ أن تتقهقرا

وَالضادُ محتاجٌ لجدِّكَ فاجتهدْ لتعيدهُ ألهى اللغاتِ وَ أهدرا

وَالدَّينُ مشتاقٌ إلى الزَّمنِ الَّذي قدْ كانَ فيه على الرِّذائلِ مشتهرا

فانهضْ عساکَ ترُدُّ مجدًا فاحرًا وَتشيدُ آخرَ للجزائرِ أفخرًا³

أما في باقي القصائد التي نظمها الشاعر في هذا المضمون فقد كانت شعرا أنشده الشاعر بمناسبة انعقاد ملتقيات تربوية بمدينة قسنطينة ، و كانت فحوى هذه القصائد ، إما إشادة بجهود المعلمين و الأساتذة في ميدان التعليم و التربية ، و إما افتخارا بقلعة العلوم و الإسلام مدينة قسنطينة ، و إلى جانب ذلك

1- د. علي عباس علوان - دور الأدب في الوحدة العربية - ينظر الندوة الفكرية - ص 268 .

2 - ابن القاضي - الديوان - ص 169 .

3- المصدر نفسه - ص 171 .

حاول أن يعطي صورة بينها و بين تلمسان ، وكأنها قطبان ينيران البلاد شرقا و غربا بعلومها و أدبها
يقول مرحبا برفاق التعليم في ملتقى بقسنطينة سنة 1963 :

فأهلاً وَسَهلاً بِالرِّفَاقِ وَمَرْحَباً بِيَوْمٍ نَرَى فِيهِ الْوِفَاقَ يَوْثُقُ
فهذهي جموعٌ للعلومِ تجندتْ وَقَدْ رَفَعَتْ أَقْلَامَهَا وَهِيَ تَبْرِقُ
فسيرُوا إلى التعليمِ متتدي الخطا ففي مهنةِ التعليمِ نصرٌ محققٌ¹

و نظم قصيدة أخرى بمناسبة بداية أشغال بناء كلية العلوم بقسنطينة و هي خطوة اهتز لها قلب
الشاعر فرحا ، و بارك مسعاها ، يقول :

مستقبلُ الأممِ العظيمةِ سرُّه في جامعاتِ شعوبها موجودُ
وَ الجامعاتُ أساسهنَّ مدارسُ تبني الجزائرُ رُكنها وَ تشيدُ²

ومع أن الشاعر يدعو الشباب إلى التسلح بدرس القرآن و الحديث ، فإنه يحثهم على تدارس علوم
العصر و إدراك ما أدركته الأمم الغربية و هي تصول و تجول بروادها في رحب الفضاء :

أقبلُ على علمِ الزَّمانِ فإنه علمٌ أتى بالمعجزاتِ مفيدُ
إنَّ السماءَ معَ الأراضِي أَصْبَحَتْ ميدانهُ أَفَانَتْ عنه تحيدُ ؟
قد نالَ منه الرُّوسُ قسْطاً وَافراً إذْ أَرْسَلُوا وَفداً تلتَهُ وَفودُ
وَ أميرِكا نسجتْ على منوالها يعتزُّ كلُّ منهما وَ يَزِيدُ³

و الشاعر مقبل على انتهاء مهامه في مدينة قسنطينة ، تقام له حفلة وداع فيها كل زملاء الدرب ، و
نظم قصيدة بالمناسبة يقول في مطلعها :

1- المصدر السابق - ص 173 ، 174 .

2 - ابن القاضي - الديوان - ص 178 .

3 - المصدر نفسه - ص 179 .

إِلَيْكُمْ وَإِنْ جَارَتْ نَوَى قِبَلَاتِي وَبَاقَةَ أَزْهَارٍ إِلَى الْأَخَوَاتِ
سَلَامٌ عَلَيْكُمْ مِنْ فُؤَادٍ مَعَذٍ يَحْيِيكُمْ بِالدَّمْعِ وَالْحَسْرَاتِ
يَعُزُّ عَلَيْهِ أَنْ يَفَارِقَ إِخْوَةً لِقَاؤُهُمْ مِنْ أَجْمَلِ اللَّحْظَاتِ¹

ثم يسترسل في استرجاع الذكريات التي مضت مع زملائه في ميدان التربية ، و يتغنى بجمال قسنطينة التي فتحت أحضانها له طوال تلك المدة ، قم يستسلم لقدره الذي سيفرقه عن صحبه ، لكنه فراق مؤقت في نظره ، و أن الذكرى ستبقى في قلبه مادام هذا القلب ينبض بالحياة :

فَوَاحِرَّ قَلْبَاهُ سَوْفَ أتركُ بِلَدَتِي وَصَحِي وَإِخْوَانِي مَعَ الْأَخَوَاتِ
سَأَذْكُرْكُمْ مَا دُمْتُ حَيًّا لِأَنَّهُ فَرَّاقُ حَيَاةٍ لَا فَرَّاقُ مَمَاتٍ
فِيَا لَيْتَنِي أَحْضَى بَلْقِيَاكُمْ الَّتِي تَخَفُّ عَنِي الْوَجْدَ بِالْبَسَمَاتِ
وَدَاعَا وَلَكِنْ لَا أُرِيدُ وَدَاعَكُمْ فَمَا أَصْعَبَ الْأَقْدَارَ وَالرَّمِيَاتِ²

04 - الطبيعة :

لقد كانت الطبيعة منذ القدم ، مصدر إلهام للشعراء على اختلاف مذاهبهم ، لأنها كانت تمثل ميدانا من أخصب الميادين لنجاح و « نمو العواطف الإنسانية ، و موضوعا أكثر ملائمة للأسلوب القوي الصريح . »³ ، ولعل هذا النوع من الشعر يعن بجمال الطبيعة وما تشمله من مظاهر و تعني « شيتين : الحي مما عدا الإنسان ، و الصامت كالحدايق و الغابات و غيرها . »⁴ .

1 - المصدر السابق - ص 187 .

2- المصدر نفسه - ص 190 .

3- سيد نوفل - شعر الطبيعة في الأدب العربي - مكتبة الغانجي القاهرة - مصر - 1945 - ص 6

4 - د. جودت الركابي - في الأدب الأندلسي - دار المعارف - 1966 - ص 125 .

واختلف الشعراء في تناول هذا المضمون في أشعارهم ، فأحيانا تكون الطبيعة ماثلة في « طائفة من الأغراض ، بفكرة مستقلة عما يسبقها أو يتلوها ، [وأحيانا تأتي صورتها] مقتضبة من أجل توضيح فكرة أو تقديمها في صورة بيانية . »¹ .

و التغني بطبيعة الجزائر عادة كل شعرائها ، فراحوا « يدفنون فيها أحزانهم و يشيدون بها ، و بجمالها ، ... ، و لكنه حب يترع إلى الإشادة بالوطن وتقديسه فهي وطنية رومانسية . »² .

و مع هذا فإن ما نظمه الشاعر في هذا الديوان عن الطبيعة - قياسا بشعره في الوطن ، الإسلام و العروبة - يعد شيئا قليلا ، ومن أروع ما قال في هذا الميدان مناجاته للبدر ، و حوار مع الليل ، ونظم أنشودة للأطفال وذلك حسب قوله في سياق « مشاركته في تكوين مجموعة أدبية تختص بأدب الأطفال . »³ ، بالإضافة إلى ترجمة قصيدتين من الأدب الأجنبي ، و ذلك بلغة سليمة يخيل لقارئها لأول وهلة أنها نتاجه الخاص .

يجد الشاعر متنفسا عن أحزانه ، و هو يناجي القمر ، يشخصه إنسانا أمام عينيه ، وهذا الشخص محبوب إلى نفس الشاعر ، يثبه أشواقه ، ويحن إليه في عليائه ، حتى أن دمه يخونه فتنسب عبراته من جفاء هذا المحبوب :

يا بدرُ مالكَ في الفضا تتألقُ وَ نَسِيتَ مِنْ فَوْقَ الشَّرَى يَتَشَوَّقُ ؟

يا بدرُ مالكَ لَمْ تَجِبْ أَنَاتِ مِنْ يَشْكُو إِلَيْكَ وَدَمْعُهُ يَتَرَقَّرُ ؟

مالي أراكَ تتيهُ بينَ كواكبٍ تزهُو السماءُ بحسنها وَتَنَمُّ ؟

1 - د. أحمد فلاق عروات - تطور شعر الطبيعة بين الجاهلية و الإسلام - ديوان المطبوعات الجامعية - بن عكنون الجزائر - ص 111 .

2 - د. عبد الله الركبي - الشعر الديني الجزائري الحديث - ص 652 .

3 - ابن القاضي - الديوان - ص 204 .

وَتَرَكْتَنِي فَوْقَ الثَّرَى مَتَمَلِّمًا¹ أَرْنُو إِلَيْكَ إِلَى الصَّبَاحِ وَاعْنَقُ !¹

إِنِّي أَرَاكَ تَشِيرُ لِي بِأَشْعَةٍ فَضِيَّةٌ بِيَدَيْ حَسَنِكَ تَنْطَقُ

و المتمعن في هذه الأبيات يحس بأن الشاعر قد مر بتجربة وجدانية - ربما قاسية - جعلته يسقط الطرف الثاني في هذه التجربة على هذا البدر ، لأنه يتوق إلى اللقاء ولم الشمل بعد طول البعد و الفراق و هذا يؤكد قوله :

لَا لَوْمْ يَا صَحْبِي عَلَيَّ فَإِنَّمَا بَدْرِي مَضَى وَبَقِيَتْ وَحْدِي أَرْمَقُ

يَا لَيْتَ شَعْرِي هَلْ أَرَاكَ بِمَقْلَتِي؟ فإلى متى هذا الفراقُ يَفْرَقُ؟

فَيَكُونُ يَوْمٌ لِقَائِنَا عِيدًا لَنَا وَيَكُونُ بَدْرُ سُرُورِنَا يَتَأَلَّقُ²

ويتواصل هذا الأئين عبر الأبيات ، و إذا بالشاعر يبحث عن مؤنس آخر ، فإذا كان النهار محطة يحمل منها الشاعر من أنواع الهموم ما يحمل ، فإن الليل رجاءه الذي يخفف عنه الأعباء ، إذ هو الرُّوحُ الذي يحمل في نسائمه ذلك الهدوء و السكينة التي ينشدها الشاعر :

يَا لَيْلُ إِنَّكَ مُؤَنَسِي وَ سَمِيرِي وَ مَخْفَفُ يَا لَيْلُ وَجَدَ ضَمِيرِي

فإذا النهارُ جنى عَلَيَّ بِهِمِهِ فإلطالما يَا لَيْلُ كُنْتَ نَصِيرِي

عَبَثَ النَّسِيمُ بِكُلِّ غَصْنٍ نَاشِرًا فِي جَوْكَ الْهَادِي عَبِيرَ زُهْورِ

وَهَمَّتْ مِيَاهُ فِي الْمَرْوَجِ كَأَنَّهَا تَبْرُّ تَلَأْلَأَ فِي ثِيَابِ حَرِيرِ

وَ سَقَتْ نَجُومَكَ وَهِيَ فِي عَلَيَّائِهَا فَتَبَسَّمَتْ وَتَرَنَمَتْ بِخَرِيرِ

كَمْ أَرْسَلَ الشُّعْرَاءُ فِيكَ لِحْوَنَهُمْ مَتَشَوِّفِينَ لِحَسَنِكَ الْمَأْثُورِ¹

1- المصدر السابق - ص 199 .

2 - المصدر نفسه - ص 199 ، 200 .

ومن أجمل مظاهر الطبيعة التي تغنى الشاعر بجمالها ، و ترنم بأذيال حسننها ، فصل الربيع الذي ملك عليه و على كل الشعراء تقريبا جادة شعرهم :

يا أيها الفصلُ الجميلُ ! أجتئنا بنضارةٍ وترنمٍ و عطورٍ ؟

ويعزفُ أنسامُ الصباحِ و طيبتها وشدى الورودِ و نغمةِ العصفورِ

وتمورِدُ يروي الأمانى منعشٍ و بمشهدٍ يسبي العقولَ نصيرِ

و بيسمةِ الأملِ الرضيعِ وبالمنى و بعيدِ أفراحٍ و موسمِ نورٍ²

و يصف أيضا مظهرها من مظاهر الربيع في قصيدته التي ترجمها عن " موريس كاريم " ، وذلك بهدف تحبيب اللغة العربية إلى قلوب تلاميذه :

أما رأيتَ زهرةَ الأقاحي ؟

تضحكُ بينَ خضرةِ الوشاحِ

إذا رأتَ بنتا من الملاحِ

تومئُ نحوها بوجهٍ صاحٍ³

و يقول في أنشودته إلى الأطفال ، والتي كانت بداية المشروع لم يكتب له أن يكتمل في قسنطينة ، عن الفراشة و التي كانت تعد من أبهى رموز الربيع و أكثرها حيوية :

ترقصُ كالشعاعِ في خضرةِ المراعي

كأنها قطرُ الندى في نورهِ اللماحِ

1 - المصدر السابق - ص 245 ، 246 .

2- المصدر نفسه - ص 247 .

3 - ابن القاضي - الديوان - ص 201 .

بلونها البديع

ترسم للربيع

في عرشها الرفيع¹

كأنها أميرة

و يطيب لي أن أختتم أشعاره في الربيع بمقطع آخر مترجم عن " نشيد الفرح " للموسيقار المشهور
بتهوفن على الطريقة الحرة :

ما أحلى أحلام الفجر! أصفى تبر في الفضاء!

غمرت عيني بالضياء! عهد من عهد الأجداد

ما أبهاها شمساً تدرى! قدسي من وحيهم²

وعلى العموم فبالرغم أن شعره لم يكن بكثرته كما في الأغراض السابقة ، إلا أننا نستطيع أن نقول ،
إنه نقل إلينا درجة معينة من تجربته الشعرية في هذا الميدان ، و إن لم يكن « بالغا في الجودة و الجمال
كما في غيره ، إلا أنه لا يستهان به ، و لن ينقص أحد من مكانته التي يحتلها بين أشعار البقية »³ ،
كما أن عامل الظروف المعيشية أو حتى الفكرية ، التي ساهمت في تشكل حسه الإبداعي ، و تكاثف
رواسبه الفنية ربما لم يسعفه ولو كان له ولأمثاله ذلك « لأتوا بما يضاهي شعر المشاركة والمغاربة في
هذا المضمار . »⁴ ، ولا ينكر عليه أحد أنه استطاع كما استطاع غيره أن يصادق الليل ، و يناجي
قمره ، ويسامر نجومه ، ويرسم ابتسامة الفجر على ثغر الوليد ، وينقل بهجة الحياة و فرحها في ربيع
أيامها .

1 - المصدر السابق - ص 203 ، 204 .

2- المصدر نفسه - ص 205 .

3 - د. أحمد بن ذياب - صحائف من التراث - المؤسسة الوطنية للكتاب - 3 شارع زيغود يوسف - الجزائر 1990 - ص
181 .

4 - د . محمد الطمار - تاريخ الأدب الجزائري - ص 425 .

05 - شعر الإخوانيات :

شعر الإخوانيات من الفنون التي عرفها الشعر العربي منذ القدم ، و قد كان ينظم على شكل مقطوعات ، أو حتى قصائد مطولة ، أما اهتمام الشعراء بهذا الفن يعود لكونه البوابة الوحيدة التي من خلالها تنبثق المشاعر الإنسانية من شخص إلى شخص آخر يقربه مهما كانت هذه القربى ، و قد تكون هذه الإخوانيات عبارة عن « تعزية ، أو عتاب ، أو شوق أو مراسلات عادية ، وكل ذلك لربط أواصر القربى ووشائجها ، و المحافظة على أصول الإخاء ، و تمتين دعائم العلاقات الأخوية . »¹.

أما من الناحية الوجدانية ، فشعر الإخوانيات أساسا شعر وُجد ليسوق ذلك الفيض من الأحاسيس النابعة من صميم الفؤاد ، ذلك لأنها « حديث القلب للقلب ، وهمسات الحب للمحبوب ، فيها يغيب الكبر ، و يصغر التعالي ، و تشمخ المحبة ، و الثقة ، و يتألق عطاء النفس . »².

و أول ما نظمته الشاعرة في الإخوانيات كان في عام 1945 في مدينة باتنة ، ضمنها اشتياقه لرؤية صديقه ، ولحفته إلى لقاءه ، وكانت هذه البداية مسيرة لنظم عدة قصائد كانت تدور حول أغراض التهنية بمناسبات عديدة ، و لأشخاص مختلفين ستعرض لأمثلة منها ، يقول في أول ما نظم :

يا جوابا قد نيطَ فيكَ الرَّجاءُ وَلَتَكُنْ فيكَ رَحمةٌ وَشفاءُ

ليتَ شعري متى أَلقيَ صديقي يا إلهي هلْ يلتقي الأصدقاءُ

فسلامٌ على الأُحبةِ يلقي وَ هُنا ما طالتِ الآناءُ³

و يبعث بتهنية زفاف إلى صديقه ، و يوصيه خيرا بزوجه ، و يدعو الله أن يبارك لهما ، و بينهما:

عاملِ الزَّوْجَ بالحنانِ وَ باللطفِ كما عوملتُ بهِ حواءُ

1 - محمد زغبنة - شعر السجون و المعتقلات في الجزائر 1954 - 1962 - رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير - إشراف

د. العربي دحو - جامعة باتنة - السنة الجامعية 1989 - 1990م ، 1409 - 1410هـ - ص 74 .

2 - إنعام الجندي - دراسات في الأدب العربي - دار الأندلس - ط2 1967 - ص 209 .

3 - ابن القاضي - الديوان - ص 209 .

أَنْتَ وَالزَّوْجُ فِي الْكِتَابِ لِبَاسٌ قُدْسِيَّ وَرَحْمَةً وَوَقَاءُ

بَارَكَ اللَّهُ فِي قِرَانِكَ يَا خَلُّ وَسَرَّتْكَ بَعْدَهُ الْأَنْبِيَاءُ¹

و يبعث بعيدية* إلى أستاذه و أبيه الروحي كما يقول محمد العيد آل خليفة ، يعيقها بأشواقه إليه ،
ومعطرة بآماله في لقائه من جديد ، لأنه عودة الشيخ أشبه بميلاد صبح بعد دجى ليل طويل :

إِحْمَلِي يَا نَسْمَةَ الْعِيدِ سَلامًا وَتَحِيَّاتٍ وَأَشْوَاقًا عَظَامًا

إِحْمَلِيهَا لِأَبِي الرُّوحِ الَّذِي دَامَ يَسْقِي بِالْمَنَى الْقَلْبَ الْحُطَامَا

وَإِذَا أَبَتْ اتْرُكِي فِي بَيْتِهِ ذَلِكَ الطَّيِّبَ الَّذِي يُحْيِي الْعَظَامَا

عَدُّ إِلَيْنَا بِصَبَاحٍ مَشْرِقٍ قَدْ مَلَلْنَا أَيُّهَا الْعِيدُ الظَّلَامَا²

ولقد ورد الرد من الشيخ محمد العيد إلى تلميذه وضمها الديوان في صفحاته كانت معاني تحمل معاني
العرفان ، و تفيض بأحاسيس المحبة إلى طالبه الذي يتشوق لعودته ، و يدعو إلى التصبر على اللقاء
يكون قريبا ، والجوجو ثقافة ، فالشاعر من دعاة بعث الثقافة ، وهو من أهل التربية و التعليم ، وكان
أن صار صديقه و رفيقه " عبد الحميد مهري " على رأس هذه الوزارة فأنشد يهنئه هذه الأبيات من
قصيدة طويلة :

أَحْيِيكَ يَا عَبْدَ الْحَمْدِ تَحِيَّةً مَبَارَكَةً الْأَنْفَاسِ طَيِّبَةِ الْعَطْرِ

نَهْنِيكَ بَلْ إِنَّا نَهْنِي نَفُوسَنَا نَبْنِي الْحَمَى كُلَّ الْحَمَى بِكَ يَا مَهْرِي

وَوَفَّقَكَ الرَّحْمَنُ فِي كُلِّ خَطْوَةٍ خَطُوتَ وَتَخَطُّوْهَا عَلَى الْيَمَنِ وَالْيُسْرِ

فَإِنَّا عَلَى عَهْدٍ بِكُلِّ قَلُوبِنَا كَمَا كَانَتْ الْأَيَّامُ فِي أَوَّلِ الْأَمْرِ³

1 - المصدر سابق - ص 215 .

2 - ابن القاضي - الديوان - ص 219 .

3 - المصدر نفسه - ص 229 .

وعلى العموم فإن شعر الإخوانيات في ديوان ابن القاضي قصائد أو مقطوعات نظمها الشاعر لمناسبات معينة كتهنئة لأصدقاء أو زملاء في ميدان الكفاح التربوي و الثقافي ، و إما وفاء و عرفانا بالجميل كما فعل مع معلمه محمد العيد ، و ليست تمثل سوى زاوية من زوايا حياة الشاعر ، أو محطة من محطات مشواره العملي ، و لكنه كان من خلالها يبعث برسالة فحواها أن الإنسان لابد أن يكون اجتماعيا في علاقاته ، و يسعى في كل حين إلى توطيد و شائج القرى ، و يسمو عن المصالح المادية ، لأن الإنسان بأخيه الإنسان قريبا ، و صديقا ، و زميلا ، و ما هذه القصائد إلا جسور للتواصل الودي و العطاء من أجل إثراء هذه العلائق مع كل هؤلاء .

06- الرثاء :

يأتي الرثاء في الشعر العربي مرادفا لمعنى البكاء و الحزن على فقدان شخص عزيز ، فهو من « أصدق العواطف الإنسانية و أخلدها على مر الدهور ، و كر العصور ، ... ، لأنه يخاطب عزيزا فارق الحياة أو ملكا كان ملء السمع و البصر ، أو دارا دارت عليها عوادي الزمن . »¹ ، وهو من الأغراض التي لا تخلو دواوين الشعراء في أغلبهم منه ، فطالما بكوا « من رحلوا عن دنياهم و سبقوهم إلى الدار الآخرة ، وهو بكاء يتعمق في القدم منذ وجد الإنسان ، و وجد أمامه هذا المصير المحزن مصير الموت و الفناء . »² .

وقارئ قصائد ابن القاضي أو بالأحرى مراثيه يجدها تركزت على أشخاص معينين ، أول هؤلاء الإمام العلامة عبد الحميد ابن باديس رحمه الله ، ولقد رثاه بقصيدة في إحياء ذكره عام 1950 ، كرمته بها جمعية العلماء و نشرها في بصائرهما ، فهو يبكي الشيخ على لسان شعبه الذي لا يزال يئن تحت وطأة المستعمر :

خبروني من الذي قاد شعري نحو لحدٍ هناك بين اللحد

1 - د. محمود حسن أبو ناجي - الرثاء في الشعر العربي - منشورات دار مكتبة الحياة لبنان - ط2 - 1402 هـ - ص 11

2 - د. شوقي ضيف - الرثاء - دار المعارف - ط3 - 1979 - ص 5 .

لستُ أدري رُحماكمُ خبرُوني أشعوري أم رُوحُ عبدِ الحميدِ

إيه يا لحدُ جئتُ قُربكُ أشكو ما بشعي من البلاءِ الشديدِ

جئتُ أبكي معَ الجزائرِ يا لحدُ بكاءً على تراثِ الجدودِ¹

ولعل أكثر الأشخاص الذين سالت مدامعه على فقدهم ، وتقطع قلبه حسرة على غيابه هو أمه ، ويشفع لقولنا أنه ضمن ديوانه ثلاث قصائد في رثائها وقد يعود ذلك إلى بالغ الأثر الذي تركه فقدانها في قلبه ، يقول واصفا هذه المعاناة :

يا هائما في الليل ينشدُ نجمةً بين النجوم وضيئةً للمحات

أومالقيت مفتشا عن زهرة بين الزهور شذئة النفحات

فلقد تصدّع قلبه لفراقها و فراقها ألمٌ بغير أساة²

ثم يمضي يشيد بمحاسنها وتفانيها في أداء أمومتها اتجاه أبنائها ، وواجبها اتجاه وطنها :

أماهُ كنتِ ولكنْ تَزَالِي هالَةً هيَ عندنا منْ أسطعِ الهالاتِ !

أتقنتِ دَوْرَكَ في الحياةِ فأصبحتِ تثني عليكِ بأجملِ الأبياتِ

مثلتِ أخلاقَ الأمومةِ بالهوى والصبرِ والآمالِ والحسناتِ

وقضيتِ عُمُرَكَ في الكِفاحِ وفي الفِداِ وكلاهما منْ أعظمِ اللذاتِ³

أما في رثاء الصديق ، فيقول راثيا صديقه و زميله مات و الغصن غض و الفتوة في قمته :

لهفي على ذاك الشابِ وحسنه عصفتُ على غصنِ الشابِ رياحُ

1 - ابن القاضي - الديوان - ص 223 .

2- المصدر نفسه - ص 241 .

3- ابن القاضي - الديوان - ص 242 .

فَنَحْطَمْتُ أَزْهَارَهُ وَتَسَاقَطْتُ
وَ الطَّلُّ طُلَّ وَ الصَّبَاحُ صَبَاحُ
وَهَوَتْ مَعَ الْأَحْلَامِ آمَالُ كَمَا
تَهْوِي الطُّيُورُ إِذَا أُصِيبَ جَنَاحُ¹

وفي تأمله لمسألة الموت و الحياة ، يدرك الشاعر أنه مهما أبحر و غاص و فكر و دبر فلا بد له من تثبيت
إيمانه و العودة إلى الله و اللجوء إليه ، لأن الأمر مفروض و قضاء محتوم :

يَا لَيْلُ أَنْتَ مَعَ الْفُؤَادِ كَمَا أَرَى بَحْرَانِ وَسَعَهُمَا بَدُونِ نَظِيرِ
وَالرُّوحُ بَيْنَكُمَا يَجُولُ بِزَوْرَقٍ مُسْتَرْشِدًا بِمَنَائِرِ التَّفْكِيرِ
مَلَا حُهُ الْإِيمَانُ يَهْدِي سِيرَهُ وَيَقِيهِ مِنْ غَرَقٍ وَصَدْمِ صَخُورِ
وَإِذَا اسْتَعَاثَ لَدَى الْمَخَافِ وَالرَّدَى مُسْتَنْجِدًا بِمُسَاعَدِ وَنَصِيرِ
لَحْظَتُهُ مِنْ لَدُنِ الْإِلَهِ عَنَايَةً² وَ هَدَتْ سَفِينَتُهُ خَيْرَ مَصِيرِ³

وقد شق معظم الشعراء بحر التفكير في الموت و الحياة ، لكن النتيجة دوما واحدة ، هي العودة إلى الله
و الاحتماء بحماه ، خاصة حين « يتعمق التفكير في الموت ، وأن كأسه دائرة على كل حي ، و أن
العقل من كف نفسه عن اللهو ودواعيه ، و أخلص لربه تائبا مما قدم من ذنوبه . »³ .

هكذا كانت عاطفة الشاعر مثالة متأمة على فقد الأم الغالية ، والشيخ حامل راية العلم ، و
على الصديق ، وعلى الإنسانية كافة ، كانت عبرته تسيل دافئة ، تحمل معها أنات قلب حزين ،
وزفرات صدر مهزوم ، لكنه في الأخير يرتاح إلى قضاء محتوم من عند الله .

1- المصدر سابق - ص 239 .

2 - المصدر نفسه - ص 248 .

3- د. شوقي ضيف - البارودي رائد الشعر الحديث - دار المعارف - ط4 - 1981 - ص 92 ، 93 .

إن الإنسان مفطور على المحبة ، و الاستئناس بأهله و أحبابه ، و تطيب له الحياة وسطهم ، كما أنه يرتبط بالأرض التي ولد و شبَّ فيها ارتباطاً روحياً وثيقاً ، و لا تتجلى قوة هذا الارتباط إلا حين تفرض عليه ظروف الحياة أن يتعد عن هذه الأرض و عن هؤلاء الأحباب ، و تطول به سنين البعاد ، فيحن إلى ربوع الطفولة ، و إلى زمن الماضي ، و تصبح روحه طيفاً ينتقل بين هذه الأزمنة ، و بين هذه الأماكن ، فتراه « دائماً التشوق ، يعيش هنا و يحن إلى هناك ، و يرنو إلى هنالك ، يعيش في الحاضر ، و يتشوق و يحن إلى الماضي و يأمل في المستقبل لأنه قبضة من تراب و نفحة من روح .»¹

و نجد من العطاء الفني لهذا الشاعر نزراً معتبراً في مضمون الحنين ، نظم أغلبه ، و هو بعيد عن أرض أجداده كما يقول ، و لا أعني هنا أنه عانى الغربة عن الوطن الأم ، ليس هذا إنما كان دائم الحنين و الشوق إلى بلدته التي ولد فيها و تربى بأحضانها " مدينة باتنة " :

جئتُ منْ بلدَةٍ هناكَ على سفحِ جبالٍ شذيةِ الأعشابِ

جئتُ أشكو إليكَ يا بحرُ ما بي بعدَ شكوايَ فوقَ كلِّ الروابي

وَجَرَتْ أَدْمَعِي وَها هيَ ذِي منكَ دُموعٌ رأيتها في انسكابِ

وَعَلْتُ زَفَرَتِي في هدأةِ الليلِ عِلْتُ منكَ زَفَرَةً في التهابِ²

ولعل المناسبات الدينية و الاجتماعية من الأسباب القوية التي أثارت في قلب الشاعر شجونه و أيقظت فيه حنيناً إلى تلك الأوقات التي يجتمع فيها كل الأهل و كل الأقارب ، يقول الشاعر و قد استبد به الشوق إلى الأهل و اليومُ يومُ عيد :

1 - د. محمد زغينة - شعر السجون و المعتقلات - ص 120

2 - ابن القاضي - الديوان - ص 265 .

أَلَا يَا عَيْدُ قَفِّ وَاسْمَعْ جَوَائِي لَعَلَّكَ تَسْتَطِيعُ شِفَاءَ مَا بِي

لَقَدْ زَفَّ الْفَوَادُ إِلَيْكَ قَدْماً تَهَانِيهِ بِالْحَنِّ عَذَابِ

فَأَيْنَ تَرَكْتَ أَزْهَارَ الْأُمَانِي أ فِي الْجَنَاتِ أَمْ تَحْتَ التَّرَابِ¹

ويرسم لنا صورة رائعة وهو يصف هذه البلدة التي تحفها الجبال من كل جانب و رياضها و رياحينها، جبالها و وهادها ، إنه يراها جنة من جنان الأرض وقد يتعمق هذا الشعور بجمال الموطن و يخلق مناظر و صور في مخيلته حتى ولو لم تكن فعلية على أرض الواقع :

هَنَّاكَ مَهْدُ الصَّبَا مَا زَالَ يَرْمُقُنِي هَنَّاكَ قَوْمٌ كَرَامٌ بَيْنَنَا رَحْمُ

هَنَّاكَ دُورٌ وَجَنَاتٌ مَعْطَرَةٌ تَزِينُهَا مِنْ جِبَالِ الْأَطْلَسِ الْقِمَمُ

هَنَّاكَ أَيْكَ وَ رَيْقُ بَيْنَهُ أَكْمُ خَصِيصَةٌ وَعَيُونٌ وَرْدُهَا شِيمُ

هَنَّاكَ طَيْرٌ وَأَزْهَارٌ مَفْتَحَةٌ وَجَدُولٌ تَحْتَ نَوْرِ الْبَدْرِ يَحْتَلُمُ

هَنَّاكَ قَصْرٌ بَدَالِي بَيْنَ أَوْدِيَةٍ أَيَّامَ كَانَتْ لَهُ الْأَيَّامُ تَبْتَسِمُ²

هذه الأبيات تحمل لنا بعدا وجدانيا بمدى عمق معاناة الشاعر و تبايرح آلام البعد تفتك به ، ونسمع أنينه في ترديد لفظة " هناك " التي تجمعنا نحس بما يحس الشاعر من حنين إلى هذا البعد الموجود "هناك".

و تبلغ للشاعر الرغبة الجامحة للعودة إلى زمن الماضي ، زمن الطفولة و الصبا حدا يجعله يتساءل : لم تتعلق روحه بهذا المقدار بزمن قد مضى و لن يعود ، لماذا تجعل منه كائنا أنهكه البحث عن هذا الماضي لدرجة أنه تفرَّد بذلك عن بقية الناس :

وَمَا لِرُوحِي لَا تَنْفِكُ هَائِمَةً مَجْتَازَةً ً بِجَنَاحِ الْحَلَمِ أَقْطَارًا

1 - المصدر السابق - ص 265 .

2 - المصدر نفسه - ص 269 .

عَطَشِي تَفْتَشُ عَنْ عَهْدٍ مَضَى وَقَضَى أَرْحَى عَلَيْهِ جَنَاحُ الدَّهْرِ أَسْتَارَا
لَمْ يَسْمَعْ الدَّهْرُ قَبْلِي مَنْ شَكَا وَبَكَى وَلَمْ يَرِقَّ لِحَالِ النَّاسِ مَقْدَارَا !
وَلَمْ يَرِقْ مَذْمَعَا يَوْمًا عَلَى أَحَدٍ وَلَا تَأَثَّرَ لِلدُّنْيَا وَلَا حَارَا ¹

وفي حنينه إلى عهد الآباء والأجداد الذين بنوا مجدا لآل ابن القاضي كما يقول ، فقد شب الشاعر في بيت علم و دين و فقه و كرم ، أبا عن جد ، وقد ذكر ذلك في قصيدته "سقى الله ذاك العهد" ² ، وقد تغنى فيها بخصال و محامد خمسة من أجداده مشيدا بمكارم أهل هذا البيت مفتخرا بهم :

أَعْهَدَ بَنِي الْقَاضِي تَشَوَّقَ قَلْبَنَا إِلَيْكَ وَكَمْ أَضْنَاهُ طَوْلُ ارْتِيَابِهِ
عَفَافٌ ، وَإِحْسَانٌ وَحِلْمٌ وَحِكْمَةٌ وَفَقَهُ وَأَشْعَارٌ ، بَكَتْ لَذِهَابِهِ

08- الحكمة و التأمل:

تأتي الحكمة من بين الموضوعات التي طرقها الشاعر في مضامين ديوانه ، وإذا أردنا إعطاء معنى لها فيمكن القول إنها تمثل « جانبا ضروريا من المرجعية الثقافية في حياة جميع الشعوب ، و تعتمد على الفكر النافذ القادر على استقراء التجارب ، و تجميع الحوادث المتشابهة ، ... ، و الولوج إلى حكمتها ، والمغزى الذي تشير إليه . » ³ .

أما التأمل فهو إجابة للنظر في كل أحوال الناس و الدنيا و الكون ، تتعدد مجالاته ابتداء « بالحياة البشرية ، و صروف الزمان ، وفي أسرار الكون و مصير الإنسان ، وفي القيم المثلى التي هي أساس التقدم و العمران . » ⁴ .

1 - المصدر السابق - ص 275 .

2 - المصدر نفسه - ص 261 ، 263 .

3 - د. محمد مصطفى أبو شوارب - جماليات النص الشعري - قراءة في أمالي القالي - دار الوفاء للطباعة و النشر - ط1 - 1 - 2005 - ص 69 .

4 - د. عبد العاطي شلي - فنون الأدب ، دراسة تطبيقية للشعر في عصوره المختلفة و المقال و القصة القصيرة - المكتب الجامعي الحديث - ط1 - 2005 - ص 17 .

وعلى هذا الأساس جاءت بعض قصائد الديوان في هذا المضمون ، وقد تأتي هذه الحكمة أو التأملات
مبثوثة في نتفة هذه الأبيات ، وع على سبيل المثال يتأمل صاحبنا حال قيم الفضيلة في المجتمع وما
آلت إليه :

إِنَّ الْفَضِيلَةَ تَبْكِي وَهِيَ سَائِرَةٌ¹ بَيْنَ الْعِبَادِ تَرَى مَنْ قَالَ : أَحْمَهَا
جَلُّ الْعِبَادِ مَضُوءًا مُسْتَهْزِئِينَ بِهَا لَا مَنْ يَخَاطِبُهَا لَا مَنْ يَدَانِيهَا
يَا رَبِّ مَنْ لِي بِمَنْ يَرِثُنِي لِأَدْمِعِهَا مِنْهُمْ وَمَنْ شَرُّ هَذَا الْوَقْتِ يَكْفِيهَا¹

و في مشهد تأملي آخر يصف الشاعر موقف الإنسان من الدنيا ، فالشاعر يرى هذا الإنسان تتجاذبه
المآسي و الأفراح ، يعيش ثنائية التناقض بملء إرادته ثنائية الدمة و الضحكة ، الحزن و الفرح ، ثنائية
اليأس و الأمل ، و الحيرة و اليقين ، المحبة و الكره ، و فوق هذا و ذاك فإن الإنسان يعيش و- رغما
عن انفه - ثنائية الموت و الحياة ، التي أسهده ، و شغلت حيز تفكيره منذ بداية وجوده ، وهذا كله
دائر في فلك هذه الحياة الذي يعتبر فيها الإنسان جرما صغيرا من أجرامها :

حَيَاةُ الْمَرْءِ فِي الدُّنْيَا لَسَرُّ مَالِهِ كَشْفُ¹
تَرَى الْأَفْرَاحَ وَ الْأَحْزَانَ دَوَمَا فَوْقَنَا تَهْفُو
تَرَى الْإِنْسَانَ حَيْرَانَ مِنْ الْأَشْجَانِ لَا يَغْفُو
شَكَا لِلدَّهْرِ أَوْصَابَا بَكَى وَ الدَّهْرُ لَا يَغْفُو
فَإِنْ نَحْنُ تَمَنِينَا فَمَنَا يَضْحَكُ الْحَتْفُ²

1 - ابن القاضي - الديوان - ص 285 .

2- المصدر السابق - ص 287 .

ومهما تاه الإنسان ، فلا بد أن يعثر على سبيله ، ولا بد أن يصل إلى الرشاد و اليقين و القناعة ، ذلك أن التسليم بحتمية سيرورة الوجود كما شاء الله و سطر هي المحطة التي تسلمه إلى بر الرؤية الصادقة لكل الإشكالات الفلسفية و الوجودية :

أنا حيرانُ بينَ يأسٍ و آمالٍ فمن لي بمن ينيّرُ ظلامي
لا تبينُ الحقائقُ اليومَ للفكرِ و للقلبِ رَغَمَ طولِ اهتمامي
سنةُ الله في الوجودِ فما يقضي سروري و ما يفيدُ اغتلامي
حاولَ العقلُ فهمها و فؤادي وهي فوقَ القلوبِ و الأفهام¹

ويصرح الشاعر بمذهبه في فلسفة الحياة ، و الذي ينطلق من مبدأ ديني عقائدي ، قوامه الإيمان بالله و رسوله و محبتهما محبة خالصة طاهرة ، و ما خاب محب أسكن قلبه هذا الحب :

إذا ما أردتُم مذهباً في حياتكم فلم أرَ غيرَ الحبِّ للمرءِ مذهباً
و ما الحبُّ حبُّ الفاسقينَ وإنما هو الحبُّ مهما بالعفافِ تطيبا
فبادرْ بحبِّ الله إن كنتَ مؤمناً لأنك إن أحببته لن تخيبا
ولا تكُ في يأسٍ فمن كانَ لائذاً به فازَ في الدارينِ شرقاً و مغرباً²

وفي تأمله مظاهر الحياة و الكون ، يرى في النجم هالة من القدسية تجعله يتزل هذا الكوكب الوضاء في رحب السماء مثلة لإنسان خاشع متأمل متعبد ، يحيل نظره في الناس و في أحوالهم :

وأتركُ عبادَ الله في صبواتهم كلُّ يراكِ و إذا يراكِ يطالبُ
هي ذي السعادةُ أن تكونَ مطالباً فإذا وقفتَ فأنتَ عبدٌ ذاهبُ

1- المصدر السابق - ص 289 .

2 - المصدر نفسه - ص 297 .

يا طارقاً لو عدتَ أخرى مرّةً قد لا تكون هنا وأنتَ تراقبُ
فانظرُ إذا ما قد رجعتَ لأرضنا ووجدتها والماء فيها ناضبُ
انظرُ إليها في مرورك سرعةً وتذكر الإنسان وهو يخاطبُ¹

وختاماً نصل ، من خلال هذه الجولة في مضامين ديوان ابن القاضي إلى :

أن الشاعر كان غزير النتائج خاصة فيما ضم الديوان من قصائد الشعر الوطني الحماسي الذي يسمى النشيد هذا اللون الذي ظهر بظهور الحركات الوطنية التحررية وحتى بعد الاستقلال ، لأنه يشيد بالكفاح كما يشيد بالعلم و النهضة ، كما استوقفنا ملحمة التي صورت مسيرة الجزائر لأجيال و أزمان متعاقبة ، وقد استهدف من خلالها الشخصيات البطولية في تاريخ الجزائر ، كما كان غرضه تتبع هذه الشخصية المعنوية العظيمة المتمثلة في أمة الجزائر العظيمة .

استفاض الشاعر أيضاً في نظم قصائد الروح القومية الداعية للإسلام و إحياء العروبة، وذلك حتى بعد الاستقلال، ودعا أيضاً إلى تنشئة الأجيال بثقافة متوازنة مع هذين المعيارين الأساسيين في تكوين هوية الشخصية الجزائرية.

أما باقي المضامين فلا تشكل مع ما سبق ذكره الشيء الموازي له ، وقد برز في بعض شعره طابع المناسباتية ، وهذا يعكس تفاعل الشاعر مع كل الأحداث المهمة التي يشهدها البلد .

وهنا يتبين لنا أن الشاعر نهل من مناهل الشعر العربي الفصيح تراثه وحديثه ، وتأثر بالسابقين القدامى ، و بمعاصريه ، وبخاصة شيخه محمد العيد آل خليفة ، وهذا ما سنفصل الحديث عنه في الفصل القادم إن شاء الله .

1 - المصدر السابق- ص 209 ، و القصيدة ترجمة لقصيدة أصلية باللغة الفرنسية للسيدة " أكرمان " ينظر الديوان - ص 311

الفصل الثالث

الخصائص الفنية في ديوان بوابات النور لابن القاضي .

01 – اللغة الشعرية : - 1 / الألفاظ :

أ- السهولة

ب- الفخامة والجزالة

ج - التقريرية والمباشرة

د - النبرة الخطابية : 1 - من ناحية الضمائر

2 - من ناحية الأفعال

2 / التراكيب اللغوية :

أ - كثرة استعمال الجمل الاسمية

ب - القوالب اللغوية الجاهزة

ج - الختام بالدعاء

3 / الأساليب :

أ - أسلوب الحوار

ب - أسلوب الخبر

ج - أسلوب الإنشاء : 1 - النداء

2 - الأمر

3 - الاستفهام

4 / الموسوعة اللغوية للديوان :

01 / لغة القرآن والقصص القرآني

02/ الشعر العربي

03/ معجم الحياة وروح العصر

04/ التاريخ الإنساني والحضاري

02- الصورة الشعرية :-

1/ الصورة الكلية : 01- الصورة البصرية

02- الصورة السمعية

03- الصورة الشمسية

الصورة بين التشخيص والتجسيد

2/ الصورة البلاغية (الجزئية) : أ - التشبيه

ب - الاستعارة

ج - الكناية

03 - الموسيقى الشعرية :-

1/ الموسيقى الخارجية : أ - الأوزان

ب - القافية : * حروف الروي في الديوان

* القافية المطلقة والمقيدة

2/ الموسيقى الداخلية : أ - التصريح

ب - التكرار : 1- تكرار الحروف

2- تكرار الألفاظ

3- تكرار الجمل

ج - الترصيع

د - الجناس

وقفت الدراسة في الفصل السابق على نختلف المضامين التي طرقها الشاعر " عبد القادر بن القاضي " في جنبات ديوانه ، وإجمالاً يمكن القول إن الشاعر تعرض لمختلف المواضيع التي كانت ذات أهمية وألوية في الطرح آنذاك ، ومن خلال تتبع هذه المواضيع قد تصل الدراسة إلى أن الشاعر كان أشبه بفراشة تحلق بين مختلف تيارات الشعر العربي ، فأحياناً نُحِسُّه كلاسيكياً ينحو اتجاهها إحيائياً ، وأحياناً أخرى وجدانياً رومانسياً ، وأخرى طامحاً للتغيير والتجديد مع الحفاظ على الأصيل الذي درج عليه .

وإن هذا القول يسلم الدارس إلى نتيجة مفادها أن هذا التعدد في التلون قد يظهر في خصائص أسلوب الشاعر وطرقه الفنية في عرض تجربته الشعرية ، مع العلم ببعض الاختلافات الجوهرية التي تتميز بها كل من اللغة والصورة الشعرية ، وكذا التشكيل الموسيقي للديوان الشعري عبر مختلف تيارات الشعر العربي .

وسنفصل هنا الدراسة القول عن هذه الخصائص الفنية ونقاط قوتها، وضعفها، وحتى رتابتها، مع الأمل ألا تكون قد حَمَلَت النصوص فوق ما تطيق، أو قد تكون قصرت في بعض حقها.

01- اللغة الشعرية : تحظى اللغة بأهمية كبيرة في دراسة العمل الأدبي ، كونها أول ما نكون معه وجهها لوجه بمجرد الوقوف على هذا العمل ، وإذا كانت أول شيء يصادفنا فإن هذا يدل على أن التجربة الشعرية التي يريد الشاعر أن يثبها إلينا لاتصل إلا عن طريق هذه القناة ، هذا لأن « الحكم عليها لا يأتي إلا باستعراض الصورة اللفظية التي وردت فيها ، وبيان ما تنقله هذه الصورة إلينا من حقائق ومشاعر»¹

ولا شك أن اللغة تحتل مكاناً بارزاً لدى الشاعر ، كونها المادة الخام التي على أسسها يبنى هذا الصرح الشعري ، وكلما أدرك الشاعر كيف يستثمر خصائص هذه ، كانت صياغته أدق وبناءه الشعري أمتن لأن « تجربته ذات علاقة وثيقة باللغة ، بل أوثق من علاقة تجربة القاص ، أو مؤلف المسرحية ، وذلك لأن الشاعر يعتمد على ما في قوة التعبير من إيجاء بالمعاني في لغته التصويرية الخاصة به »²

1 . سيد قطب - النقد الأدبي - أصوله ومناهجه - دار الشروق - بيروت - ص 32 .

2 . د. محمد غنيمي هلال - النقد الأدبي الحديث - ط3 - دار النهضة العربية - القاهرة 1964 - ص 15

وتتوطد هذه العلاقة حتى أنها لتتجاوز معنى الاحتواء ، ويتعدى مفهومها حينئذ أن تكون « رداء للفكر أو قالباً له وإناء يحتويه ، وإنما تصبح الفكر نفسه مجسداً في ألفاظ لغوية»¹ .

وتمثل علاقة الاحتواء هذه جوهر مميزات اللغة الشعرية ، وتجعل منها خلقاً فنياً « يتشكل عبر نمط خاص من العلاقات التي يقيمها الشعر بين الجوهرين المكونين للغة ؛ وهما الدال والمدلول من جهة ، وبين المدلالات بعضها وبعض من جهة أخرى»²

وهذه العلاقات هي التي تحدد حياة الكلمات ، وتعيد إليها عملها الحقيقي المتمثل في « بناء الإدراكات والإحساسات ، وبعث النسق والنظام في هذا الإدراك ، مثل نظام الكلمات ، وطريقة توقف الجمل بعضها على بعض »³ ، ويتحدد هذا النظام فإن قيمة الألفاظ تتحدد وفقاً له ويصبح معناه غير محدد إلا « بمقدار ما يوحي به ، ويحدد هذه القيمة فيزيد في استحسانها أو استهجانها عند المتلقي معرض سياقها الذي يتكشف بانضمام اللفظ إلى اللفظ أو بعبارة أدق انضمام مضمونات الألفاظ بعضها إلى بعض »⁴

وهذا التعبير على المعنى هو الذي يحول اللغة أن تكون وسيلة الشاعر الأولى في «التعبير الدقيق عن التجربة ، إذ يتحتم عليه أن يستعمل هذه اللغة بالإشارة دائماً إلى المعنى والصدق .»⁵ ، ومن هنا يمكن أن نقول إن اللغة هي ما يضيف صبغة إنسانية على العمل الأدبي حيث هي التي « تعطيه شكله ، وتفتح الطريق أمام الذوق لاستيعاب حقيقة التعبير الفني ، وتفهم الإيحاءات التي لها قدرة على معانقة الإنسانية .»⁶ ، فالشاعر عندما يستخدم اللغة لا ليعبر عن واقعه الخارجي فحسب « بل ليعبر عن واقعه النفسي ، وما تختلج به نفسه من مشاعر وأحاسيس .»⁷ ، ولكي يستطيع عمل الشاعر الإبداعي أن يوصل إلينا هذا الدفع النفسي عليه أن يتعامل مع هذه اللغة وفق علاقات لغوية يخلقها

1.د.رجاء عيد - دراسات في لغة الشعر : رؤية نقدية - ط منشأة المعارف بالإسكندرية 1979 - ص 47

2.محمد مصطفى أبو شوارب - جماليات النص الشعري (قراءة في أمالي القالي - دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر - الإسكندرية - مصر - ط 1 - 2005 - ص 81

3.مصطفى ناصف - الصورة الأدبية - دار الأندلس - بيروت - ط 2 - 1981 - ص 138

4. بدوي طبانة - قضايا النقد الأدبي - دار المريح للنشر - الرياض - 1404 هـ - 1974 - ص 152

5.المصدر نفسه - ص 161

6.أحمد كمال زكي - النقد الأدبي الحديث - أصوله واتجاهاته - دار النهضة العربية للطباعة والنشر - بيروت - ص 145

7.شوقي ضيف - في النقد الأدبي - دار المعارف - القاهرة - ط 7 - ص 129

هو ، ويثبتها موهبته ، لأنه لا يبحث فيها « عما يرغب أن يقوله وحسب ، ولكنه يجب كذلك أن يذهب - أبعد من ذلك - إلى الإيحاءات الفنية خلال ذبذبات النفس ، باعتبار اللغة أداة تبليغ وتأثير في آن واحد »¹

وهذه الإيحاءات هي التي تجعل القارئ واقفا على حد وسط بين تعدد المعاني وكثرة احتمالات صدق هذه المعاني ، فيصبح النص منصبا في لغة حبلية بالدلالات التي تسلم القارئ إلى « تداخل في العلاقات، وتحولات في المعاني وكأنها مقاربة تخطو في رهافة على شفا المعنى ، حيث يتوافق الإعتام والنور ، ويترافق الغموض والوضوح ».²

وإذا كانت النصوص تسري في قوالب اللغة ، ومعانيها تأتي على حسب ما ألبست من حل لغوية ، كان جديرا على الشاعر « إيفاء كل معنى حظه من العبارة وإلباسه ، ما يشاكله من الألفاظ حتى يبرز في أحسن زي وأبهى صورة ، واجتناب ما يشييه من سفاسف الكلام وسخيف اللفظ ».³ وهنا تظهر ضرورة انتقاء الشاعر للغة ولفظه ، من أجل إيصال معناه بأجودها وأحسنها ، فمن « أراد معنى كريما فليتمس له لفظا كريما ، فإن حق المعنى الشريف اللفظ الشريف ، ومن حقهما أن تصونهما مما يفسدهما ويهجنهما ».⁴ ، والسبب في ذلك يعود إلى أن كلا من اللغة والمعنى لهما وقع ومكان في جانب ما من الإنسان ، وإن كان الوقع مختلفا فهو لا بد مرتبط ببعضه ، لأن الألفاظ « لا محالة تتبع المعاني في مواقعها ، فإذا وجب المعنى أن يكون أولا في النفس ، وجب للفظ الدال عليه مثله أولا في النطق ».⁵

وهنا نفهم أن عمق العلاقة بين اللفظ والمعنى تسلمنا إلى أن تحقق صفات العمل الأدبي لا يتم إلا باختيار قبلي وجمالي للفظ ، يرفعه عما كان فيه من مرتبة في خضم الخطاب العادي ، مما يضفي على اللفظ ما أسماه أبو الحسن العسكري " الحُسْن " الذي عده « أساس الاختيار الجمالي للعناصر

1. د.عز الدين إسماعيل - الأدب وفنونه - دار الفكر العربي - القاهرة - ط 3 - 1965 - ص 32

2. د.رجاء عيد - القول الشعري - منظومات معاصرة - منشأة المعارف - الإسكندرية - ص 170

3. محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي - عيار الشعر - تحقيق عبد العزيز بن ناصر المانع - ط 1 - مكتبة الغانجي - القاهرة - 1405 هـ - 1985 - ص 11

4. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - البيان والتبيين - تحقيق عبد السلام محمد هارون - مكتبة الغانجي - القاهرة - 1960 - ج 1 - 136

5. عبد القادر الجرجاني - دلائل الإعجاز - تصحيح السيد محمد رشيد رضا - مكتبة القاهرة - 1961 - ص 52

الأولية الدالة ، وهو صفة ينعت بها اللفظ بناء على خصائص وهيئات وعلامات إذا توفرت فيه علم حسنه من قبحه .¹ ، وقد استجوبت هذه النظرة خضوع اللغة إلى مبدأ « التصنيف لتمييز لغة الأدب بوجود مستقل ، فليس كل ما يوجد في اللغة يصلح أن يدخل في المعجم اللغوي الذي يتعامل معه المبدع ، لأن عناصرها متفاوتة من حيث قيمتها الذاتية بصرف النظر عن موقعها من النص ، فعلى الأديب شاعرا كان أم كاتباً أن يتخير من ألفاظ اللغة ما يناسب صناعته .²»

وبعد ، فإذا أردنا الحديث عن لغة الشاعر أمكن القول أنها تتراوح الخصائص والظواهر التالية :

1- الألفاظ : استقى الشاعر ألفاظه في معظم قصائده من منابع أصيلة سوف سوف نتعرض لها في المعجم اللغوي ، أما خصائص هذه الألفاظ فيمكن إجمالها في النقاط التالية :

أ - السهولة : إن قارئ قصائد ديوان الشاعر عبد القادر لا يتكبد كثير عناء لفهم معانيها ، فأغلبها جاء في قالب من الوضوح وجلاء المعنى والسهولة ، وهي مع هذه السهولة تحمل دفئا في المعاني ، وسلامة في اللغة ، ونجد ذلك في قوله وهو يحن إلى مدينته وذكرها :-

سلام على ذاك الزمان الذي مضى بما فيه من حب وما فيه من ود

سلام على ذكرى الصداقة و الوفا سلام على الإخوان في القرب والبعد

لقد حن قلبي يا رفاق إليكم كما حن من طول الفراق إلى المهد³

فألفاظ " سلام، إخوان، ذكرى، حن، المهد. " ، كلها ذات دلالات سهلة لكنها تحمل معاني الود والوفاء اللذين يحملهما الشاعر لأهل مدينته ، ولا أدلّ على ذلك إلا قوله أيضا وهو يناجي القمر:

يا بدر! لب دعاء من باع الكرى وغدا يهيم كما تقيم ويعشق

ويحي تستغرب وتتركني هنا يا ويح من في شوقه يتحرق !

يا طرف ! جد إن البكاء لبسّم فلعله يحو الشقاء ويمحق

1. أبو هلال العسكري - كتاب الصناعتين - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البحاي - القاهرة 1952 - ص 20

2. ابن الأثير - المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر - تحقيق أحمد الحوفي وبدوي طبانة - نضمة مصر القاهرة - 1962

- ص 222

3. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 273

ولعل من يصغي إلي يرق لي ولعلني أعطي الأمان وأرزق¹

فلنحظ أن هذه الألفاظ مثلا " دعاء ، ويحي ، شوقه ، البكاء ، البلسم ، يرق ... " على بساطتها فهي تحمل كل معاني معاناة الشاعر في ألمه ، وشوقه ، وأمله في نيل مرغوبه .

ب- الفخامة والجزالة : يؤكد الدكتور عز الدين إسماعيل على هذه المسألة والتي يعتبرها أساسية خاصة في مثل هذا النوع من الشعر ، إذ إن « عمود الشعر يتطلب جزالة اللفظ واستقامته ، ويضع عيارا لذلك : الطبع والرواية والاستعمال ، فما مما يهجنه عند العرض عليها فهو المختار المستقيم ، وهذا في مفرداته وجملته مراعى² . »² ، وحين نحكم على لغة الشاعر بجزالة ألفاظها فإننا ندرك أنها سلسلة لغوية تستسيغها الأذن ، ويلتذ لها اللسان ، فجعلت هذه الخاصية لغة أشبه ببناء « متلاحم الأجزاء ، سهل المخارج ، فنعلم بذلك أنه أفرغ إفراغا واحدا ، وسبك سبكا واحدا ، فهو يجري على اللسان كما يجري الدهان . »³ ، ونلمح هذه الخاصية بشكل واضح في قصائد الشاعر وذلك في مثل قوله وهو يشيد بثوار وأبطال الجزائر :

لكل يوم عن الأبطال أخبار هذا شهيد وهذا زانه الغار

وذا على جرجر كالنمر مكتمن وذاك في جبل الأوراس مغوار

بشراك يا شعب هذي ثورة سطعت منها على الأطلسين اليوم أنوار⁴

فألفاظه مثل " زانه ، مكتمن ، مغوار ، سطعت " رغم بساطتها ، فإننا نحس بفخامتها ، وبعدها عن الابتذال ، خاصة إذا استعملها الشاعر لموضوع حساس وعظيم مثل مدح صناع الثورة التحريرية .

وقال أيضا حين كان يحين^٥ إلى عهد آبائه وأجداده :

عفاف، وإحسان وحلم وحكمة وفقه وأشعار بكت لذهابه

فكيف بدمعي لا يسيل أحبتي دعوا الدمع يحظى مثلها بمنابه

1. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 199

2. د. عز الدين إسماعيل - الأسس الجمالية في النقد الأدبي - دار الفكر العربي - ط3 - 1974 - ص 370

3. أبو عثمان الجاحظ - البيان والتبيين - ص 67

4. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 109

سقى الله ذاك العهد في كل لحظة وأحي لذاك المجد عهد التها به¹

فإن كانت المعاني التي ساق لها الشاعر هذه معانٍ واضحة ومباشرة ، فهذا لا يحتم أن تكون هنا ألفاظه على نفس المستوى هنا من الوضوح ، الفخامة غير السهولة ، إنها صفة تلازم اللفظ في معناه المستقل قبل أن يترابط مع ألفاظ أخرى في تركيب وبناء لغوي ، ليحصل به معنى جديد .

ج - التقريرية والمباشرة : في قصائد أخرى للشاعر ، نجده ينحى نحو تقريريا مباشرا ، يقترب فيها أحيانا إلى الأسلوب الثري ، حتى أننا يمكن أن نحول مجموعة الأبيات إلى فقرة نثرية ، ونجد ذلك في قوله :

كتب الدهر مجدهم صفحات بحروف من فضة ونضار

تركت في نفوسنا ذكريات خالجات على مدى الأعصار

صانك الله يا سطياف من الأخطار و النائبات و الأشرار²

ولئن كان هذا القلب المباشر لألفاظه باديا في أشعار عبد القادر فإن هذا قد يكون عائدا إلى المنابع اللغوية التي تأثر بها وهو يبني ثروته اللغوية .

ونجد هذه السمة غالبية على لغة الشاعر خاصة في قصيدته التي نظمها كترجمة لقصيدة السيدة " أكرمان " التي نظمها باللغة الفرنسية فقد قال في بعض أجزائها :

من أين جئت وأين تقصد ذاهبا ؟ هل أنت دوما في العوالم ذاهب ؟

كيف اهتديت أساقك القدر الذي سيقب به عبر الحياة كواكب ؟

قل بربك هل رأيت قوافلا عبر القرون تسير وهي تصاحب ؟³

1. المصدر السابق - ص 263

2. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 96

3. المصدر نفسه - ص 309

وإن كان هذا الأسلوب النثري يطغى على هذه القصيدة " النجم الثاقب " ، فرمما ذلك بسبب طبيعة الموضوعات التي طرقها الشاعر والتي لا تتطلب غموضا في اللغة أو عمقا في المعاني — هذا في بعض المواضيع — لا أغلبها .

د- النبرة الخطابية : تعود هذه النبرة إلى طبيعة الموضوعات التي تملئها ضرورة مناسبة القصيدة على الشاعر ، ذلك أنه حاول أن يكون شعره سجلا لكثير من المناسبات التاريخية التي عاشها ، وكثير من الأحداث الثقافية التي سارع إلى تخليدها بشعره ، كما أن المواضيع ذات الطابع الوطني تفرض عليه أن يستعمل أسلوب الخطاب ليتوجه للجماهير بالحث والتشجيع ، أو بالنصرة والتأييد ويظهر ذلك من ناحيتين : الضمائر والأفعال :

1/ من ناحية الضمائر : ويقصد بذلك استعمال ضمائر المخاطب في كذا من مناسبة في قصيدته ونلاحظ ذلك في قوله مخاطبا جمعا ليودعه :

رعاكم من الرحمن لطف ورحمة وعشتم مدى الأزمان في البركات

وفزتم جميعا في الحياة بكل ما يسير بكم نحو العلا بثبات

ودام لكم عز ومجد وسؤدد ومستقبل في أرفع الدرجات¹

فهذه الأبيات أكثر فيها الشاعر من استعمال كاف الخطاب (رعاكم ، لكم ، بكم ...) ، بالإضافة إلى أنها موجهة في مجملها إلى جمع المخاطبين " أنتم " .

2/ من ناحية الأفعال : يبدو أسلوب الخطاب عند الشاعر في استعماله أفعالا تتصل بها ضمائر الخطاب ماضية أو مضارعة ، إلى جانب أفعال الأمر وهذه السمة غالبية على شعره في المواضيع الوطنية والمناسباتية فهاهو يخاطب أمها في قصيدة راثية :

أتقنت دورك في الحياة فأصبحت تشني عليك بأجمل الأبيات

مثلت أخلاق الأمومة بالهوى والصبر والآمال والحسنات²

1. عبد القادر بن محمد — الديوان — ص 191

2. المصدر نفسه — ص 242

ثم استعمل أفعال الأمر في نفس القصيدة :

قد كنت تهوين الرياض وطبيها فتنعمي في وارف الجنات

وتذكرينا بالدعاء لعلنا نرقى بسلم طهر ك الدرجات¹

على كل ، فإن أسلوب الخطاب كثر عنده خاصة حين يكون موجهاً إلى الشعب :

بني الشعب هل وحدتم الصف والخطا ؟ وهل سرتهم نحو الأعادي قساورا ؟

بني الشعب يكفيكم سباتا وغفلة عدوكم قد بات يقظان ساهرا²

ويلعب هذا الأسلوب الخطابي دوراً مهماً في مثل هذا النوع من القصائد كونه يجعلها « تتفجر وتتلهب حماساً ، وتمتطي التفاصيل والجزئيات لتقتحم الأحداث الواقعية وتطويعها للسرد والنقل .»³

2- التراكيب اللغوية : إذا كان الشاعر قد استعمل في عموم ألفاظه لغة بعيدة عن « التفرع والوعورة بل ولغة سيالة ، تحمل معناها المباشر بذاته ، ولا عجب فقد جاءت من شاعر امتحن التربية والتعليم والإرشاد التربوي لمدة طويلة⁴ ، فإن ذلك انعكس على التراكيب التي انتظمت في قوالبها هذه الألفاظ ، وإذا أردنا تفحص البناءات اللغوية في قصائد الشاعر فإنه يمكن القول إنها حملت الخصائص التالية :

أ- كثرة استعمال الجمل الاسمية :

إن الخطاب الذي ينبني في تركيبه اللغوي على فعل أو مجموعة أفعال ، فإنه يكون مقيداً من حيث الدلالة وتركيد الخبر ضمن بوتقة زمن ذلك الفعل وتنقص هذه الدلالة بمجرد خروجه من زمن الفعل

1. المصدر نفسه - ص 243

2. المصدر نفسه - ص 86

3. إيليا الحاوي - في النقد والأدب - ج5 - دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط1 - 1980 - ص 79

4. منتديات وانا الحضارية - الملمح التراثي في شعر إسنا عيل زويريق - ص 14/11

وقد يكون هذا سببا يمكن أن نفسر به ولوع الشاعر باستعمال التركيب الاسمي بشكل بارز في قصائده ، حتى أنه يمكن عزوّه إلى تأثره بالقدامى حين يتبارون في سبك مثل هذه الجمل ، ولنأخذ مثالا من قوله :

هناك أيك وريق بينه أكم خصيبة وعيون وردها شيم
هناك طير وأزهار مفتحة وجدول تحت نور البدر يحتلم
والعيش في رغد والمجد في سعد والشمل رغم صروف الدهر ملتئم¹

فنجده ينظم بيتا كاملا دون استعمال فعل ، ويظهر هذا في أغلب القصائد ، فهاهو يشيد بثورة أول نوفمبر :

غرة الشهر أنت نور الأمانى أنت فجر الحرية الحمراء²
ونجدة أيضا نظم مجموعة أخرى يتغزل فيها بالجزائر وجمال أرضها وعلمها :

وليس عند فتاتي سحر الرقى والرمال
الدردر ابتسام والسحر سحر حلال
وليس عند فتاتي بغض ولا حقد قال
خضرة وبياض ونجمة وهلال
ليلاي ذات عفاف به النشيد خلالي³

والملاحظ على هذه النماذج أن الشاعر ، عمد إلى استعمال بعض الروابط لتدعم اللحمة والانسجام بين هذه الجمل الاسمية ، مثل حروف العطف الواو ، الباء ، الفاء ، والضمائر بنوعيتها المنفصلة والمتصلة " أنت ، الهاء ، وياء المتكلم " ، وأسلوب الإضافة الذي يدعم معنى الجملة مثل " سحر حلال ، حقد قال ، فجر الحرية ، نور البدر ... " .

1. عبد القادر بن محمد - الديوان - 269

2. المصدر نفسه - ص 119

3. المصدر نفسه - ص 300 ، 301

ب- القوالب اللغوية الجاهزة :

والمقصود بهذا القول بعض التعابير التي كثر استعمالها بنفس التركيب خاصة لدى القدماء مثل قوله :

"اسأل فديتك " عنهم كل ناحية هل عند اليوم يا أنحاء أخبار ؟¹

وقد كرر هذا التركيب اللغوي في قصائد عدة من الديوان ، وله تركيب آخر يستحب أن يبدأ نظم بعض الأبيات به خاصة حين يحمل البيت نبرة الحزن أو التمني أو الرجاء ، مثل قوله :

" يا ليت شعري " هل أراك بمقلتي؟ فإلى متى هذا الفراق يفرق ؟²

وإذا كان شديد الحسرة على عمره وفيما أمضاه ، فإنه أكد ذلك في قصيدته " أرثيك يا نفسي بنفسي ناظما " ، من خلال تكرار الجملة التي تتضمن هذا المعنى فيما يقارب أربعة أبيات :

ضيعت عمري في الحروف معلما ألفا وباء بعد تلك التاء

إلى أن يقول :

ضيعت عمري في الإدارة عاملا حتى استحلت بها من العملاء³

وشاع أسلوب التكرار هذا في قصائد كثيرة أخرى مثل " قصيدة الملتقى " ⁴ ، " يوم الدخول " ⁵ ، كما تظهر هذه الخاصية بشكل لافت في قصيدته " الشاعر الهائم وربّة الشعر " ⁶ ، أكثر فيها من تكرار عبارة (من لي بتلك الشاديات ، يا شعر ، أو أنت ترضى ، رباه ، حدث) ، وكرر بعض الألفاظ مثل (آه ، كم ، وحدي ، حتى ...) ، ومثل هذا النوع من التكرار يدل على إلحاح الفكرة على ذهن الشاعر ورغبته في إبرازها بأكبر قدر في شعره :

من لي بتلك الشاديات يريني ما قد بنته بالمنى الأحلام

1 . المصدر نفسه - ص 109

2. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 200

3. المصدر نفسه - ص 256

4. المصدر نفسه - ص 173

5. المصدر نفسه - ص 177

6. المصدر نفسه - ص 293

من لي بتلك الشاديات يزeln عن قلبي الهموم وما الهموم تنام
من لي بتلك الشاديات يطفن بي حيث الخيال الحلو والأنغام¹

ج- الختام بالدعاء :

لقد شاع الختام بأسلوب الدعاء في قصائد الديوان خاصة منها ما كان يتضمن موضوعا إنسانيا ، اجتماعيا ، تربويا ، أو قوميا وسياسيا ، يقول مثالا طلبا للرحمة لأمه ، وأحبائه :

يا رب رفقا بالذين تعذبوا في هذه الدنيا ضحية زور
وارحم بجاه محمد أمي التي رعت العهود بفعلها المبرور²

وقال أيضا في ختام قصيدته التي رثى فيها المرحوم " عبد الحميد بن باديس " :

رب إن لم تصن رجائي فمالي غير دمعي على رجائي الفقيد
رب إن لم يكن من القيد بد فهو مر على الأبوة الصيد
وحنانا على الجزائر والدين وحنانا على تراث الجدود³

وقد نظم قصيدة أخرى خلد فيها ذكرى شهداء الجزائر ، بعد الاستقلال ، فما كان أمامه إلا أن يختتمها بالدعاء لهم بالرحمة والخلود في الجنان :

رحم الله روحهم في خلود إنهم عنده من الأحياء
عنده يرزقون من كل خير ولهم عندنا عظيم الثناء⁴

ولعل هذا الأسلوب في ختام بعض الأنواع من القصائد ، يمكن أن تعزوه إلى الثقافة الإسلامية التي تشبع بها الشاعر منذ صغره ، وروح محبة الله والانحياز للأسلوب القرآني في شعره .

1. المصدر السابق - ص 294

2. المصدر نفسه - ص 249

3. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 233

4. المصدر نفسه - ص 120

2- الأساليب : إن المتفحص للأساليب التي انتهجها الشاعر لعرض المعاني، وتناول مختلف موضوعاته ، ينتبه إلى أنه استعمل إلى جانب الأساليب البلاغية المعروفة نوعا آخر وهو أسلوب الحوار:

أ/ أسلوب الحوار : إن هذا الأسلوب وإن كان ضمينا في كثير من القصائد فإنه ظهر واضحا في ثلاث قصائد ، ويمكن أن تعزو نمط الحوار هذا ، إلى رغبة الشاعر في البحث عن طرق أو شريك ينفس عن مشاعره إليه ، ويث إليه معاناته وتساؤلاته ورجاءه ، فمثلا في قصيدته " الشاعر والحرية " كان يحاور " الطير " الذي كان رمزا لهذه الحرية ، ويرسل زفرات قلبه ، وآلام شعبه وآمالها في قدوم هذه الغائبة المنتظرة :

يا طير مالي أراكا حرمتني من صداكا ؟

قد كنت عندك خلا وكنت عندي ملاكا

فمالك اليوم تحفو والقلب يصلى هواكا ؟¹

ثم يجيبه الطير ويدعوه إلى أن يتحمل بالصبر ، فلا بد أن ينصر الله شعبه ، وإن طال الأمد ، وزاد العذاب والألم :

لا تخش شيئا وصابر فالله للشعب ناصر

في كل قلب وروح حب الجزائر زاهر

لا ينثني العزم فيهم رغم الأذى والمجازر

والشعب إن ثار يبغي حرية فهو قادر

النصر للشعب آت والشعب للنصر طائر²

وفي قصيدة أخرى يناجي مظهرها من مظاهر الطبيعة وهو الليل ، هذا الزمن الذي طالما تغنى به الشعراء قديما وحديثا ، وسامروه ، وشكوا من طوله أحيانا ، واسترسلوا في بث آلامهم إليه أحيانا أخرى :

1. المصدر السابق - ص 101

2. المصدر نفسه - ص 101 ، 102

يا ليل إنك مؤنسي وسميري ومخفف يا ليل وحد ضميري

فإذا النهار جنى علي بهمه فلطالما يا ليل كنت نصيري

أشكو إليك توجعي وتنهدي فتجيبني بتوجع وزفيري¹

فيحييه الليل بأنه هو سبب همومه ، وفي ذات الوقت هو ملجأه الذي من خلال ينفث آهاته ،
ويذرف دمه ، وينظم شعره :

يا شاعر النغمات قلبك قد سما حيران نحو حدائقي وقصوري

أسمعته نغم الهموم وقد علا من صدر مسكين وصدر فقير

ومنحته عودي ونغمة أنجومي تتلو جمال عوالي وسريري

ليقول شعرا أو ليذرف دمعة وكلاهما يطفئ لهيب صدور²

وإذا قرأنا قصيدته الثالثة : " الشاعر الهائم وربة الشعر " نجده يحاور حسه الشعري ، وتجربته الفنية
ويرجوها الحضور ، وكأنها إنسان أو شخص مرئي ، وبعد أن تفانى في استجدائها ، وألح في طلبها
لبن ندائه وحظرت إليه :

يا شعر! مالك بالجفاء رميتني إن الجفاء من الحبيب حرام

غادرتني من بعد وصل فجأة فأحاط بي بعد الفراق غمام

يا شاعر الألحان ها أنا ذي هنا فلقد رأيتك مضك التهام

ولقد سمعتك في الليالي تشتكي بين العباد وجلهم أصنام³

ب/ أسلوب الخبر : لم يختلف الدارسون على اختلاف مذاهبهم فيما يذهب إليه أسلوب الخبر من
غايات وأغراض ، كما تناوله البلاغيون من حيث أنه « ما احتمل الصدق أو الكذب بالنظر إلى
درجة مطابقته للخارج أو مخالفته ، وأهل اللغة لا يقولون في الخبر انه أكثر من إعلام ، والخبر هو

1. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 245

2. المصدر نفسه - ص 248

3. المصدر نفسه - ص 294 ، 295

العلم ، ويقولون الخبر ما جاز تصديق قائله أو تكذيبه ¹ ، ويجمع أغلب الدارسين أيضا أن أسلوب الخبر يتفرع إلى ثلاث أغراض أساسية : النفي ، الإثبات ، والتأكيد ، وقد تراوحت مواضيع الديوان هذه الأغراض في معظمها ، وقد سبق أن أشارت الدراسة أن التراكيب اللغوية امتازت بخاصية تكرار بعض الجمل بعينها وفي عدة أبيات ، وليس هذا التكرار إلا من باب التأكيد الذي نتحدث عنه الآن ، أما الإثبات فيظهر مثلا في قوله :

كل شبر من أرضنا قد سقته من دموع ومن دما أمطار
البوادي مع القرى والصحاري والربا والجبل والأنهار
والفتى والفتاة والكهل والشيخ مع الجيش والبنون الصغار
كلهم جاهدوا جهادا عظيما وعلى العرض والكرامة غاروا ²

فالشاعر أثبت لنا حقيقة التضحية الكبرى في الجزائر ، وأثبت اتحاد الشعب والتحامه دفاعا عن عزته وكرامته .

فطبيعة اللغة في الديوان التي اتسمت بالمباشرة والتقيرية جعلت الأسلوب الخبري يدور في معظمه ضمن هذا المجال دون الخروج إلى أغراض بلاغية أخرى إلا في القليل النادر .

ج- أسلوب الإنشاء : يختلف الأسلوب الإنشائي عن الخبري كونه كلاما لا يحتمل أن يوضع موضع اختيار الصدق أو الكذب ، إنما يتحقق معناه بمجرد الإدلاء بمضمونه ويمكن أن نفهم من هنا أن الطلبي منه يعني « ما يستدعي مطلوبا غير حاصل وقت الطلب ، لامتناع طلب الحاصل . » ³ .

وبما أن هناك من قصائد الديوان ما حملت نبرة التشجيع ، والحث وبث روح الحماس ، وخطاب الجماهير ، فإنه يمكن حصر بعض الأساليب والتراكيب الإنشائية التي ظهرت ضمن هذه الموضوعات :

1. ابن فارس - الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها - تحقيق مصطفى الشويبي - مؤسسة أ. بدران للطباعة والنشر -

بيروت - لبنان - 1963 - ص 179

2. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 99 ، 100

3. جلال عبد الرحمان السيوطي - شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان - دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع - بيروت -

1- النداء :

من المتفق أن النداء من الأساليب الخطابية التي تهدف إلى « دعوة المخاطب بحرف نائب مناب فعل كأدعو ونحوه ، وقد يُترل البعيد منزلة القريب فينادى بالهمزة أو أي تنبيهها على أنه لا يغيب عن القلب ، بل هو مالك الفؤاد واللب فكأنه حاضر الجثمان .¹ » ، وقد تعددت أغراض النداء في ديوان ابن القاضي فمن أمثلته قول الشاعر :

يا أيها الطير الجميل تعالا واسمع من الصب الغريب مقالا²

فالنداء هنا يحمل دلائل المناجاة ، ودعوة الطير لأن يكون الرفيق والسمير ، ونفس المعاني تحملها الأبيات التالية والتي نظمها إكراما لمدينة الثقافة :

قسنطي! هيجت ذكراك شعري بأصداء ترددها حيالي

بلاد العز كنت ولن تزالي بلادا للمفاخر والمعالي³

ومن مقاصد الشاعر بأسلوب النداء في قوله :

يا بني الإسلام يا أهل العلا شيدوا مجدا طريفا فاضلا

يا بني العرب ويا أهل النهى حاربوا الجهل المهين القاتلا⁴

الإشادة بالمسلمين ومدحهم من خلال أسلوب الإضافة إلى الألفاظ التي تحمل هذه المعاني " الإسلام ، العلا ، العرب ، النهى " .

وفي ندائه لطلاب العلم يقصد معاني أخرى تظهر في هذا القول:

أيها الطالب قم ناج العلا فوق وجه الأرض أو فوق الشهاب

هنا يهدف الشاعر من النداء إيصال النصيح والإرشاد إلى هذه الفئة .

1. أحمد المراغي - علوم البلاغة البيان والمعاني والبدیع - ط2- 1984 - دار القلم - بيروت - ص 76

2. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 97

3. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 57

4. المصدر نفسه - ص 47

وقد يكون الداعي من نداء الشاعر هو الدعاء وهو كثير في الديوان :

يا رب صنّها لتبقى رمز مفخرة وجنة من جنان الله تختار¹
رب إني وجهت نحوك وجهي فتقبل تضرعي ومنايا²
حنانيك يا رباه نصرك ترتجي بجاه الذي أرسلته للبرية³

2- الأمر :

يقترب أسلوب اللغة من ناحية الأمر بواقع استعمالها ، ويحمل الأمر دلالة « طلب حصول الفعل على وجه الاستعلاء ، والأصل في صيغة الأمر أن تفيد الإيجاب أي طلب الفعل على وجه اللزوم ، وهذا هو المفهوم منه عند الإطلاق ، وما عداه يحتاج إلى قرائن أخرى تستفاد من سياق الحديث .⁴ » ، ويفهم من هذا التعريف أن أسلوب الأمر وجهان : حقيقي هو طلب تنفيذ العمل ، ومجازي يخرج به إلى معان وأغراض أخرى تتم عن انفعالات وأحوال نفسية مختلفة تفهم من سياق القول ، ولعل النوع الثاني هو الذي يظهر لنا بشكل جلي في الديوان من خلال ارتباطه ببعض المعاني المجازية التي أوصلها الشاعر من خلال أسلوب الأمر ، ومن شواهد الكثرة قول الشاعر يواسي فيه أحد أصدقائه ويبحث في نفسه الأمل :

أرجع الآمال للقلب الذي بات في جوف الليالي يتنهد
و احفظ النفس من اليأس فقد أصبحت نفسك باليأس تهدد
إن للناس إلهًا مشفقًا فاعتصم بالله في الدارين تسعد⁵

يظهر من هنا أن الأمر خرج من طلب الفعل إلى معاني المواساة وبث الأمل والترويح عن النفس اليائسة ، وإدخال المسرة عليها .

1. المصدر السابق - ص 110

2. المصدر نفسه - ص 105

3. المصدر نفسه - ص 74

4. أحمد المراغي - علوم البلاغة - ص 72

5. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 217

أما في مواضيع أخرى اتجه الأمر إلى معاني التمني والرجاء مثل قوله :

عد إلينا أيها العيد بما يثلج الصدر وما يجلو الغماما

عد إلينا بصباح مشرق قد مللنا أيها العيد الظلاما

وابعث الرحمة في قلب الورى إن في الرحمة بردا وسلاما¹

وقد حمل مقاصد الشكوى وبث الواقع الذي آلم الشاعر وعمق جراحه :

حدث الشعب ولا تخشى اللثاما فلقد حمل آلاما جساما

حدث الشعب عن الذكرى التي أيقظت في القلب أشواقا عظاما

واترك الذكرى تعالج سقمه فلقد صار من السقم حطاما²

ولعل الملاحظ على ديوان عبد القادر بن محمد نزعته الإصلاحية ، ونفسه التوجيهي الإرشادي ، لذلك نجد الأمر في هذين الغرضين الإصلاح والدعاء أكثر شيوعا من المعاني السابقة ، ونجد ذلك في أمثلة كثيرة ، نذكر منها:

رب ناحت حمائم السلم لما روعتها " ذرية " لا تطاق !

فابعث الحب في القلوب فقد هدهد الحقد والقللى والفراق

وانشر العدل والسلام لتحيا رغبات الورى ويفنى الشقاق

واملا الكون رحمة وصفاء فلقد نال صفوه الأرناق³

ومن النصح والإرشاد قوله :

هذب طباعك واستقم كمحمد واقرأ لعلك بالصلاح تجود

وخذ الكتاب بقوة وعزيمة طلب العلوم مع الكرى مردود

1. المصدر السابق - ص 219

2. المصدر نفسه - ص 93

3. المصدر نفسه - ص 54 ، 55

سارع إلى الغفران واعمل صالحا

إن الحياة مجالها محدود

واحفظ كتاب الله وادرس آيه

ليقال نشء صالح ورشيد

وتزودن بحديث أحمد اجتهد

جمع الحديث مع الكتاب حميد¹

وتكثر هذه الأساليب بشكل بارز في أغلب قصائد الشاعر بسبب رغبته في الإصلاح وحسه التربوي الذي كبر معه ، وظهر أثره على شعره .

3- الاستفهام :

إذا كان الاستفهام من الأساليب الطلبية فإنه يهتم أساسا باستقطاب المخاطب لبحث أمر ما يمكن أن يفيد هذا المخاطب في حله فهو « طلب حصول في الذهن ، والمطلوب حصوله في الذهن ، إما أن يكون شيء على شيء أو لا يكون .»² ، إذن فالاستفهام حركة داخلية ترتبط أساسا بتحقيق الفعل من هذه الناحية بالنسبة للمتخاطبين .

وقد حمل أسلوب الاستفهام في الديوان العديد من المعاني ومختلف الأغراض التي تراوحت من الإنكار إلى العتاب والأمر والتعجب والتمني وغيرها ، ولنا في ذلك بعض الأمثلة :

أ/ الإنكار : ويقصد به أن الشاعر لا يسعى إلى طلب حصول الفهم بقدر ما يسعى إلى إثبات موقف ما من خلال أسلوب الإنكار ، فهو ينكر على الجزائريين تخصمهم واختلافهم في حين أنهم رضعوا من أم واحدة وهي الجزائر ، فيقول :

وفي أنتم والجزائر إخوة أمن يرضع الشدين يضحى مناكرا؟³

وبنفس الصورة يظهر الاستفهام إنكاريا في هذين البيتين ، حيث يرفض الشاعر على شعبه أن يؤول من حال إلى حال لا تليق بمزله :

يا شعب كنت أبيا صان حرمة وصان سؤدده من أقدم الحقب

1. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 179

2. الشريف علي بن محمد الجرجاني - كتاب التعريفات - مكتبة لبنان - ناشرون - ط 2000 - ص 18

3. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 87

فكيف أصبحت ترضى بالهوان ولا ينشق قلبك من حزن ومن غضب ؟¹

ب/ العتاب : ويمكن أن نسميه شكلا من أشكال اللوم و التأنيب ، فنلاحظ هذه النبذة في قول الشاعر وهو يخاطب فصل الربيع :

يا أيها الفصل الجميل ! أهكذا ترثي لقلب من جواه كسير ؟

أكذا تعامل يا ربيع أحبة قد أنشدوك الشعر منذ دهور ؟

علقت آمالا عليك فخيبت أكذا تمين عواطفني وشعوري ؟²

وقال أيضا موجهها عتابه إلى من يرفضون التعريب في النظم التعليمية الجزائرية ، حتى أنه أصبح شبه تعنيف لهذه الفئة التي ساهمت في نشر الغل والعداوة بين أفراد الأسرة التعليمية :

واحر قلباه من أناس لم يروا في الضاد تحريرا من العملاء

أكذا يربي أو يعلم من أتى متحليا بالكبر والخيلاء

أكذا يكلمنا ونحن كما ترى مثل لكل نزاهة وصفاء³

ج/ الأمر : وردت بعض أساليب الاستفهام لتحمل معاني طلب فعل ما ، وذلك يتأتى للشاعر بإرفاق الاستفهام بأسلوب النداء لأنه « كفيل بحصول انتباه السامع والتفات إلى الخطاب ، فضلا عما يحمله من تودد للمنادى . »⁴ :

نشء الجزائر ، هل سمعت نداءها ؟ عاهدت شعبك ، هل تصان عهود ؟⁵

وفي قوله هنا يطلب أن تسمع شكواه ، وتجاب دعوته إلى من يخاطبهم :

جئت أشكو فهل تعير لي السمع وهل تستجيب للأحباب¹

1. المصدر السابق - ص 89

2. المصدر نفسه - ص 247

3. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 255

4. خليفة بوجادي - بوابات النور "دراسة تداولية" - رسالة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه - إشراف د.عبد الله بوحلخال -

2005 - جامعة سطيف - ص 240

5. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 179

وأسلوب الأمر بالاستفهام له وقع خاص في نفس المخاطب ، لأنه « أدعى إلى الحصول ، وأجلب إلى تحقيقه في الواقع ، لأنه طلب يستنتجه السامع ، ول يلقى إليه بشكل صريح ، وكأنه يسهم في صياغته ، مما يدعو إلى تحقيقه وسرعة الاستجابة إلى القيام بمقصوده .² .

د/ التمني : صاغ الشاعر أساليب استفهامية تحمل في ثناياها معاني التمني ، والأمل في حدوث شيء ما ، وقد يتعلق هذا المعنى بالمتكلم أو الشاعر بمفرده ، وقد يشارك المخاطب في استقصاء هذا المعنى ، يقول متمنيا غدا أفضل :

هل بعد آلامي وبعد تغربي أجد الحياة حداثا ونعيما ؟

هل يصبح الزمن الشديد مؤاتيا ؟ هل تصبح الريح السموم نسيما ؟³

وبالاستفهام قال متمنيا قدوم الحرية وشوقه إليها :

وأعد لي الأخبار كيف وجدتها ؟ هل حققت يا طير لي الآمالا

هل صانت العهد المقدس بيننا مهما اعتدى زمن الفراق وطلا⁴

وفي مناجاته للبدر يطرح أمانيه في التواصل معه فيقول :

يا ليتني أدركت معنى قوله وعرفت هل يحنو علي ويشفق⁵

فبالإضافة إلى التمني الواضح بأداة " ليت " في صدر البيت ، فإنه يتمنى أن يجود عليه القمر بالحنان والشفقة .

ه/ الحسرة : استعمل الشاعر أسلوب الاستفهام وقصد به أن يبث حسرته وأسفه على بعض المواقف ، وعلى بعض الحضارات التي مرت بتاريخ الجزائر ، مثال ذلك قوله :

ويحي على مجد تألق وانطفئ يا مجد أين زمانك المحمود ؟

1. المصدر السابق - ص 265

2. خليفة بوجادي - بوابات النور "دراسة تداولية" - ص 240

3. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 304

4. المصدر نفسه - ص 97

5. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 199

أين النبي و أين صفوة صحبه وبنو أمية شيخهم ويزيد ؟

أين العباسة الجبابة الألى بلغو الذرى مأموهم ورشيد ؟

وزمان أندلس به قد أشرق شعل الحضارة ما لذك جحود¹

وهو وإن كان يأسف في هذه الأبيات على هذا المجد الإسلامى الغابر ؛ فإنه يرمي إلى استنهاض الأمة عليها تتحرك لاستعادة صرح هذا العز والمجد التاله ، ويأسف على ما آلت إليه الأمة من انقطاع أواصر التكافل والرحمة ويتحسر على غياب صفات المسلمين ومبادئ الروح الإسلامية :

وما قولكم يوما أمام رسولنا إذا قال من صان الحمى والشعائرا ؟

ومن كفكف الدمع السخين لبائس ؟ ومن ذاب قلبا أن رأى الدمع هامرا ؟

ومن رق للمسكين لطفا ورحمة ؟ ومن أثلج الصدر المروع غائرا ؟

علت ضجة فارتاعت الأرض والسماء يتامى ... فمن صان اليتامى مناصرا ؟²

و/ **التعجب** : هو أسلوب استعمله الشاعر بهدف إشغال المتلقي وجعله يبحث في مصدر هذا العجب ويهتم به ، ومثال ذلك قوله :

هل نحن في فصل الخريف دخولنا أم ذا ربيع آخر مولود³

ويقول متعجبا من حاله مع الدهر :

أعاقل أنا ؟ مالي لا تذكرني نوائب الدهر إقبالا وإدبارا ؟

وما لروحي لا تنفك هائمة مجتازة بجناح الحلم أقطارا ؟⁴

الموسوعة اللغوية للديوان :

1. المصدر السابق - ص 179

2. المصدر نفسه - ص 87

3. المصدر نفسه - ص 177

4. المصدر نفسه - ص 275

تعددت المشارب التي نهل منها الشاعر عبد القادر ، وكل هذه المصادر تبدو ملامحها في جلية في بناء لغته ، وتنوعها ، فقد أخذ من الثقافة الإسلامية قرآنا وحديثا نصيبا كبيرا ، كما يبدو وأثر اطلاعه على الشعر العربي خاصة الأصيل منه باديا على شعره ، كما تأثر ببعض معاصريه من الشعراء ، هذا ونلاحظ استخدامه لقاموس الحياة اليومية ، وما تمليه مقتضيات العصر والتكنولوجيا ، ويبدو إلمامه بالتاريخ الإنساني والحضاري جليا في لغته ، كما أنه استعمل بعض الألفاظ الغربية أو الدخيلة أو حتى العامة أحيانا ، ويمكن أن يأتي تفصيل ذلك بالشكل الآتي :

01- لغة القرآن والقصص القرآني :

إن القول الذي يؤكد أن « اللغة الشعرية لا تخلق شاعريتها وإنما تستعيرها من العالم الذي تصفه »¹ ، إنما يرمي إلى أن اللغة تظهر كخلق شعري له خصائصه المستقلة عن غيرها من البناءات اللغوية حينما تتصل اتصالا مباشرا ولصيقا مع الموضوع الموصوف ، هذا جانب ، وجانب آخر هو مدى قدرة الشاعر على استثمار خزينته اللغوية من خلال ما ترسب بذهنه وفي قدراته الشعرية من إمكانات لغوية يستمدّها من قراءاته المتعددة التي تساهم في بناء هذا المخزون . ومن أهم ما شكل لنا هذا المخزون لدى شاعرنا اللغة القرآنية ويمكن أن نتبع ذلك من خلال بعض الأمثلة ، إذا قرأنا قصيدته التي نظمها بمناسبة العودة إلى المدارس ، نجد أنه استعمل أسلوبا اقتبس فيه من القرآن الكريم آيا وألفاظا ، ففي قوله :

قد فضل الرحمن آدم في الورى فغذا الملائكة الكرام سجود

اقرأ محمد ! باسم ربك آية أوحى بها الرحمن وهو رشيد²

فالبيت الأول نجد فيه ألفاظ " الرحمن ، آدم ، الملائكة ، سجود " كلها مقتبسة من القرآن الكريم ، بينما البيت الثاني فقولته : " اقرأ محمد ! باسم ربك آية " فهو اقتباس صريح من قوله تعالى : « اقرأ »

1. جون كوهن - النظرية الشعرية - بناء لغة الشعر اللغة العليا - ترجمة وتقديم وتعليق د. أحمد درويش - دار غريب للطباعة

والنشر والتوزيع - القاهرة - 2000 - ص 283

2. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 178

باسمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ»¹ ، وفي نفس القصيدة ، وفي حديثه عن فضل الله على الإنسان بالعلم يقول:

سبحان ربي علم الإنسان ما لم يعلم الإنسان وهو كنود²

فقد ظهرت في ألفاظ آية أخرى من نفس السورة السابقة في قوله تعالى : « عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»³ ، أما لفظة " كنود " فقد اقتبسها من قوله تعالى : « إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ .»⁴

ونلاحظ استعماله أيضا لألفاظ القرآن الكريم في البيتين التاليين :

وخذ الكتاب بقوة وعزيمة طلب العلوم مع الكرى مردود

سارع إلى الغفران واعمل صالحا إن الحياة مجالها محدود⁵

يظهر فيهما الاقتباس من القرآن الكريم واضحا من خلال قوله تعالى : « يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًا »⁶ ، وقد تكرر تضمين الآية من طرف الشاعر في قصيدة أخرى في قوله يدعو طالب العلم إلى الصبر :

كن صابرا و "خذ الكتاب بقوة" وابعد عن الأشرار والجنباء⁷

أما البيت الثاني ففيه تضمين للآية الكريمة التي يدعو من خلالها المؤمنين إلى الإعداد بالعمل للفوز بالجنة في قوله تعالى : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ .»⁸.

1. سورة العلق - الآية - (1)

2. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 178

3. سورة العلق - الآية - (5)

4. سورة العاديات - الآية - (6)

5. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 179

6. سورة مريم - الآية - (11)

7. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 256

8. سورة آل عمران - الآية - (133)

ومن نفس السورة القرآنية اقتبس الشاعر من لفظ الآية الكريمة « وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا »¹ في خطاب يواسي فيه صديقه :

إن للناس إلهًا مشفقًا فاعتصم بالله في الدارين تسعد²

أما في قصيدته اللطيفة في حوارهِ مع الليل فقد تأثر بالآية الكريمة : « وَالطُّورِ ، وَكِتَابٍ مُسْطُورٍ »³ ،
، يمثل فيه لنا ثبات روح وقلب الشاعر رغم ما يعصف به الآلام :

هو ثابت رغم الرياح وعصفها وتلاطم الأمواج مثل الطور⁴

وفي الحقيقة ، فغن الشاعر وإن لم يضمن أبياته أحياناً آيات ظاهرة ، فإنه كثيراً ما يعتمد إلى استعمال لفظها ونسج أبياته على منوال يشبه تلك الآيات ، ولعل القصد يتضح بعد المثال التالي ، حيث قال مفتخراً بأجداده :

الصابرون على الأيام جائزة فما استكانوا ولا انقادوا ولا انهزموا

الثابتون أمام الرياح عاصفة لم ينثنوا مثلما لم ينثن العلم

المسرعون إلى الخير ومغفرة العادلون وجل الناس قد ظلموا

العاملون على تأليف من قطعوا الصافحون لمن زلت به القدم

المحسنون وإن ضاقت معيشتهم الكاظمون لغيظ وهو يحتدم⁵

إن هذه الأبيات استوحى فيها الشاعر ألفاظاً كثيرة من عديد الآيات ، وهذه الألفاظ تظهر تأثره بلغة القرآن مثل : " الصابرون ، استكانوا ، المسرعون ، المحسنون ، الكاظمون الغيظ . "

ثم يقتبس مرة أخرى من القرآن ليصف جماعة من الناس أعرضت عن مبادئ أجداده وتفرقت عنهم قائلًا :

1. سورة آل عمران - الآية - (103)

2. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 217

3. سورة الطور - الآيتان (1 ، 2)

4. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 248

5. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 270

وإن لهم صعر الأقوام خدهم تشاخوا بعرانين لها شمم¹

وإن هو قد عالج هنا قضية التكبر الخيلاء ، فقد تأثر بذلك بقوله تعالى : « وَلَا تَصْعَرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ، إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ »²

أما قصيدته المترجمة عن السيدة " أكرمان " فهي ذات روعة ، استطاع أن يستثمر فيها الشاعر قدراته اللغوية من خلال اقتباسه من سورة " الطارق " ألفاظا تدل عليها ، فالعنوان مثلا " النجم الثاقب " ، والبيتان الأول والأخير حين يقول مخاطبا هذا النجم :

يا طارقا ها أنت نجم ثاقب ؟ أم أنت عين في السماء تراقب ؟³

اقتبسه من قوله تعالى : « والسماء والطارق ، وما أدراك ما الطارق ، النجم الثاقب . »⁴

أما من ناحية القصص القرآني ، فالقصد من ذكر ذلك هو استعماله للفظ " الإسراء " ليدل بها على حادثة الإسراء والمعراج التي عاشها الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ، وذلك في البيت التالي :

لا بد بعد العسر من يسر كما أوحى الإله لصاحب الإسراء⁵

وبه اقتباس واضح من قوله تعالى : « أن مع العسر يسرا . »⁶ .

وبعد كل هذا يمكن القول أن ما يجعل الشاعر يعيد الآية بألفاظها في بيته ويقتبس منها هو : « الارتباط بالقرآن والتعلق به ما يجعلان صاحبهما يتمثله في معانيه ، وفي ألفاظه ، حتى يكون أكثر قربا منه ، واندماجا فيه . »⁷

1. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 270

2. سورة لقمان - الآية - (18)

3. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 309

4. سورة الطارق - الآيات - (1 ، 2 ، 3)

5. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 257

6. سورة الشرح - الآية - (6)

7. د. محمد ناصر بوحجاج - أثر القرآن في الشعر الجزائري الحديث (1925 - 1974) - ج 1 - ط 1 - المطبعة العربية

02- الشعر العربي :

يظهر لنا من أول وهلة أن الشاعر قد اطلع على قدر كبير من الشعر العربي القديم ، خاصة حين ندرك أن الجزائريين شعراء وأدباء كانت قبلتهم الأدبية الأولى هي المشرق ، لذلك فالأغلب على الرأي أنه لا يخفي أثر هذا الشعر في نتاجهم من قريب أو بعيد ، وهو ما نلاحظه على أشعار وقصائد عبد القادر ابن محمد ، فهو يجيد استعمال معجم القدامى ودمج هذه الألفاظ في أبياته مثلما يقول في قصيدة " أنات القلب "

ويوم إذا ما بان عني صاحب

كليلة نحس فارقتها الكواكب

تراني وحيدا لا أكف عن البكا

غريبا وقد جارت علي النوائب

رمتني بسهم الحزن في كل لحظة

فيا ويح من قد أزعجته المصائب¹

إذا تأملنا مثلا (بان ، ليلة نحس ، البكا ، جارت ، النوائب ، رمتني بسهم ، يا ويح) ، نجد أن الشعراء القدامى كثيرا ما تداولوا مثل هذه الألفاظ ليعبروا بها عن مواقف وجدانية مختلفة مثل : الوحدة التي شكاهها شاعرنا ، الغربة ، الشوق وغيرها .

وقد استطاع الشاعر أن يبعث صرخة من جوف ليل طويل آملا أن يبعث النور خيطه ويقشع عنه همومه ، وقد تأثر في ذلك بلغة امرؤ القيس ، فقال :

فأرخت على قلبي سدول همومها

كأني بصرخاتي الحزينة كاذب

ألا أيها الصبح الجميل ألا انبلج

فقد طال عمر الليل والقلب ذائب²

في حين قال امرؤ القيس :

وليل كموج البحر أرخى سدوله

علي بأنواع الهموم لبيتلي

ألا أيها الليل الطويل ألا انجل

بصبح وما الإصباح منك بأمثل¹

1. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 211

2. المصدر نفسه - ص 211

وفي موضع آخر ، يقر الشاعر بتأثره بامرئ القيس ، ومحمد العيد آل خليفة وطريقتيهما في طرح المواضيع ، خاصة منها ظاهرة الليل التي شغلت الشعراء منذ الأزل :

كم أرسل الشعراء فيك لحوهم متشوقين لحسنك المأثور

نظم "امرؤ القيس" القصائد هائما مترصدا لصباحك المنظور

وشدا هزار رياضنا "العيد" الذي أبكى النجوم بلحنه المشهور²

وفي هذه الأبيات إشارة إلى الأبيات المذكورة آنفا لامرئ القيس في حديثه ونجواه مع الليل .

كما أنه تأثر بهذا الشاعر في طريقه وقوفه وبكائه على الطلل مستعملا نفس المعجم الطللي حين قال :

قفا نبك من ذكرى حبيب ومترل بسقط اللوى بين الدخول فحومل³

فقال عبد القادر :

يا صاح دعني على الأطلال مرتما ودع دموعي على الأطلال تنسجم

ودع شعوري يفيض اليوم من ألم عسى يفارقني من لحنه الألم⁴

وفي نفس الحقل أي الطلل والبكاء يقف ويقول :

وقفنا على تلك الطلول كشاعر وأرسل ذاك الدمع لحن انصبابه

وقلنا لها يا دار أين الذي غدا يطوف ركب الصالحات ببابه⁵

ويؤكد لنا مرة أخرى تعلقه بالشاعر " العيد " وتأثره بشعره ، فيعود ويذكره مرة أخرى في قصيدة العيد الذي أمل فيه بقدوم الحرية وذلك بشكل رمزي :

1. امرؤ القيس - الديوان - اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي - دار المعرفة - بيروت - لبنان - ط2 - 2004 - ص

2. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 246

3. امرؤ القيس - الديوان - ص 21

4. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 270

5. المصدر نفسه - ص 263

يرفرف " كالهزار " على البراري ويسجع فوق أفنان الرطاب

هنالك ينشد الأجيال شعرا
ترجعه الجبال مع الهضاب¹

ويظهر تأثر الشاعر بأبي العلاء المعري في بيته التالي من خلال الاستخدام ذاته في الفخر بالأخلاق
والخلال لكلمة " عفاف " :

ألا في سبيل المجد ما أنا فاعل
عفاف وإقدام وحزم ونائل²
حين قال عبد القادر مفتخرا بصفات أجداده :

عفاف وإحسان وحلم وحكمة
وفقه وأشعار بكت لذهابه³
أما المتنبي الذي اشتهر بمدح سيف الدولة الحمداني فقد خلف هذا البيت :

أمعفر الليث الهزبر بسوطه
لمن ادخرت الصارم المصقولا⁴
وبنفس الألفاظ افتخر الشاعر بأبيه وبشدة إقدامه ووصفه ب " الليث الهزبر " :

وأبي وهو مثل ليث هزبر
أغلب في بيوتها والرحاب⁵

وقد وصف المتنبي سيف الدولة بإشراقه وجهه مستخدما " وجهك وضاح " في البيت التالي :

وقفت وما في الموت شك لواقف
ووجهك وضاح وثغرك باسم⁶

أما الشاعر فقد وجه حديثه إلى " العيد " ، وشخص هذه المناسبة وكأنها إنسان :

1. المصدر نفسه - ص 267

2. أبو العلاء المعري - الديوان سقط الزند - دار بيروت للطباعة والنشر - دار صادر للطباعة والنشر - بيروت - 1957 - ص 93

3. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 263

4. أبو الطيب المتنبي - الديوان - شرح مصطفى سبيتي - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - ص 183

5. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 266

6. المتنبي - الديوان - ص 197

عهدتك موسما طلق الحيا ووضاح الجبين لدى الإياب¹

أما الشاعر محمد العيد آل خليفة فقد نهل الشاعر من قصائده كثيرا وهو الذي شجعه على مواصلة نظم الشعر ، فكما تأثر به في طرق نفس الموضوعات الإنسانية ، فإنه استخدم معجما لغويا يلتقي في أكثر من موضوع مع أشعار "العيد" ، فقد استعمل الاثنان لفظة "ليلاي" في تغنيه بالحرية ، ولولا اختلاف الوزن والروي ، لأمكن القول إن المقطوعتين لشاعر واحد ، وهذا المثال يبين لنا ذلك ، حيث قال محمد العيد في قصيدته " أين ليلاي ؟ " :

أين ليلاي أينها ؟ حيل بيني وبينها

أصلت القلب نارها وأذاقته حينها

ما لليلاي لم تصل مهجات فدينها

وقلوبا علقنها وعيونا بكينها²

أما عبد القادر فقال :

أين الفتاة التي قد رأيته في خيالي ؟

ليلاي ذات سناء ورونق واحتيال

ما بي جنون وما بي يا قوم شبه احتيال

وإنما ذاك حب من ناره القلب صال³

فقد اشترك الشاعر في استعمال تسمية " ليلي " للحرية ، وكذا في تركيب " أصلت " ، أما الشاعر أحمد شوقي ، فقد أعجب شاعرنا بوصفه للحرية حين قال :

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق¹

1. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 267

2. الأستاذة - نوار بوقريعة ، محمد زمولي - التكوين عن بعد في اللغة والنصوص - وزارة التربية الوطنية - الإرسال الثاني - ديسمبر 1999 - ص 30

3. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 301

وقد اخذ الوصف ذاته واستعمل للتغني بحرية الشعب الجزائري حين غازلها في ليلة أول نوفمبر :

غرة الشهر أنت نور الأمازي
أنت فجر الحرية الحمراء²

كما تأثر بأسلوب المتنبي وهو ينظم متسائلا ما إذا عاد العيد وقدم معه الجديد حين قال :

عيد بأية حال عدت يا عيد
بماضي أم بأمر فيك تجديد³

وكذا تسأل عبد القادر بنفس السؤال آملا أن يأتي مع العيد كل البشائر :

فهل يا عيد عدت لنا بمجد
بناه لنا النبي مع الصباح

وهل يا عيد عدت لنا ببنت
تألق حسننها خلف الحجاب⁴

03- معجم الحياة وروح العصر :

والمقصود بهذا النوع من الألفاظ ما يدل على مظاهر الحياة العصرية ، من تقدم العلوم ، وتطور التكنولوجيا ، وهي الألفاظ التي أضفت على قصائد نوعا من روح العصر الذي يدل على التصنيف الزمني لقصائد الشاعر ، ونجد مثلا هذه الألفاظ شائعا في القصائد التي يدعو فيها الشاعر شباب الأمة إلى الجد في طلب العلم ومواكبة تقدمه ، أو حين يصف بعض المخترعات أو مظاهر الصناعة الحديثة وغيرها ، وهو يسعى من وراء ذلك إلى تحفيز شباب أمته لمواكبة ما يصفه من مظاهر التقدم الحضاري ، ولنا في ذلك بعض الأمثلة ، حين قال يصف إنارة وسيارات مدينة قسنطينة :

تروح الناس والعربات فيه
وتغدو مثل أسراب النمل

وبالدور التي في الليل تبدو
نوافذها تاللاً كالآلي

كأن الكهرباء بكل حي
خواتم من يواقيت غوال⁵

1. أحمد شوقي - ديوان الشوقيات - ج2 - دار العودة - بيروت - ص 269

2. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 119

3. المتنبي - الديوان - ص 80

4. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 267

5. المصدر نفسه - ص 57

لعل الألفاظ التي قصدنا بحديثنا ظهرت جلية في " العربات ، الكهرباء " التي أثرت بشكل أو بآخر على لغة الشاعر ، والتي جعلت منها تقترب كثيرا من الواقع وتبتعد عن الخيال والشاعرية .

ويستمر في ذكر هذه المظاهر ووصفها باستعمال مثل هذه الألفاظ وذلك في قوله :

بواخر في العوالم ساجحات من الأقمار للنجم العوالي
وصاروخ يشق الأرض شقا ويبحث عن خبايا ذي الجلال
وأجهزة لهم ومحركات وأسلحة تهدد لا تبالي
وإن الشرق أمسى منذ عهد بعيدا ... في سبات ! ... في اعتزال ! ...
وطر معهم بربك حيث طاروا! ولا تركب على متن الجمال !!¹
فألفاظ " باوخر ، صاروخ ، أجهزة ، أسلحة ... " هي ألفاظ صريحة ذات طابع علمي .

04- التاريخ الإنساني والحضاري :

يظهر من خلال هذه الخاصية على المعجم اللغوي للشاعر ، أنه واسع الاطلاع على ثقافات الشعوب وتاريخها وآثارها حضاراتها على الإنسانية ، لذلك نلاحظ شيوع موسوعة من أسماء أبطال التاريخ العربي والإسلامي وحتى الأمازيغي ، وأسماء بعض الأمم والحضارات ولنا بعض الأمثلة:

يغرطا! نم هنيئا يا يغرطا ! لقد سطرت للأجيال خطا
وقد أصبحت في التاريخ نجما تالاً نوره من فوق سرتا
يغرطا! كنت للرومان خصما وللشجعان شمسا لن تغطي²

هنا استعمل الشاعر اسم "يغرطا" وهو بطل أمازيغي نوميدي ، "الرومان" وهي الإمبراطورية التاريخية المسيحية التي ترامت أطرافها في العالم ، و "سرتا" وهو الاسم التاريخي لمدينة قسنطينة .

1. المصدر السابق - ص 58

2. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 121

ويقول :

وأثبت الوجود للجزائر ،

وملأ التاريخ بالمفاخر

فأين "وندال" وأين "الروم" ؟

وقبلهم "فينقيون" هائمون ههنا

وأين "بيزانس" التي جاءت تسوم

و "الغول" ؟ ... قد لاذوا جميعا بالهروب ...¹

وورد هنا ذكر مجموعة من الحضارات التي مرت على أرض الجزائر من حضارات الوندال ، والروم ،
والفينيقيين ، والبيزنطيين ، والفرنسيين التي كنى عنهم بتسمية "الغول" وقد اشتملت موسوعة الشاعر
أيضا ذكر بعض الحضارات الإسلامية في المشرق والمغرب :

أين العباسية الجبابة الألى بلغوا الذرى "مأمونهم" و "رشيد" ؟

وزمان أندلس به قد أشرقت شعل الحضارة ما لذاك جحود

ومرابطون موحدون بمغرب والفحل "عبد القادر" المشهود

وأخو الحجى "عبد الحميد" بسرطة ومجاهدون عن العرين أسود²

فقد ذكر الدولة العباسية ، الأندلسية ، المرابطية والموحدية ، أما الشخصيات التاريخية فذكر " الرشيد
والمأمون ، والأمير عبد القادر ، والشيخ عبد الحميد "

ويشيد بجهاد الشعب الجزائري وأبنائه ، مستشهدا بأبطال الفتح والجهاد في التاريخ الإسلامي فيقول:

فأين زياد ؟ وابنه الشهم طارق ؟ وأين ابن محي الدين ذو الوثبات ؟

وأين ابن تومرت وصاحبه الذي أعاد إلى إفريقيا الزارات ؟

1. المصدر السابق - ص 126

2. المصدر نفسه - ص 179

وأين ابن خلدون مؤرخ شعبنا يخلد ذكرى الأسد واللبؤات ؟

وأين صلاح الدين في صولاته؟ يحرر قدس العرب في لحظات ¹

فالشخصيات المذكورة كلها كانت ذات أثر في التاريخ الإسلامي " طارق بن زياد ، ابن تومرت وصاحبه * ، وابن خلدون ، وصلاح الدين الأيوبي ."

ومن الشخصيات التاريخية التي ذكرها الشاعر أيضا "عقبة بن نافع ، والكاهنة البربرية" في قوله :

قل لي أين طارق ؟ أين عقبة ؟ أين من فتحوا القلوب وبعدها الإقليما

أين اللبأة ؟ أين كاهنة الحمى تلك التي فاقت بطولة روما ²

02- الصورة الشعرية :

إذا أردنا أن نحدد مفهوما معينا للصورة الشعرية أو الأدبية كما يسميها البعض ، فيمكن القول أنها جانب فني يتحقق للشاعر من خلال لغته ، وفكره وإحساسه ، وهي التي تتولى مهمة « تجسيم الأفكار التجريدية ، والخواطر النفسية ، والمشاهد الطبيعية حسية كانت أم خيالية ، وتساهم بذلك بنقل التجربة الشعرية ذات الصدق الفني لتولد شعورا حيا وقريرا من الواقع .» ³ ، ومن هنا نستشف قوة الرابطة والعلاقة بين اللغة الشعرية ، والصورة الشعرية ، ذلك أن الأولى هي أداة الشاعر من أجل أن يصل إلى الثانية بنجاح ، فالصورة التي يكونها « خيال الشاعر من وسائل الشاعر في استخدام اللغة على نحو يضمن له انتقال مشاعره (انفعالاته وأفكاره) إلينا على نحو مؤثر .» ⁴

وإذا كانت الصورة الشعرية التي تكفل للشاعر نقل تجربته على مقدار من الصدق الفني ، فإنها من جانب آخر تضع القارئ أمام مجموع اللوحات الفنية التي تتكاتف هذه الصورة لرسمها ومعنى ذلك « أنك حين تقرأ للشاعر قطعة من شعره ، يكون الشيء وكأنه مرسوم أمامك بوضوح شديد ومجسم

1. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 188

*. صاحب ابن تومرت هو عبد المؤمن بن علي الندرومي ، وقد أسسا معا الدولة الموحدية

2. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 188

3. د. بدوي طبانة - التيارات المعاصرة في النقد الأدبي - دار الثقافة - بيروت - لبنان - ص 368

4. د. عز الدين إسماعيل - الأدب وفنونه دراسة ونقد الأدب - ملتزم الطبع والنشر - دار الفكر العربي - ص 103

بارز اتجاه بصرك .¹ ، وهذا الربط بين الصور المختلفة يتيح للشاعر أن يمزج عدة ظروف وعوامل تمنحه القدرة على « التعبير عن الغامض وعن الشائع ، وتتدخل هنا العوامل اللالغوية كالخلقية والاجتماعية والتاريخية ، وبذلك يستطيع الشاعر أن يخاطب ترقبا عاما شائعا ، قوامه الحواس المختلفة »² ، لذلك يتفق الدارسون المعاصرون على أن « التصوير في الأدب نتيجة لتعاون كل الحواس ، وكل الملكات ؛ والشاعر المصور حين يربط بين الأشياء يثير العواطف الأخلاقية والمعاني الفكرية ... فالصورة منهج - فوق المنطق - لبيان حقائق الأشياء . »³ .

وتلعب الصورة الشعرية دورا مهما لدى الشاعر وعلى أصعدة مختلفة :

فعلى المستوى النفسي فالصورة بالنسبة للشاعر هي المعبر والجسر الذي من خلاله يتمكن من التعبير عن « حالة نفسية معينة يعانيتها الشاعر إزاء موقف معين من مواقفه مع الحياة . »⁴ ، اما على المستوى الفني فتمثل عنصرا أساسيا في تشكيل مصداقية الشعر ، وتسمو به إلى أسمى درجات استثمار قدرات الشاعر حين نعدّها « جوهر فن الشعر ، فهي التي تحرر الطاقات الشعرية الكامنة في العالم والتي يحتفظ بها النثر أسيرة لديه . »⁵ ، كما تؤدي الصورة الشعرية مقصدا اجتماعيا باعتبارها إحدى الوسائل التي « يقنع بها الشاعر جماهيره التي تستمع إليه ، ويدفعها إلى فعل أو انفعال ، يتلاءم مع الجانب النفعي المباشر للشعر ، أو تكون الصورة إحدى الوسائل التي يظهر بها الشاعر براعته الحرفية ، فيبهر بطرافة صورة المستمعين ، ويستحوذ على إعجابهم بدقة وصفه وبراعته في محاكاة الأشياء . »⁶ .

أما من الناحية الإنسانية فقد ارتبطت الصورة دائما بموقف من الحياة ، ودلت على خبرة الشاعر ونظراته الدقيقة إلى الأمور ، فنقلت مشاهد حية ، كما لخصت خبرة إنسانية ، كما أنها قدمت لها « تجسيما واضحا ، يثير في نفوسنا تلك المعاني الإنسانية ، وهذه الصورة يستغلها الشاعر دائما في أن

1. د. علي علي مصطفى صبح - من الأدب الحديث في ضوء المذاهب الأدبية والنقدية - دار المريخ للنشر - الرياض - وديوان المطبوعات الجامعية - ط 1985 - ص 54

2. د. مصطفى السعدني - المدخل اللغوي في نقد الشعر - قراءة بنيوية - منشأة المعارف الإسكندرية - مصر - ص 148

3. د. مصطفى ناصف - الصورة الأدبية - ط 2 - دار الأندلس - بيروت - 1981 - ص 8

4. محمد زكي العشماوي - قضايا النقد الأدبي المعاصر - ط الهيئة المصرية العامة للكتاب 1975 - ص 108

5. صلاح فضل - نظرية البنائية في النقد الأدبي - ط مؤسسة مختار - القاهرة 1992 - ص 356

6. جابر عصفور - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي - ط دار المعارف - 1977 - ص 367 ، 368

يدفع بالمعنى المجرد إلى نفس القارئ من خلال تلك الصورة الحسية والموحية.¹ ، وبتعدد الأدوار التي تؤديها الصورة ، فإن عديد المناهج التي درست هذه الأدوار تتفق على كونها تؤدي الأدوار على اختلافها من أجل غاية واحدة هي توصيل المعنى وإن اختلفت هذه المناهج في أن « بعضها يرى التوصيل مباشرا ، بسيطا تقريريا ، بينما يراه البعض الآخر إيحائيا ، غير مباشر ومعقدا . أي أن المناهج تتفق على كون الصورة تفعل في مستوى واحد هو المستوى الدلالي ، وترى أن لها بعدا واحدا هو بعد وظيفتها المعنوية.²»

وإذا كان الاتفاق في جوانب والاختلاف في جوانب أخرى ، فإنه من الطبيعي أن يكون هناك حديث عن بعض معايير جمالية هذه الصورة ؛ فمثلا لا بد أن نضع في الاعتبار أن « الصورة الشعرية كيان عضوي حتى تتولد بالحدي النافذ إلى روح الأشياء لتستطلع ضميرها ، وإنها لا تقوم على حشد الإضافات والتأويل والاستطراد ، ومزج الألفاظ الحسية بالألفاظ الذهنية التجريدية ، كما أنها إذ تتناول بالإيضاح ، تتفكك أوصالها ، وتفقد إيحائيتها.³» ، بمعنى أن الصورة كيان مركز حول عمق الشيء ، وهي صياغة مكثفة وكلية لا تقبل الشرح والإطالة لأن ذلك يفقدها سحرها وجماليتها .

كما أن التجربة بعمقها أو بسطحيتها لا تؤثر في جمالية الصورة التي عبر بها الشاعر عن هذه التجربة لأن المهم أن يوفق في تجسيد هذه التجربة ، وينقلها من غموض الشعور الذي لا شكل له ولا حدود ، إلى أشكال وحدود تضع القارئ في أجواء شبيهة بالأجواء التي عاناها.⁴

ومما يكسب الصورة قوة الإيحاء كما سبق الذكر الابتعاد عن التفاصيل بالإضافة إلى ذلك « إطلاق الكثافة والحرية للغة الشعرية ، لتتفجر بالإيحاء الذي يعتمد على الصورة الفنية كالاستعارة وغيرها . وحياة الألفاظ الطويلة ، وما تبلور فيها من مآثور أدبي وتاريخي وأسطوري ، كل ذلك يكسبها تلك المقدرة الرمزية الإيحائية ، والغموض والتعقيد مما يزيد عظمة اللفظ والرمز.⁵»

1. د.عز الدين إسماعيل - الأدب وفنونه - ص 125 ، 126

2. كمال أبو ديب - جدلية الخفاء والتجلي - دراسات بنيوية في الشعر - دار العلم للملايين - بيروت - ط3 - 1984 - ص 21

3. إيليا الحاوي - في النقد والأدب - ج5 - دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط1 - 1980 - ص 288

4. إيليا الحاوي - في النقد والأدب - ص 91

5. عز الدين إسماعيل - الأسس الجمالية في النقد العربي - دار الفكر العربي - ط3 - 1984 - ص 355

إن ميزة الإيحاء هذه ، تجعل القارئ أمام رغبة ملحة على استنطاق هذه الصور وفهم المعاني الحقيقية المتخفية وراء الألفاظ لأن « المعاني إذا جاءت خفية أو مقنعة تترك النفس في تطلع دائم لاستكناه حقيقتها ، وإدراك ما يراد منها ، والإسراف في الوضوح والصراحة والتعيين يفقد الفن سحر الخفاء ، ويفقد الشعر ثلاثة أرباع المتعة التي يشعر بها القارئ وهو يضرب رويدا رويدا في أودية الحس ، ويذهب قدرة الشعر على الإيحاء ، التي تميزه عن النثر »¹ ، بهذا يتضح أن الصورة الشعرية والتي يعبر عنها بالصورة الفنية أو الصورة الكلية لا بد أن تتكون من أجزاء وأطراف ، وشرط جمالها أن تكون الأجزاء كاملة بحيث ترسم صورة واضحة ومتألفة يشيع فيها جو معين ، كما لا يكون بينها تنافر ، كما يشترك أن تكون أطرافها الصوت واللون والحركة مُمثلة وظاهرة توضح فكرة الشاعر وتنقل عاطفته .

وإذا كانت الصورة تعني الدلالة على الأشياء القابلة للفهم والرؤية البشرية ، وهي دلالة أولية « فإنها اكتسبت لدى علماء النفس دلالات أوسع ، شملت مدركات الحواس الأخرى كحاسة السمع والشم والذوق واللمس ».²

وبهذا تصبح الصورة التي يُعمل فيها الشاعر خياله إما صورة كلية والتي سبق ذكرها ، وتشترك فيها مختلف الحواس لتصبح جسما متكاملا ، بالإضافة إلى الصور الجزئية (البلاغية) التي تتكاتف لخدمة الهدف العام من التصوير الشعري وجعل خيال الشاعر أكثر خصوبة ليرتقي إلى رؤية الأشياء غير « رؤيتنا لها ، وإنما يرى روحه ، وكأن كل شيء تحت بصره له وجود آخر غير الوجود الظاهري الذي نراه ، أو كأن فيه لحنا من الحياة لا نسمعه ، إنما يسمعه هو بأذنه المرهفة ».³

وإذا جئنا الآن لتفحص كل ذلك في الديوان يمكن أن نعثر على سمات التصوير الفني التالية :

إذا أردنا أن نكون في الإطار العام للصورة الفنية في ديوان عبد القادر بن محمد وفي الشعر الجزائري عموما فإن الدراسات النقدية والأدبية ترى أن الشعراء الجزائريين اعتمدوا في « بناء الصورة على الوسائل المجازية التقليدية في الغالب ، وقد تطورت هذه الوسائل عند بعض الشعراء ، ومنهم من يعمد إلى إضفاء الحالات الشعورية على صوره ، وابتكار صور الطبيعة والصور الكلية والمزج بين الحواس ،

1. بدوي طبانة - قضايا النقد الأدبي - دار المريح للنشر - الرياض - 1404 هـ - 1974 م - ص 129

2. د. شفيق السيد - التعبير البياني - مكتبة الشباب - القاهرة - ط1 - 1977 - ص 158

3. شوقي ضيف - في النقد الأدبي - دار المعارف - مصر - ط3 - ص 180

إلا الشاعر لم يقف عند هذا الحد ، فقد اعتمد أيضا على البناء الواقعي ، باستخدام صورة خيالية من أي استخدام مجازي للكلمات ، ومع ذلك تؤدي وظيفتها الفنية كأحسن ما يكون الأداء.¹

1/ الصورة الكلية : أن هذا النوع من الصور هو ما يجعل القارئ يشاهد مجموعة من اللوحات والمشاهد الفنية التي تستهدف عاطفته وحواسه وتخطب فيه الحس الذوقي والفني في قراءة هذه الصور ، وإدراك مكامن الحياة والجمال فيها لأن تجعله « يرى الأشياء في ضوء جديد ».²

وبالحديث عن الحواس فإن هناك الأنواع التالية في الديوان :

1- الصورة البصرية : لقد حظيت هذه الصورة باهتمام الدارسين منذ القدم حتى إن البالغين في دراساتهم الأولى لم يكونوا يعتبرون أن الصور الفنية تخاطب غير حاسة البصر. بمعنى « أن عملية التخييل الشعري نفسها تقوم على تقديم صور بصرية أساسا ».³

وإن أردنا أن نتتبع بعض نماذج هذه الصورة فهي متواجدة مع أنها تظهر أكثر حين يجيد الشاعر الوصف أو التعبير عن معاناته ، أو حين يلجأ إلى مظاهر الطبيعة كما في قوله :

واسألي النيل والبلابل والأزهار والشمس والهلال وعودي⁴

فالعين تتيه بين كثرة ألوان الزهر وإشراقه ، وبين شساعة النيل ولمعان مياهه تحت بريق الشمس ، وضوء القمر ، فهذه اللوحة جمعت بين حركة النيل ، ولمعان الماء والضوء لتشكيل مشهدا مشعا .

وفي صورة أخرى يرسم لنا مشهدا - مع خلوه من الحركة - فهو يقدم غاية أخرى هي إثبات الصمود والتحدي ، ومجابهة قوة الزمن وبطش الإنسان :

صخورك رمز للصلاية و الفدا وأرضك أرض الخير والبركات

جسورك من فوق "الرمال" بواخر مروعة مهتزة الجنبات⁵

1. زياد سودة - الخطاب الشعري الجزائري المعاصر - <http://thawra.alwehda.gov.sy/print-veiw-asp07/01/2008>

2. جابر عصفور - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي - ص 310

3. المصدر نفسه - ص 312

4. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 235

5. المصدر سابق - ص 189

وإن كان من حركة في الصورة فهي حركة الرمال التي يعني بها الشاعر كل محاولات التأمر التي تحاك تحت الستار .

ثم يتحسر على وفاة صديقه الذي لما يتم مرحلة الشباب والعنفوان ، ثم يصور لنا هذه المرحلة وكأنها غصن غصن قهاوى بفعل الرياح ، فتناثر ما كان به من زهر وندى على ورقه وقت الصباح الذي يدل على الباكورة من كل شيء وهو هنا عمر الشاب ، وتساقطت أحلامه مثل الذي سقط على الغصن وكأنها طيور مكسورة الجناح ، وفي هذه الصورة ما يحرك البصر من لون الخضرة في غصن الشباب ، وجما زهره وورقه ، ولمعان الندى مع شعاع الصبح ، والحركة تبدو لنا في قهاوي وانهميار كل شيء :

لهفي على ذاك الشباب وحسنه عصفت على غصن الشباب رياح
فتحطمت أزهاره وتساقطت والطل طل والصباح صباح
وهوت مع الأحلام آمال كما قهاوي الطيور إذا أصيب جناح¹

و تسلب الطبيعة قلب الشاعر فيأخذ في وصفها ، قال متحدثا عن جمال الصحراء :

يا موطن الصحراء حسنك فاتن أذكر قلوب العاشقين قديما
الدور ناصعة البياض كجوهر تؤوي اللبابة بظلمها والريما
والرمل وهاج كأن حبوبه أضحت من النور البهيج نجوما
والنخل مخضر يمس بتمره حول الخيام مؤاننا ونديما²

هذه الصورة البصرية تعج بكل عناصر اللون والحركة واللمعان وحتى الأصوات ، فهي ملونة ببياض القباب ، واصفرار اللون الذهبي ولمعانه لحبات الرمال ، تشع ببريق الشمس والنجوم ، تتماوج بخضرة نخلها ، أما الحركة فنراها في تمايل عراجين التمر مشبهها هذه التمور بسمير ومؤانس يحكي ويحدث أهل الواحة .

1. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 239

2. المصدر سابق- ص 303

ومن نلاحظه على هذه الصور هو أنها ذات طابع وصفي في معظمها ولعل ذلك يعود إلى ولوع الشاعر بالطبيعة لأن يجد ضالته بها على غرار باقي الشعراء .

2- الصورة السمعية : لطالما أحس الشاعر العربي بالصوت فيثير شجنه أحيانا ، أو حنينه أحيانا ، فيدفعه ذلك إلى حشد صور تتدفق جمالا ، ولأن حاسة السمع « تتعلق بالأصوات ترد على الأذن ، فيتحول المسموع إلى فكرة ، وربما سمعت الأذن بلا صوت ، كحديث النفس ، وهاتف القلب ، والوحي المشير ، فالصمت له نأمة ، والضمير له أذن ، والعين قد تسمع بالنظر ، والأنف قد يشم الصوت ، ويحيله إلى مدركه الأصيل¹ .

وتأتي الصورة السمعية في المرتبة الثانية من اهتمامات الشعراء بعد سابقتها وهذا بشهادة الدارسين والنقاد ذلك أن الصورة الأدبية ليست « غايتها الوضوح البصري أو الحسي الدقيق ، من الحق أن ملامح الشعر ، أحيانا ، ذات طابع حسي ؛ فالفن ، كما يقال ، إذ يجعل من المعنى حسيا عيانيا إنما يريد أن يجعل الإحساس خصبا ، وأن يخرج منف فكرا ، والشاعر إذ يعتمد على النواحي البصرية والسمعية (أكثر من اعتماده على الحواس الأخرى) إنما يريد أن يعبر الحسي إلى الخيالي والفكري² . » أي أن الظاهر يكون حسيا ، والمبتغى يراد منه الوصول إلى الفكرة والمغزى .

وفي الأبيات التالية نسمع صوت طلب الغوث والشكوى إلى الله من طرف الشاعر ولكنه أسمعننا نوح الحمائم ، وبكاء الأماني في قلب الشاعر :

رب ناحت حمائم السلم لما روعتها "ذرية" لا تطاق !!

واستغاثت بك الأماني ونادت فأعادت نداءها الآفاق³

ويمكن أن يتسلل إلى أسماعنا وأذهاننا صوت دوي القنابل الذرية ، وكذا صدى أصوات الاستغاثة وطلب الرحمة .

ونسمع هنا أيضا أنين الشاعر وحسرتة على فقد الصباح ، فتكسر قلبه حزنا ، وناداه شوقا إلى الأمل :

1.د.علي شلق - السماع في الشعر العربي - دار الأندلس - ط1 - 1404 هـ - 1984 م - ص 5

2.مصطفى ناصف - الصورة الأدبية - ص 138

3. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 54

رنة رجوعها الشاعر أحمد عندها الوجد تلاشى وتبدد

ذكرتني صحتي رغم النوى ليت ذاك اللحن منها يتجدد

لا تقل أزعجني الدهر ولا حطم اليأس فؤادي وتمرد

أرجع الآمال للقب الذي بات في جوف الليالي يتنهَّد¹

نسمع صوت الأنين ، ولحن الصحبة ، وصوت انكسار القلب وكأنه شيء مادي ، ثم يعود هذا القلب ويصدر الآهات والتنهدات وكأنه إنسان يتألم .

أما هذا البيت فهو يتنقل بنا من المعنى الحسي لصوت بكاء الفضيلة، إلى المعنى الفكري الذي يهدف إليه الشاعر ، وهو هجران الناس للأخلاق السامية والفضائل الشاملة :

إن الفضيلة تبكي وهي سائرة بين العباد ترى من قال أحميها²

ويعزف لنا الشاعر سمفونية عذبا رجع صداها ذلك الليل الذي ناجاه ، فأسمعنا أرق الألحان ، وإن كان في رقتها صدى العذاب الذي كان يمزق أحشاء الشاعر ، ويذيق قلبه أنواع الهموم :

يا شاعر النعمات قلبك قد سما حيران نحن حدائقنا وقصوري

أسمعته نغم الهموم وقد علا من صدر مسكين وصدر فقير

وصدى العذاب وقد تردد في الدجى من قلب مظلوم وقلب ضير

وضعته عودي ونغمة أنجومي تتلو جمال عوالي وسريري³

ونلاحظ أن الصوت الذي ينبعث من هذه الأبيات ، إنما هو صوت يصور لنا الحالة النفسية والوجدانية للشاعر ، ونحن حين نسمعه ندرك ما يحن إليه الشاعر وما يصبو إليه قلبه من آمال وأحلام ترقى به إلى عالم فوقي هو عالم الحقيقة ، ذلك لأن الصوت في الشعر العربي عرف بتميزه في تقديم « صورة للنفس ، ييوح بالحب والوصال ، ويلقي على مجرى دم السامع مناخا يشتهي ولقاء البعيد

1. المصدر السابق - ص 217

2. المصدر نفسه - ص 285

3. المصدر سابق - ص 248

يقترّب ، ويعوض عن ناء مفتقد ، وقد يرفع الصوت سامعه إلى آفاق التجلي ، حيث الشهود والغياب في عالم الحقيقة .¹

3- الصورة الشمية : إن هذا النوع من الصور يتداخل إلى حد كبير مع الصور السابقة ، وهذا يتضح من خلال تضافر هذه الحواس واشتراكها من أجل بناء إدراك كلي ومشترك للصورة ، فقد تمهد إحداها للوصول بالأخرى إلى إدراك وتصور المشهد أو المعنى الذي يرمي إليه الشاعر ، فالحواس « تشترك في الإدراك وتنوب واحدة عن أخرى ، وقد يتجاوزها المدرك إلى كل ما هو ذهني ، وربما شمت العين مكان الأنف ، وربما تمثل للأنف بالرائحة ما يتمثل للعين أو سائر الحواس الأخرى .² ، وهذا يعني أن إدراك حاسة معينة قد يسلم الذهن إلى تصور صورة أخرى وبجاسة أخرى ، وتلك « مرتبة من مراتب الإدراك بالحس التي تؤدي إلى معرفة فتوح بشأن المحسوسات لا تفترق به حاسة عن أخرى وربما اشتتم الإنسان عطرا من مجهول أو من شيء لا لون له ولا ريح .³

ففي قوله مثلا : يأتينا الخلود والجمال من جوف الظلام ولا نتعرفه إلا من خلال عبقه ، في حين يأتي الصبح حاملا عبيره ونسيمه :

ماذا قطفت من الظلام وسحره ومن الجمال وروضه المعطر
أعود لي بندى الصباح ونوره ونسيمه وأريج له لنشوري⁴

نلاحظ هنا أن الصورة البصرية لها وجود ، وهذا ما يعزز الرأي السابق الذي يجزم باشتراك الحواس في إدراك الصورة .

وإذا كانت في القول التالي الصورة محملة بعقب الزهور في النسيم ، فإن هذه الصورة التي استقرت في الذهن بجاسة الشم ، فإن القارئ يصل إلى الفكرة التي يريدها الشاعر من خلال مجيء السلام ، والخصب والازدهار لكل البشر :

إذا بدا النسيم في الهبوب

1.د.علي شلق - السماع في الشعر العربي - ص 5

2. د. علي شلق - الشم في الشعر العربي - دار الأندلس - ط1 - 1404 هـ - 1984 م - ص 6

3. المصدر نفسه - ص 5

4. عبد القادر بن محمد - الديوان - 346

وحمل الأزهار للشعوب

لكن بشرط أن يكون ها هنا

فصل الربيع قد أتانا بالهنا !¹

وفي قصيدة أخرى ضمنها الفخر بالشهداء ، وعبر عن مكانة دمائهم الزكية ودورها في توحيد صفوف الشعب :

توحد بيننا شرقا وغربا ضحايا الحرب في زمن القتال

دم الشهداء عرق أريحي تضوع مسكه فوق الجبال²

فقد أسند إلى صورة الدم الحمراء التي ندركها بالبصر عطر المسك لتتضح أكثر الصورة التي أراد الشاعر أن يوصل معناها .

وينقل إلينا واحدة من ذكريات طفولته ، حين كان يرتاد الكتاب مع أقرانه :

ونقرأ القرآن في الألواح ...

نمحوه بعد الحفظ بالصلصال ،

نكتبه بقلم من قصب

وبمداد الصمغ دون نصب³

نحن نعلم ما تملك دور الكتاب من هالة يكبرها كل من ارتادها ، فالقارئ يشتم رائحة اللوح ، والصلصال ، أما القصب والصمغ فرائحتهما توحى بالطبيعة التي طالما كانت يد الإنسان حتى وهو يطلب العلم ، وفي كل هذا تتداخل أصوات الأطفال وهم يتلون القرآن ، وحركاتهم الصبيانية وهم يحون ألواحهم بتراب الصلصال الأصفر .

1. المصدر سابق - ص 202

2. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 58

3. المصدر سابق - ص 124

وإن كان هنا صور لنا مشهد الحياة في بساطتها وطبيعتها ، فإنه صور لنا في هذه الأبيات بشاعة الدمار الذي ألحقه المستعمر ، ورائحة البارود والموت تملأ الأرجاء :

وإذا المدفع المدمر يدوي فاستجابت لهوله الآفاق

وإذا الطائرات تعلو وتهوي والبرايا إلى المنايا تساق

راميات مقنبلات قرانا "بنبلم" نيرانه لا تطاق¹

ويمكن لنا في الأبيات التالية أن نؤكد أن الحواس تتضافر وتتداخل من أجل بناء الصورة الحقيقية للمعنى المتخيل ، يقول واصفا جمال الكون :

فمن كل غريد ومن كل ساجع ومن كل مداح وكل منشد

ومن كل رقرق ومن كل سلسل ومن كل شلال ومن كل مورد

ومن كل فواح أريج عبيره ومن كل وضاح بهيج مورد

ومن كل دان قطفه لك يانع شهبي على تلك الغصون منضد

ومن كل نور كالصباح مورد وكل شعاع كالأصيل معسجد²

ومع أن لغة الشاعر كانت مباشرة ، وسهلة في رسم الصور ، وإبداع المشاهد فقد استطاع أن يصل إلى إحساس القراء ، ويتمكن الواحد منا من فتح المجال لمخيلته بالاعتماد على هذه اللغة في بساطتها للوصول إلى معاني ومقاصد الشاعر .

الصورة بين التشخيص والتجسيد :

إذا كانت الصورة هي نتاج عمل خيال الشاعر ، وثمره إحساسه وتجربته بموقف معين ، فإن عمل مخيلته ليس بالضرورة نقل الأشياء والوقائع كما هي وإلا صار ذلك نسخا لا خيالا ، إنما تظهر فاعلية الخيال في « إعادة التشكيل ، واكتشاف العلاقات الكامنة بين الظواهر ، والجمع بين العناصر المتضادة أو المتباعدة في وحدة ، على أن تجمع الإحساسات المتباينة ، وتمزجها وتؤلف بينها في

1.المصدر السابق - ص 53

2.المصدر نفسه - ص 49

علاقات ، لا توجد خارج حدود الصورة ولا يمكن فهمها أو تقديرها ، إلا بفهم طبيعة الخيال ذاته ، باعتباره نشاط ذهني خلاقاً¹ ، وعلى هذا الأساس يتجلى لنا أن الشاعر بإمكانه أن يقلب الصور والمعاني كيفما يملئ عليه خياله ، فبمقدوره أن يعبر بالمحسوس عن المعنوي ، بمعنى أن يصبح ما كان في أذهاننا معنى مجرداً صورياً شيئاً محسوساً يرى ويلمس ولعل هذا ما عبر عنه الدارسون بـ " التجسيم " ، فإن عدنا إلى بداية تشكل مدركات العقل ، فإنه « لا شيء فيه لم يدخل بادئ الأمر من سبيل الحواس بوجه ما ، وليست حالاتنا الروحية ، في متناول التفكير ، بمعزل عن ذلك الحسي الآسر ، لذلك نعبر عن المجرد في حدود المجسم ، ونصور غير المؤلف بوساطة المؤلف ، ونعبد غير الحسي بحدود حسية . »² ، وهنا تتضح لنا العلاقة بعمقها في بناء مسار من خلاله يقدم المعنوي في صورة المجسم ، كما ان مثل هذه الصور تسعى إلى إثبات و « ترسيخ الإطار العاطفي ، بحيث نتجاوز عتبات الحسي والمعنوي ، ونكتفي بمقولة لا هي حسية ولا هي معنوية خالصة ، وإنما هي الدنيا السحرية التي تجمع الظاهر والباطن ، الحسي والمعنوي . »³ ، بمعنى أن إدراكنا لا بد أن يقف موقف الوسط على تخوم هذه العلاقة ، وأن يحافظ على الحكم بأنها تأخذ من طرف كل جانب ، أي تأخذ من الحسي وتلبس من المعنوي ، ومن أمثلة التجسيم ما قاله الشاعر في مسيرة الجزائر عن العلم وكيف صورته ينتقل إلى صدور الطلاب والساعين لتحصيله :

يجرون في غدوهم ،

وفي الرواح ! ...

على رنين المقلّمات !

يرتشفون العلم كالماء القراح ،

ويستعدون لخوض المعركة⁴

1. جابر عصفور - الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي - ص 309

2. مصطفى ناصف - الصورة الأدبية - ص 129

3. المصدر نفسه - ص 136 ، 137

4. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 138

يظهر لنا جلياً أن الشاعر قدم لنا " العلم " الذي استقر في ذهن كل واحد منا على أنه قيمة إنسانية معنوية ، في ثوب جسم محسوس نلمسه ونشربه ، قدم العلم في صورة الماء الزلال النظيف وهو ينساب إلى عقول الأطفال .

وفي قصيدة أخرى قدم لنا صورة وإن كانت في بساطتها بساطة اللغة إلا أنها تحمل معاني نقل المجرد إلى ذهن القارئ في ثوب المحسوس في قوله :

ورأى بالعين والقلب معا ووعى الحكمة من كل اغتراب

وجنى من كل جبل عبرة إن في العبرة خيراً للشباب¹

هنا قدم لنا معاني العبارة التي تعرف لدينا على أنه تصور ذهني مجرد مفاده معرفة نتائج الأمور ، واستثمارها في مواقف جديدة ، وألبس هذا المعنى المجرد ثوب القطوف والثمار التي يجنيها العامل بعد موسم من الجهد والتعب ، ولعل هذه هي العلاقة بينهما ، لأن العبارة من الأمور لا تؤخذ ولا تعرف إلا بعد إعمال الفكر والعقل في دقائقها ونتائجها .

وعلى قلة هذا النوع من الصور ، فإن صور التشخيص كانت ذات حظ أوفر في الديوان ، وقد اتفق الدارسون أن التشخيص كان مرتبطاً بالتموج العاطفي في النفس الإنسانية ، أي أن الإنسان يحاول أن يربط كل ما يحيط به بطبيعته وخصائصه لأنه « صفة تتسرب في كيانه عميقة مغللة لأسباب قد يكون من بينها بقايا الاعتقادات القديمة في أنفسنا ، في شكل غامض ، وحاجة الإنسان إلى وثاق يربطه بالطبيعة . »² ، ولعل مفهوم التشخيص من خلال اسمه يتضح بأن الشاعر يحمل عنصر أو عناصر صورته مواصفات إنسانية وسلوكات بشرية وجعل هذه العناصر وكأنها أشخاص تحس وتنفع ، تحب وتكره ، تفرح وتحزن ، وغيرها من سلوكات لها علاقة بالإنسان ، ولنا في بعض الشواهد من الديوان أمثلة ، هذه الأمثلة تبدي لنا وجهة الشاعر نحو التشخيص دون التجسيم :

أقبلت بين موكب الأحرار مثل شمس وضیئة الأنوار

يستحي من جمالها كل ورد فتح الليل وجهه للنهار

1. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 169

2. مصطفى ناصف - الصورة الأدبية - ص 136

فإذا النساء يرسلن ألحانا على الحاضرين والزوار¹

القارئ من الوهلة الأولى يتبادر إلى ذهنه أن الشاعر يصف موكب زفاف تظهر وسطه العروس على قدر من الجمال ، وإن كانت هذه الصفات من خصائص البشر فإن الشاعر في الحقيقة لو يقصد عروس بشر إنما قصد الحرية التي جاءت تحمل للشعب بشائرها فاحتفل جميع فئاته بقدمها ، وقد أسقط الصفات السابقة عليها لما لها من مكانة تجعل الشاعر يخرجها من إطارها المعنوي لتصبح إنسانا جميلا هو محط اهتمام الناس ، ومركز فرحتهم .

وفي موضوع آخر يتغزل بالحرية ويصورها لنا غيداء حسناء قام الظالمون بأسرها وسببها ، فعلى من أراد الفوز بها أن يقاتلهم لأجلها :

وأرانا غادة قدسية فاقت الغيد جلالا واحتشاما

زأها الله بحسن فاتن سجد الخلق لمرآه احتراما

قد سبها العليج ظلما فاغسلوا بالدم العار فإن العار داما

فاز بالغادة من هب لها ورأى في نيلها الموت غراما²

ثم يصور لنا في قصيدة أخرى فرحته الشديدة وأمانيه السعيدة بقدم المولد الذي خلص البشرية من ظلام الجاهلية إلى نور الإسلام ، صور لنا هذه الأمانى وكأنها صبايا صغيرات يجرين حوله فرحات يحمل ما يعقب بعبير الزهر ، وما يلذ من الخيرات ، تظهر البشرية على وجوههن ويهللن بقدم هذا الوليد:

والأمانى يطفن بي شاديات حولهن الزهور والأرزاق

حاملات من المطاعم أطباقا تليها من الجني أطباق

باسمات مبشرات بمولود كريم أجله الخلاق

الأراضي على الوليد تصلي والسموات كلها إشراق¹

1. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 95

2. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 94

وينطلق إلى الطبيعة يحدث مظاهرها ، فها هو يوجه خطابه إلى جبال الجزائر وكأنها رجال شهود على أحداث الثورة :

إيه "أوراس" حدث الشعب عمن رفعوا راية الكفاح وثاروا

حدثني يا جبال "جرجر" عمن أطلقوا النار في الذرى وأغاروا

إيه "يا حمة النمامشة" الأحرار كم جاهدت بك الأحرار²

ويجعل من الليل إنسانا يسهر معه ، ويمضي رففته أوقات حزينة يشكو إليه ، وينفث من صدره إليه أحزانه ، فيتفاعل معه سميره ويتجاوب :

يا ليل إنك مؤنسي و سميري ومخفف يا ليل وجد ضميري

أشكو إليك توجعي وتنهدي فتجيبني بتوجع وزفيري

وتزِيل عن قلبي الصباة بالمنى وأزِيل عنك صباة بجويري³

ويتأسف الشاعر على بعض الأحوال التي آلت إليها سلوكات وأخلاق الناس ، ومن ذلك تركهم الفضيلة وابتعادهم عنها ، وشيوع الرذيلة في أوساط المجتمع ، وهنا أراد الشاعر لقيمة الفضيلة أن تكون في صورة فتاة صغيرة تبكي طلبا للعون والرحمة ، لكن لا جواب ، فقد أصبحت عرضة للاستهزاء والجفاء :

إن الفضيلة تبكي وهي سائرة بين العباد ترى من قال : أحميها

جل العباد مضوا مستهزئين بها لا من يخاطبها لا من يدانيها

يا رب من لي بمن يرثي لأدمعها منهم ومن شر هذا الوقت يكفيها⁴

1. المصدر سابق - ص 51

2. المصدر نفسه - ص 99

3. المصدر نفسه - ص 345

4. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 285

وعلى العموم ، فإن جل هذه الصور كانت لتبرز قدرة الشاعر على التنويع في التصوير الفني ، وإن كان معظم الديوان في لغة مباشرة ، فإنه استطاع أن يجيد تخيل المعاني ، وجعلها تتماوج على حدود الوسط بين الحقيقة والخيال .

أما من الناحية البلاغية فيمكن أن تنبين ملاحظها فيما يلي :

2/ الصورة البلاغية (الجزئية) :

إن الصورة الشعرية عمل تركيبي يطلق على جزئيات العمل الأدبي التي « تشكل وحدته وتكامله ، ومن هذه الوحدات الجزئية تؤلف الصورة الكلية ، وبها يتم التألف والتآزر من أجل نقل التجربة نقلا فنيا صادقا وواقعا .¹ » ويجمع الدارسون أن الصورة الجزئية تشمل الصورة البلاغية من تشبيه واستعارة وكناية وجاز مرسل ، وما يتشكل بين هذه الصور من علاقات تدعم التشكل الكلي والجمالي لصورة فنية كاملة عن تجربة الشاعر .

أ- التشبيه : يعتبر التشبيه نوعا قويا من الوصف ، لأنه يهدف إلى تقريب الموصوف إلى ذهن القارئ وذلك بعقد المشابهة بصورة أخرى يريدتها المتكلم ويدركها القارئ ، كما أنه صورة بارعة ينقلنا بها صاحبها إلى فكرة بعيدة ، وذلك بقدرته على استخدام الخيال الفني .

وعند الشعراء العرب القدامى احتل التشبيه مكانة أولى في الحكم على أفضلية الشاعر من عدمها ، فقد كانوا يمايزون بين الشعراء « في الجودة والحسن بشرف المعنى وصحته ، وجزالة اللفظ واستقامته ، وتسلم السبق فيه لمن وصف فأصاب ، وشبه فقارب ، ولمن كثرت سوائر أمثاله وشوارد أبياته ، ولم تكن تعباً بغير ذلك إذا حصل لها عمود الشعر ونظام القريض .² » ، ويجزم بهذا القول أغلب النقاد العرب ويؤكدون أن التشبيه « جارٍ كثيراً في كلام العرب ، حتى لو قال قائل : هو أكثر كلامهم ، لم يبعد .³ » ، وقد جرى في أقوال القدامى والمحدثين تعاريف للتشبيه فهناك من يرى أنه « صفة الشيء بما قاربه وما شاكله ، من جهة واحدة أو جهات كثيرة ، لا من جميع جهاته ؛ لأنه لو ناسبه مناسبة كلية لكان إياه ، فوقوع التشبيه إنما هو أبداً على الأعراض ، لا على الجواهر ؛ لأن

1. د. الصادق العيفي - النقد التطبيقي - مكتبة الوحدة العربية - الدار البيضاء - المغرب - ص 125

2. القاضي الجرجاني - الوساطة بين المتنبي وخصومه - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي - المكتبة العصرية - بيروت - صيدا - 1966 - ص 33 ، 34

3. المبرد - الكامل في اللغة والأدب - تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار الفكر العربي - ص 93

الجواهر في الأصل كلها واحد ، اختلفت أنواعها واتفقت ، فقد يشبهون الشيء بسميه ونظيره من غير جنسه .¹ ، ويبدو هذا التعريف واضحاً لبعض الشروط التي تسمح بعقد علاقة المشاركة بين الشيئين فيحمل هنا « دلالة المشاركة بين الشيئين في أمور المعنى .² »

أما دارسوا العصر الحديث فلم يختلفوا عن القدماء ، فالتشبيه يظل قائماً دائماً بين طرفين إذ أنه « يتخذ جزءاً من الواقع التقريري المتهادن ويقرنه بجزء أبلغ منه في ظاهرة أخرى ، وبذلك يرفعه عن مستوى التقرير الحسي والواقعي .³ »

والتشبيه هو الوسيلة التي يوصل بها الشاعر تجربته بمحاولته وصفها ومقاربتها بشيء يشترك معها وعادة ما يكون أكثر اعتيادية عند القارئ لذلك « حين يصيب التشبيه فقد أحسن الشاعر تصوير مراده ، كأنه رام أصاب غرضه .⁴ ، وتزداد جمالية التشبيه حين يكون وجه التشبيه أقوى من المشبه به لأن ذلك مما يوضح الصورة في ذهن المتلقي ، وأكثر من ذلك حين « تتعدد وجه الشبه بين المشبه والمشبّه به ، ومرجع ذلك إلى قوة التشابه وصدق المحاكاة .⁵ ، شرط أن يكون هذا التعدد مسلماً إلى تساويها فإن هذا مما يفسد التشبيه ، لأنه قائم على « اشتراك بين شيئين في معانٍ تعمهما ويوصفان بها ، وافتراق في أشياء ينفرد كل واحد منهما عن صاحبه بصفته .⁶ »

وإن أردنا تعريفاً مبسطاً لفن التشبيه فهو يعني « إلحاق أمر (المشبه) بأمر (المشبه به) في معنى مشترك (وجه الشبه) بأداة (الكاف أو كأن أو ما في معناها) لغرض إيضاح المعنى المقصود مع الإيجاز والاختصار .⁷ » ، وبراعة الشاعر في جمال المشبه ليس في اختيار طرفي التشبيه بقدر ما هو

1. أبو علي الحسن بن رشيقي القيرواني - العمدة في صناعة الشعر ونقده - تحقيق وتعليق د. النبوي عبد الواحد شعلان - ط1 -

1420 هـ - 2000 م - مكتبة الغانجي بالقاهرة - ج1 - ص 468

2. جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني - الإيضاح في علوم البلاغة - تقديم وتبويب وشرح د. علي بوملحم - ط2 - 1992 - دار مكتبة الهلال - بيروت - لبنان - ص 189

3. إيليا الحاوي - في النقد والأدب - ج 5 - دار الكتاب اللبناني - بيروت - ط1 - 1980 - ص 59

4. د. عيسى علي العاكوب - التفكير النقدي عند العرب - دار التفكير - بيروت - لبنان - ط1 - 1997 - ص 163

5. المصدر نفسه - ص 187

6. قدامة بن جعفر - نقد الشعر - تحقيق كمال مصطفى - ط3 - مكتبة الغانجي - القاهرة - 1398 هـ - 1978 - ص 109

7. أحمد المراغي مصطفى - علوم البلاغة ، البيان والمعاني والبديع - دار القلم - بيروت - لبنان - ط2 - 1984 م - ص

قدرته في اختيار مشبه بعينه دون غيره وربطه بمشبه به معين دون غيره فيكونان « صورة لا هي المشبه وحده ولا ه المشبه وحده ، بل هي شيء جديد ينشأ من ارتباطهما ببعض في هيئة تشبيه .»¹

وهذا الارتباط ينبنى على طبيعة طرفي التشبيه ومدى وحدة انتمائهما الإدراكي ؛ ونقصد بذلك إدراج كل من المشبه والمشبه به في حقل المحسوسات ، أو في حقل المجردات ، لذلك فطرفا التشبيه «يكونان إما حسيين ، كتشبيه الخد بالورد ، ... ، وإما عقليين كما في تشبيه العلم بالحياة .»² ، وإذا كان للتشبيه في حقيقته ميزة السمو بخيال الإنسان ، إلا أن هذا الخيال يظل رهن العقل ووفق ما يمليه على صاحبه فالتشبيه هو « سمو بالواقع في الحدود التي يسيغها ويقرها العقل ، وهو أداة توحيد وفصل في آن واحد ، وحين ألم الإنسان بالتشبيه كان كأنما يحكم على الواقع الواقعي بالعقم ، ثم تجاوزه في الحاجة الحتمية الملحة للتعبير الكامل أو شبه الكامل عن النفس .»³

نعود إلى الديوان لتفحص حال التشبيه في قصائد ابن القاضي ، فنقول أنه قد حلّى قصائده في معظمها بتشبيهات رغم بساطتها فقد ساهمت في تشوية المعنى وتذكية الصور ، خاصة حين يتعلق الأمر بوصف الطبيعة أو مظاهر التجمع من أجل ترقية العلم .

فيقول متغزلاً بمدينة قسنطينة :

بنيت على شفا واد الرمال كأنك عش بارز في الجبال
وتمت على العواصم يا قسنطي بجسر فوق أشفار عوال
وبالدور التي في الليل تبدو نوافذها تلاًل كالألي
وبالأشعار أنشدتها فحول فجاءت كالعرائس في اختيال⁴

فقد شبه المدينة في علوها وحصنها بعش الباز ، وشبه اختيالها وفرحتها بالشعراء وقصائدهم بتمايل العروس في استحياء من كل من يمدحها ويشيد بجمالها .

1. منير سلطان - البديع في الشعر المتنبي - منشأة المعارف - الإسكندرية - ط 1993 - ص 119

2. القزويني - الإيضاح في علوم البلاغة - ص 193

3. إيليا الحاوي - في النقد والأدب - ص 60

4. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 57

وبنفس نبرة المدح والغزل ، وصف لنا الشاعر جمال الإسكندرية :

وزرنا حمى الإسكندرية فانجلت كما تنجلي الحساء في ملبس سحري

لقد سبق الإحسان منكم إلى الحمى كما سبق التأييد في الحرب للقطر¹

فقد شبهها بالغادة الحساء في جمال أرضها وبهائها ، وشبه مبادرتهم في الكرم والإحسان بمبادرتهم في النصر وقت العرب ، وهو تشبيه تمثيلي عقد فيه التشبيه بين صورتين .

وفي مناسبة أخرى تغنى بجمال العلم الوطني ويعده بنصر مشرق :

إن الربيع حباك خضرة فصله وبنجمك اللماع باه الأنجما

وأعارك السلم الجليل بياضه فإذا بوجهك قد بدا متبسما

أبشر فإن النصر أشرق نوره متألقا كالشمس في كبد السما²

فنفهم أن العلم مشبه في عدة جوانب : في بياضه وخضرته ، بياض السلم ، وخضرة الربيع ، وهذه التشبيهات تظهر ضمنا ، بينما التشبيه الصريح يظهر بين وضوح النصر وإشراقه ، وتألق الشمس وبريقها ، لأن كل من الطرفين يحمل الضوء ، الحرارة ، والحياة .

ويقدم لنا وصفا آخر عن مظاهر التقدم العلمي ، ألا وهو غزو الفضاء ، فقدم لنا تشبيهات تعود في مرجعيتها إلى ولوع الشاعر بحياة الطبيعة وصورها :

اليوم أصبحت الشعوب عظيمة بالعلم والعمل المفيد تسود

أقمارها في الجو مثل بواخر تطوي الفضاء وطيهن شديد

فكأنما هي في البروج كواكب وكأنها هي في العروج رعود

و كأنما ركبناها فرسانها أسد الفضاء وأنمر وفهود³

1. المصدر نفسه - ص 64

2. المصدر نفسه - ص 107

3. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 178

وهنا مجموعة من صور التشبيه ؛ حيث شبه السفن الفضائية وهي تصول في الأجواء بالبوادر وهي تشق عباب البحر ، تظهر في أعالي السماء كواكبا ، وكأن صوت محركها هدير الرعود ، وروادها فرسان أشاوس ، ومرة أخرى تظهر لنا خلفية الشاعر في استخراج المشبه به كطرف في الصورة من خياله وما ترسب في مخزون ذاكرته من صور الطبيعة .

وفي صورة أخرى يقدم لنا مشهد المدينة والضباب يكسوها ، بعروس ترفل في ثوبها الأبيض الناصع ، وهو تشبيه تمثيلي لأن الطرفين يشتركان في وضعية وصورة معينة :

وإذا أرسل الضباب عليها قطرات من الندى الهطل

خلتها كالعروس تحت حجاب من حرير مرصع بالآلي¹

ويعاني الشاعر من بعد صحبه وفراق أحبابه ، فيصور لنا هذا اليوم وكأنه ليل عابس لا نجم ولا قمر ، وإن هو اشتكى إلى هذا الليل آلامه ، رد عليه صدى الشكوى حتى ليضن أنه كاذب في شكواه إنما الليالي هي الصادقة في معاناتها :

ويوم إذا ما بان عني صاحب كليلة نحس فارقتها الكواكب

تراني وحيدا لا أكف عن البكا غريبا وقد جارت على النوائب

شكوت شجوني لليلي لعلها تحن على من بات ليلا يخاطب

فأرخت على قلبي سدول همومها كأني بصرخاتي الحزينة كاذب²

ويحدث أن يزور الشاعر بلد ، فلا يملك على نفسه وهو يشاهد وادي النيل إلا أن يصور لنا مشهدا تشخيصيا يصبح فيه النيل والأرض وكأنهما شخصان يتحادثان ، يتسامران ، ويضم أحدهما الآخر بذراعيه :

ويجري بها النيل العظيم كأنه يسامرهما منذ القرون الغواير

ويحنو عليها بالذراعين : أبيض وأزرق صاف كالآبي المناصر¹

1. المصدر السابق - ص 185

2. المصدر نفسه - ص 211

وعلى هذه الطريقة نسج الشاعر في قصائده الكثير من التشبيهات ، وعلى بساطتها فقد كانت ذات مسحة جمالية في شعره .

ب- الاستعارة : تحتل الاستعارة مكانة مهمة في بناء الصورة الشعري ، نظرا للتداخل الكبير بين دور كل منهما ، لكن « لفظ الاستعارة ، إذا حسن إدراكه ، قد يكون أهدى من لفظ الصورة ، وأن الصورة - إذا جاز الحديث المفرد عنها - لن تستقل بحال من الأحوال عن الإدراك الإستعاري »² ، وقد أقر الكثير من النقاد والبلاغيين بمكانتها ، وخصب مجالها ، وجودة فنها ، وجمال أثرها ، فعُدوها « أمد ميدانا ، وأشد اقتنانا ، وأوسع سعة وأبعد غورا ، وأذهب نجدا في الصناعة من أن تحصر فنونها ، وضروبها ، فهي تعطيك الكثير من المعاني ، حتى تخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر وتجنّي من الغصن الواحد أنواعا من الثمر »³ ، وقد عمد آخرون إلى إقرار التفاضل بينها وبين الأصل الذي اشتقت منه وهو التشبيه ويرون « أنها أعلى مرتبة من التشبيه وأقوى في المبالغة منه ، لما فيه من تناسي التشبيه وادعاء الاتحاد بين المشبه والمشبّه ، كأنهما شيء واحد يطلق عليها لفظ واحد »⁴ ، ومن البديهي أن يتعلق تعريف الاستعارة بالتشبيه كونه الأساس الذي تبنى عليه ، لذلك عدت تشبيها « حذف أحد طرفيه وأداته ووجه الشبه ، لكنها أبلغ منه ، لأننا مهما بالغنا في التشبيه فلا بد من ذكر الطرفين وهذا اعتراف بتباينهما ، وإن العلاقة بينهما ليست إلا التشابه والتداني فلا تصل حد الإتحاد ، إذ جعلك لكل منهما اسما يمتاز به دليل على عدم امتزاجهما واتحادهما ، بخلاف الاستعارة فإن فيها دعوى الاتحاد والامتزاج وأن المشبه والمشبّه به صارا شيئا واحدا عليهما لفظ واحد »⁵

وقد يشترط فيها أن يتوفر أن يتوفر نوع من الملاءمة والتجانس بين طرفيها ، ويحصل هذا التقارب بينهما بفضل التشبيه ، إذ لا بد من « مناسبة المستعار للمستعار له ، وامتزاج اللفظ بالمعنى ، كما أنه

1. المصدر سابق - ص 65

2. مصطفى ناصف - الصورة الأدبية - ص 5

3. عبد القاهر الجرجاني أسرار البلاغة - قراءة تعليق أبو فهر محمود محمد شاكر - ط1 - دار المدني - القاهرة - 1412 هـ

- 1991 م - ص 32

4. أحمد المراغي - علوم البلاغة - ص 260

5. المصدر سابق - ص 239

لا يجب للشاعر أن يبعد الاستعارة جدا حتى ينافر ، ولا أن يقربها كثيرا فيخفف ، ولكن خير الأمور أوسطها .¹ ، ولا بد من حضور الذهن وفطنة البديهة من أجل الوصول إلى تقريب التناسب بينهما .

ومن مزايا الاستعارة أنها تملك القدرة على الطواف في حدود العقل ، كما بإمكانها التحليق بأجنحة الخيال ، يصل القارئ إلى مراميها بحسه أو بعقله ، فهي « تتناول أمرا معلوما يمكن أن ينص عليه أو يشار إليها إشارة حسية أو عقلية ، فيقال إن اللفظ نقل من مسماه الأصلي فجعل اسما له على سبيل الإعارة للمبالغة في التشبيه .² ولعل ذلك يظهر لنا من خلال تتبع معانيها التي تقدمنا في أيسر قدر من الألفاظ ، فبفضل الاستعارة يمكن « أن ترى بها الجماد حيا ناطقا ، والأعجم فصيحاً ، والأجسام الخرس مبنية ، والمعاني الخفية بادية جلية ، وإن شئت أترك المعاني اللطيفة التي هي من خبايا العقل كأنها قد جسمت حتى رأتها العيون ، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون .³ ، ولعل هذه الخصائص ما يسميه المحدثون بصورة التشخيص والتجسيم والتجريد ، التي تعيد بناء العلاقات بين التصورات وبين طبيعة الأشياء ، والمفاهيم ، وكل هذه العمليات من هدم وبناء المفاهيم يتم متجاوزا حدود العقل « على مستوى أرفع بكثير من التشبيه ، وقد خلفت الواقع دونها ، وامتطت اليقين النفسي وأحلت محل اليقين العقلي ، وقد كان الإنسان عبرها يحاول أن يخرج من عجاوئته وأميته وقصوره في التعبير عن هواجسه ووساوسه واختلاجاته في حقيقتها النهائية شبه المطلقة .⁴ ، وإذا كانت اللغة هي وسيلة الإنسان في التعبير عن كل حاجاته السابقة ، فالاستعارة تتخذ من اللغة مطية لتعبر إلى معاني أخرى ، فهي التي تتولى « خلق دلالات محترمة نظام اللغة النمطي ، وكأنها لغة فوق اللغة فالنص لا يتعامل مع أحادية اللغة الوضعية ، هذه اللغة الساكنة التي لا تصنع شعرا والتي تقف نقيضا للشعرية .⁵ .

إن تصاعد الاستعارة من نظام اللغة الاعتيادي إلى مستواها الشعري ، ما يخلق حولها هالة من الغموض تسهم في رفع قيمتها الجمالية ، ما يؤثر إيجابا على كثافة دلالتها ، فيمكن « لانخفاض

1. ابن رشيق - العمدة - ص 437 ، 438

2. القزويني - الإيضاح في علوم البلاغة - ص 241

3. عبد القاهر الجرجاني - أسرار البلاغة - ص 40

4. إيليا الحاوي - في النقد والأدب - ص 60

5. رجاء عيد - القول الشعري - منشأة المعارف - الإسكندرية - ص 175

الوضوح وارتفاع الثراء أن يساهما في تعدد القوى لأنهما يزيدان من عدد الصلات التي يمكن عقدها بين حقلين من حقول المعرفة ، وهذا يزيد من طاقتهما التعبيرية التي تتصل بالحقل الجمالي .¹

ويظهر فن التصوير الاستعاري في الديوان ، ورغم أن صورة الاستعارة لم تصل إلى مستوى الخروج عن نظام اللغة المعتادة ، كونها لم تعد بناء علاقات جديدة على مستوى الإدراكات الحسية ، ومع ذلك فقد كانت تزخر بخلفيات ومشاهد استمدتها الشاعر من عمق تجربته ، ومما استطاع أن يلم به من صور التراث العربي .

وتبدو القيمة الجمالية أكثر كلما استعملها الشاعر للتعبير عن دلالات إنسانية أو وجدانية ، كوصف الطبيعة ، أو التغني بالحرية ، وحتى في مدائحه للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم . فقد غاص في معاناته ، حتى صرخت أمانيه للحرية ، وقد سئمت من أصفاد الظلم والقهر :

واستغاثت بك الأمانى ونادت فأعادت نداءها الآفاق

تلك حرية الشعوب العواني مذ أحاطت بجيدها الأطواق

أزهقتها سلاسل الظلم حتى كاد يطوي حياتها الإرهاق²

ونلاحظ أن هذه الصورة الاستعارية هي صورة تشخيصية من باب أن أمنية الحرية أصبحت فتاة تن من وطأة الظلم الذي تجسد في صورة سلاسل وأغلال تلف عنق هذه الفتاة وتكاد تضع حدا لحياتها .

وفي مناسبة أخرى ، يقف الشاعر موقف الشاكر الممتن لأهل تلمسان ، وقد عبر عن مشاعر المحبة والاحترام ، وحاول أن ينقلها من حقلها الدلالي المجرد إلى حقل المدركات الحسية ، فإذا قلبه وكأنه جسم محسوس ملموس تتقاطر منه مشاعر الحب والوفاء وكأنها ماء زلال :

قد قضينا ثلاثة في حماكم ووضعنا مواضع الإجلال

فإذا بالقلوب ترشح حبا وبالود و الوفا والنوال³

1. جيرارد ستين - فهم الاستعارة في الأدب - مقارنة تجريبية تطبيقية - ترجمة محمد أحمد حمد - مراجعة شعبان مكاوي -

المجلس الأعلى للثقافة - 2005 - ص 250

2 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 54

3 . المصدر سابق - ص 185

واستطاع الشاعر أن يخرج العديد من المعاني المجردة من معنويتها ليلبسها ثوب المجسد الملموس في أكثر من دليل في الديوان ، فها هو في مناجاته مع الليل ، تصبح الهموم التي اكتسحت قلبه ، سمفونية لحنها الليل ، وأرسل نوتاتها إلى سمع الشاعر وأسماع القارئ :

أسمعته نغم الهموم وقد علا من صدر مسكين وصدر فقير

وصدى العذاب وقد تردد في الدجى من قلب مظلوم وقلب ضير¹

وتمثل العفة عند الشاعر فضيلة وميزة تزين الإنسان ، حتى أنه ليجسدها من زينة معنوية أخلاقية إلى زينة مادية تعرضت للغضب والتحطيم :

وأين الذي طابت رياحين خلقه وطاب عبير الطهر فوق ثيابه ؟

فقد حطمت ورد العفاف رذائل فصوح ذاك الورد وسط شبابه²

وفي مدحه للرسول الكريم صلى الله عليه وسلم في مناسبة عيد مولده ، يشخص الشاعر قيم الطهر والفضيلة ، والحق والسلام وقدمها في صورة تضج بالحركة والصوت ، فهذا يسجد ، وذاك يشكو ، والآخر ييكي في هذه الأبيات :

يا نبي الإله أهلا وسهلا ! جئت فاستبشرت بك الآفاق

سجد الطهر والفضائل طوعا لك فاستكملت بك الاخلاق

وأتاك السلام ييكي فلما صنته جف دمه المهرق³

وفي صورة أخرى ، يلبس الشاعر المعنوي ثوب المحسوس ، فإذا بالهموم والصعاب تصبح للطالب مطية يركبها ليصل إلى النجاح ، وإذا به يفتح باب المجد العظيم بمفتاح أعظم وهو الأخلاق ، وهذا ما سميناه فيما سبق بالتجسيم في الصورة الشعرية :

أيها الطالب قم ناج العلا فوق وجه الأرض أو فوق الشهاب

1 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 248

2 . المصدر نفسه - ص 263

3 . المصدر سابق - ص 52

واركب الصعب لإدراك المنى إن إدراك المنى بعد العذاب

واجعل الأخلاق مفتاحا فكم فتحت للمجد بابا إثر باب¹

ويعتز الشاعر بأواصر العروبة ومشاعر الانتماء إلى لغة الإسلام والقرآن فيقدم لنا هذه الصورة التجسيدية :

كأني أرى تلك العهود التي مضت ونحن رفاق حبنا يتدفق

لقد ربطت بين القلوب مودة فلا البعد يحوها ولا الدهر يحق

رضعنا من الضاد العزيز لبانه وذقنا من القرآن ما هو ريق²

وتمثل قصيدته " مناجاة البدر " ولوعه بوصف الطبيعة ، وتفاعله معها ، فها يجعل من البدر إنسانا محبوبا إلى قلبه ، ويخلع عليه من صفات هذا المحبوب ؛ يسأله ، يناديه ، يشكو إليه ، ولنا في ذلك بعض أمثلة :

يا بدر مالك في الفضا تتألق ونسيت من فوق الثرى يتشوق

يا بدر مالك لم تسل فؤاده أو ما ترى فؤاده يتحرق

يا بدر مالك لم تحب أنات من يشكو إليك ودمعه يترقرق

يا بدر مالك جفوت من ناجاك في جنح الدجى وترى حشاه تمزق³

ونلاحظ على ما سبق من شواهد أن الشاعر يستعمل الاستعارة المكنية دون التصريحية ، ورغم ذلك فقد استطاعت أن تضيفي مشاهد من التشخيص والتجسيم .

ج- الكناية : تشكل الكناية معبرا للمتكلم بحيث يجعلنا ندرك مقصده من القول ، لذلك نفهم أنها لفظ يطلق ويراد به المعنى المجازي ، ويجوز أن يفهم على أنه معنى حقيقي ، ومعنى ذلك أن الكناية تهم باللفظ ، ومعناه الظاهري ممكن ومعقول ، لكنه لم يقصد إلى هذا المعنى الجائر ، إنما قصد إلى معنى

1 . المصدر السابق - ص 169

2 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 173

3 . المصدر سابق - ص 199

آخر يحاذيه ويلازمه ، ومثال ذلك قوله تعالى وهو يصف يوم القيامة : " يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها . " ¹ ، فالمعنى الظاهري الذي تدل عليه الآية صحيح ومتحقق ، ولكن المقصود في الآية هو الحالة التي ترافق هذا الحدث ، وهي الهول والرعب العظيمان اللذان يسببان ذهول المرضعة عن رضيعها ، وإسقاط الحامل حملها ، فهي إذن كناية عن شدة الهول والفرع .

وقديما اعتمد العرب كثيرا على فن الكناية في صناعة الألفاظ والمحاجي ، لأنها تذكر الأوصاف دون ذكر اسم المعني بها ، كما استعملها العرب لإطلاق بعض الصفات مثل قولهم " امرأة نؤوم الضحى " يريدون غناها وترفها ، لأن المرأة لا تستطيع أن تتخذ النوم إلى الضحى عادة إلا إذا كان عندها من يخدمها ويقوم بشؤون بيتها .

فقد يظهر أن الكناية « فن من التعبير توخاه العرب استكثارا للألفاظ التي تؤدي ما يقصد من المعاني ، وبها يتذوقون فن الأساليب ، ويزينون ضروب التعبير ، ويكثر من وجوه الدلالة » ² وتتعامل الكناية مع الواقع كما تتعامل معه الصور الأخرى ، فهي تقتبس منه « الأهم والأظهر لتوفي إلى غاية النفس والخلق منها ، والكناية تدنو من الرمز لأنها تتخذ من الواقع مدلوله الخاص به ، إلا

أنها تقصر عن الرمز لأنها تتخير المعنى الواضح الجلي الموثوق بالواقع بالعرف والعادة . » ³ ، ومعنى ذلك أنها تبقي الواقع على واقعيته ، وتتخير منه الخصائص الأدل في نوع من الحسية العميقة التي تجسد المعاني والأحوال النفسية .

وليس بالخفي ما للكناية من فضيلة في إلباس المعقول ثوب المحسوس أو ما يسمى تجسيد المجردات وذلك مثل القول : " حمالة الخطب " كناية عن التي تشعل نيران العداوة والفتنة والضغائن ،

1 . صورة الحج - الآية (2)

2 . أحمد مصطفى المراغي - علوم البلاغة - ص 286

3 . إيليا الحاوي - في النقد والأدب - ص 62

لهذا فإن العرب تلفظ أحيانا بلفظ « لا تريد منه معناه الذي يدل عليه بالوضع ، بل تريد منه ما هو لازم في الوجود ، بحيث إذا تحقق الأول تحقق الثاني عرفا وعادة .»¹ .

ومن ثمة فإن الكناية تحتل بدورها مكانا يضاهاى مكانة الاستعارة والتشبيه ، فهي أيضا تساهم في بناء خيال فني « يسمح بكسر الحاجز الذي يبدو عصيا بين العقل والمادة ، فيجعل الخارجي داخليا ، والداخلي خارجيا ، ويجعل من الطبيعة فكرا ، ويحيل الفكر إلى الطبيعة .»² .

وتظهر بعض صور الكناية في الديوان ، ما يثبت أن الشاعر متأثر بالقدامى في صناعة مثل هذه التعابير الجميلة التي تزيد الصورة وشيا وحلية جميلة ، وقد تعددت أنواعها بين كناية عن صفة ، وعن موصوف ، وعن نسبة ، فقد قال في مدحه للرسول وتغنيه ببلد الإسلام :

مهبط الوحي كنت للناس لما كانت الناس في دجى الهمجية

فإذا النور من حماك تجلى فتحت به الربى المغربية

مشرق مغرب جناحان للطائر يعلو بالأمة العربية³

ف " مهبط الوحي " كناية عن أرض مكة وهي موصوف ، وقوله " دجى الهمجية " يقصد به عصر الجاهلية والطيش والظلم .

وفي خطابه لأبناء شعبه يحقهم على الاجتهاد في تحصيل العلوم :

أيا شعب العروبة أنت تدري بأن العلم صعب المنال

أفق إن السبات اليوم جرم ! حرام أن تنام على التوالى !⁴

وهنا لفظة " السبات " لم يطلقها الشاعر لمعناها الحقيقي الذي مؤداه النوم العميق طويلا ، إنما كنى به وأراد الجهل الذي يسقط الأمم في مقل هذا النوم والغفلة .

ويتألم الشاعر من بعده عن صحبه ، وشوقه إلى الأهل والرفاق ، ويظهر ذلك في قوله :

1 . أحمد مصطفى المراغي - علوم البلاغة - ص 279

2 . د. مصطفى ناصف - ص 27

3 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 68

4 . المصدر سابق - ص 58

قد شئت الدهر شملاً كان ملتئماً وحطم الموت روضاً كان مزماراً

فأصبح البلبل الغريد مكتئباً ييكي على ذلك العهد الذي سارا¹

ف " البلبل الغريد " كناية عن موصوف آخر ، ولم يقصد به هذا الطائر الحسن الصوت ، إنما قصد الشاعر حين يصدق بأشعاره الجميلة مع الصحب والرفقة .

ويستعمل الكناية عن الصفة والموصوف في بيتين من قصيدة " أرثيك يا نفسي بنفسي ناظماً " ، فيا ترى من هي هذه الحسناء التي طلقها الشاعر :

طلقتها أبداً ثلاثاً بعدما أفنيت عمري في حمى المدراء

ما كنت أختار الطلاق لأنه حل بغيض الشأن في الحسناء²

الطلاق هنا كناية عن الانفصال والانقطاع النهائي ، أما الحسناء فهي كناية عن قطاع التربية ، ووصفها الشاعر بهذا الوصف لشغفه بها وحبّه لهذه المهنة النبيلة ، لكن الوقت حان به ، وعليه أن يتركها للجيل الذي بعده .

أما في قول آخر فقد حدثنا عن الموعظة والإرشاد إلى الصبر فيما قاله الله ونبيه الكريم وهو المقصود في هذا البيت :

لا بد بعد العسر من يسر كما أوحى الإله لصاحب الإسراء³

وصاحب الإسراء كناية عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

وفي أكثر من مناسبة ، تأثر الشاعر بمن سبقه في استعمال الكناية عن الحرية إما تغزلاً بها وذاك يضفي مسحة جمالية وإما لاتقاء شرور المستعمر لأنه يرفض كل لسان يلهج بذكرها ، فكذلك فعل الشاعر:

وهل يا عيد عدت لنا بينت تألق حسنها خلف الحجاب

فليتك تستجيب لكل قلب إلى العذرية الحسناء صاب¹

1 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 275

2 . المصدر نفسه - ص 256

3 . المصدر سابق - ص 257

ويشكو الشاعر انقلاب الأحوال وفساد المجتمع والأخلاق ، وطغيان المصلحة المادية على كل المعاملات بين الناس :

والعصر عصر الموبقات كما ترى يندى الجبين وتقشعر جلود

والأصفر الرنان يطغى سائدا وهوى التمتع في العباد يسود²

ويظهر لنا أن الكناية في قوله " الأصفر الرنان " يريد به المال .ومن الملاحظ أن بعض الكنايات تلتقي في أغلبها مع الاستعارة التصريحية كون هذه تصرح بالمشبه به وتخفي المشبه ، بينما تتخذ الكناية لفظا قد يراد به المعنى الحقيقي وقد يراد به المجازي وهو أخص .

أما المجاز فليس ذا نصيب يذكر في قصائد الديوان عدا هذه اللفات التي أحببت أن أشير إليها :

وزرنا حمى الإسكندرية فانجلت كما تنجلي الحسناء ملبس سحري

رعتكم يد الرحمن من كل معتد وعشتم مدى الأزمان في العز واليسر³

فالزائر لم يزر حدود الإسكندرية فقط إنما زار المدينة كلها ، وعبر عن الكل بالجزء ، لأن حدود المدينة جزء منها ، وعبر عن عناية الإله وحمايته بيد الرحمن ، لأن اليد هي التي تحمي وترعى ، فالعلاقة سببية بين الحماية واليد .

ونفس العلاقة في المجاز المرسل الذي جاء في قوله :

رفعت لواءك في الجبال الشامخات يد القدر!⁴

وقد استطاع أن يسوق مجازا آخر بعلاقة الجزئية في قوله :

حرقوا أو مزقوا منا الجلود فلقد قمنا لتحطيم القيود⁵

1 . المصدر السابق - ص 267

2 . المصدر نفسه - ص 180

3 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 64

4 . المصدر السابق - ص 163

5 . المصدر نفسه - ص 116

فالحرق والتمزيق عذاب يسلط من المستعمر على الإنسان ولكنه لا يصيب الجلد وحده ، إنما الجسد كله يحترق ويتمزق .

ويمكن القول أن الصورة الشعرية في الديوان لم تتعد ما ذكر من خواصها ، فهي ترسم لوحات فنية ومشاهد كلية تخاطب مجموع الحواس لإدراكها ، وتضافر في ذلك ما ساقه الشاعر من صور البلاغة على نهج القدامى ، ولعل هذا يعود إلى طغيان التزعة التقريرية والخطاب المتحمس الذي يعتمد على « الروح الثائرة التي تعصف بكل شيء ، ولا تلوي على شيء ، فإنه متى اجتمع للنفس صفاء القريحة وحدة الطبع ونبو الحياة كانت خطابية لا ريب لأن الحياة الثائرة تجعل هم الناس في ألسنتهم ، لأن الكل يود قودا لجومع بلسانه ، وخوض المعامع بسيفه ، والطبع الحاد يجعل الكلام يندفع من أقاصي النفس اندفاعها .¹ أما الصور الرمزية فقد حرمت ديواننا بشكل أو بآخر من غموض وضبابية الفن الذي يجعل القارئ يلح بأفكاره لفهم خبايا السطور والأبيات ، وإن ورد فهو قليل وهو من « قبيل التفسير النفسي والاجتماعي ، وبمثابة التقية في غالب الأحيان .² ، خاصة في القصائد التي تتغنى بالحرية في عز الثورة التحريرية ، ويدعم هذا قول الدكتور " علي بن محمد " في تقديم الديوان ، حيث يرى أن « المنطلقات الأولى التي كانت تعليمية بحتة ، تتبنى خطاب الوعظ والإرشاد والتوعية ، قد ضايق أشكال التعبير الفني ، وألزمته نوعا من الالتصاق بالواقع القريب ، حرمتها من تلك " الضبابية " المحببة في الشعر .³»

03 / الموسيقى الشعرية:

يتفق الجميع على أن الإيقاع الموسيقي يعد عنصرا مهما من عناصر الفن الجميل في بناء العمل الشعري ، فالعلاقة بين الشعر وموسيقاه « ترجع إلى طبيعة الشعر نفسه الذي نشأ مرتبطا بالغناء ، ومن ثم فإنهما يصدران عن نبع واحد ، وهو الشعور بالوزن والإيقاع .⁴ ، وهذه العلاقة جعلت بعض النقاد يتصورون أن التجديد في الشعر لا يمكن أن يتجسد دون أن « يشمل الشكل

1 . أبو القاسم الشابي - الخيال الشعري عند العرب - الدار التونسية للنشر - ط2 - 1973 - ص 13

2 . د. عمر الدقاق - نقد الشعر القومي - منشورات اتحاد الكتاب العرب - دمشق - 1978 - ص 129

3 . د. علي بن محمد - مقدمة ديوان بوابات النور - 3 جويلية 1983 - ص 43

4 . د. شكري عياد - موسيقى الشعر العربي - دار المعرفة - القاهرة - 1965 - ص 53

الموسيقي العام للقصيدة ، فهم لا يتصورون أن يتوفر العمل الشعري على صور جديدة ، أو لغة جديدة متطورة ، أو خيال مدهش دون أن يكون ذلك في إطار إيقاع موسيقي جديد .¹

لقد جعلت هذه العلاقة نتائج الدارسين تصل إلى أن « الشعر بناء موسيقي باللغة ؛ فالموسيقى سلسلة صوتية تنبعث عنها المعاني ، لأن الشعر في حد ذاته تنظيم لنسق من أصوات اللغة تنظيما يحدث نوعا من الإثارة ، فالإنسان مفطور بطبعه على إثارة الصوت الموسيقي المنغوم .² ، وهذا يؤكد لنا أن موسيقى الشعر « ليست دخيلة عليه ، ولا مستعارة من فن آخر لأنها نابعة من أداة التعبير الشعري نفسها وهي اللغة . فالموسيقى الشعرية تعتبر إحدى الوسائل المرفهة التي تملكها اللغة للتعبير عن ظلال المعاني وألوانها ، بالإضافة إلى دلالة الألفاظ والتراكيب اللغوية .³ ، وهذا القول يؤكد أن الموسيقى تنبع من داخل الشعر ، كما تحيطه من الخارج مما يوفر الوصول إلى الغاية من الشعر وهو التذوق الفني للموسيقى « أثرها في الإمتاع واللذة للشاعر والمتلقي على السواء ، بالإضافة إلى المتعة الذاتية التي يحققها التعبير الشعري بصوره الجديدة وأخيلته الفريدة ، ولذة الأوزان والقوافي لذة موسيقية أو لذة صوتية .⁴

1- الموسيقى الخارجية :

ونقصد بها ذلك النظام المتسق الذي توصل الخليل إلى وضع قواعده التي ارتكزت عليها جل الدراسات العروضية والموسيقية التي جاءت بعدها ، وتهتم بالقلب الموسيقي للبيت الذي سناه وزنا ، وما يتضمنه من أجزاء هي التفاعيل أو التفعيلات والقوافي وحروف الروي ، وما يعتري كل هذه العناصر من تغيرات .

أ/ الأوزان : لا يختلف منا اثنان على أن الأوزان هي مقاطع نغمية يجري عليها صوت البيت ، فهي « أنغام إيقاعية ، يجري عليها اللفظ وتنظمه بكل حروفه انتظاما دقيقا تاما ، من غير ما خلل ، أكان هذا الخلل تجاوزا في مطابقة مقاطع اللفظ لمقاطع النغم ، حركات وسكنات ، أم كان بالزيادة عليها

1 . د. عز الدين إسماعيل - الشعر في إطار العصر الثوري - دار العودة - بيروت - 1978 - ص 28

2 . هـ . ب تشارتن - فنون الأدب - ترجمة زكي نجيب محمود - ط2 - لجنة التأليف والترجمة والنشر - 1959 - ص 60

3 . د. محمد مندور - الأدب وفنونه - دار النهضة مصر - ط2 - 2002 - ص 27

4 . د. بدوي طبانة - قضايا النقد الأدبي - ص 194

أو بالنقصان.¹ ، لذلك يظهر ما للوزن من مكانة في الشعر ، كونه الميزة التي خص بها عن النثر وتميز بها عنه ، فهو «أعظم أركان الشعر ، وأولاها به خصوصية ، وهو مشتمل على القافية ، وجالب لها ضرورة ، إلا أن تخلف القوافي فيكون ذلك عيباً في التقفية لا في الوزن.²

وقد اتفق الدارسون أن البحور الشعرية هي التي تشكل هذه الأوزان ، وقد استعمل الشاعر معظم البحور الشعرية واستطاع أن يطوع القصائد لها ويطوعها للقصائد ، وهذا الجدول يبين نسب ورود البحور الشعرية في الديوان :

البحور	النسبة	المجزوءة	التامة
الطويل	31.7 %	/	26
الكامل	18.29 %	02	13
الخفيف	15.85 %	/	13
الرمل	09.75 %	01	07
البسيط	07.31 %	/	06
الوافر	04.87 %	/	04
الرجز	03.65 %	02	01
المجثث	03.65 %	/	03
المتقارب	02.43 %	01	01
الهمزج	1.21 %	/	01
المتدارك	1.21 %	/	01

إذا تأملنا هذا الجدول فإننا نلاحظ جلياً أن بحر الطويل حظي بالنصيب الأكبر من موسيقى الديوان ، يليه الكامل ثم الخفيف ، أما باقي البحور فقد نالت نسباً أصغر وبشكل متقارب ، وهذا الاختلاف في نسب ورود البحور الشعرية كان محط دراسة لدى كثير من النقاد والباحثين ، فوقفوا أمام قضية تلاؤم الوزن والغرض الشعري ، أو بين « اختيار الشاعر للشكل الموسيقي ومدى مناسبته لموضوع شعره وتجربته الفنية في الشعر ؛ وحاول كثير منهم أن ينظر لتلاؤم موضوعات محددة مع بحور بعينها

1 . د. ميشال عاصي - الفن والأدب - مؤسسة نوفل - بيروت - لبنان - ط3 - 1980 - ص 90

2 . ابن رشيق - العمدة - ص 225

١. « وقد أكد القدامى على هذه الفكرة ورأوا أن الشاعر يعادل بين خصائص البحور ومزايا موضوعه وأوجبوا » أن تحاكي كل تلك المقاصد بما يناسبها من الأوزان و يخيّلها للنفوس ، فإذا قصد الشاعر الفخر حاكي غرضه بالأوزان الفخمة الباهية الرصينة ، وإذا قصد في موضع قصدا هزليا أو استخفافيا وتحقير شيء أو العبث به قصد من ذلك ما يناسبه من الأوزان الطائشة القليلة البهاء .² ، إلى جانب هذا قدموا مزايا وخصائص صوتية وسمعية لكل بحر ، « فالطويل نجد تجد فيه أبدا بهاء وقوة ؛ ونجد للبسيط بساطة وطلاوة ، ونجد للكامل جزالة وحسن اطراد ، وللخفيف جزالة ورشاقة ، وللمتقارب بساطة وسهولة ، وللمديد رقة لينة مع رشاقة ، وللرمل لينا وسهولة ، ولما في المديد والرمل من اللين كانا أليق بالرثاء وما جرى مجراه .³ »

هذا كما صنف آخرون البحور الشعرية في مراتب ، ويتصدر عندهم هذا الترتيب كل من الكامل والطويل والوافر والبسيط ، فمثلا يعد بحر الكامل من بحور الشعر العربي الذائعة الشيوع في القديم والحديث ، وقد كانت اثنتان من المعلقة الجاهليات على بحر الكامل وهما معلقة عنتره ومعلقة لبيد بن أبي ربيعة العامري . وقد نظم الشعراء على الكامل في أغراض شتى كالحماسة والفخر والمديح والغزل ممل يجعل القول بملائمته لأغراض متعددة ومختلفة .⁴ »

وقد نظم الشاعر معظم قصائده في بحر الكامل في غرض الرثاء على عكس القول السابق ، وبعضها منها في الحنين .

أما بحر الطويل فنظم عليه في أغلب أغراض الديوان خاصة في مواضيع استنهاض الحماسة للدفاع عن الوطن والدين واللغة ، أو في الوصف وشعر الحنين والإخوانيات ، حتى قصائده في الشعر التربوي نظم أغلبها على بحر الطويل :

لقد أنزل القرآن بالعلم والتقى
ألا فادرسوه واطلبوا العلم واتقوا

1 . د. محمد مصطفى أبو شوارب - جماليات النص الشعري - ص 143

2 . أبو الحسن حازم بن محمد بن الحسن القرطاجي - منهج البلغاء وسراج الأدباء - تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة - ط3 - دار الغرب الإسلامي - بيروت - 1986 - ص 266

3 . المصدر نفسه - ص 269

4 . د. إبراهيم خليل - عروض الشعر العربي - دار المسيرة - ط1 - 2007 م - 1427 هـ - عمان - الأردن - ص

وزينوا بأخلاق النبي نفوسكم وسيروا إلى نيل العلوم لترتقوا¹

وتتوزع أيضا قصائد بحر الخفيف على معظم أغراض وموضوعات الديوان من رثاء ، وحنين وإخوانيات ، وحكمة وحتى الأغراض ذات النبرة الخطابية ، فمثلا نظم في رثاء ابن باديس رحمه الله :

خبروني من الذي قاد شعري نحو لحد هناك بين اللحد ؟

خبروني من الذي قال للدمع وللروح والعواطف جودي ؟

لست أدري رحماكم خبروني أشعوري أم روح عبد الحميد ؟²

أما بحر الرمل فهو من البحور المعروفة بإيقاعها الموسيقي العذب ، ونغمتها المرحية ولاسيما « إذا لجأ الشاعر إلى اختصار التفعيلة الأخيرة في كل من الصدر والعجز (العروض والضرب) بحذف السبب الخفيف الأخير منها . وقد نظم عليه الشعراء القدماء والمتأخرون - وهو من أكثر البحور شيوعا ، ويناسب الرمل الأغراض الغزلية ، ووصف الخمر ، ومجالس اللهو والغناء .³ ، أما شاعرنا فقد نظم على بحر الرمل في أغراض الحماسة (اللغة والدين والوطن) ، وفي شعر الإخوانيات :

احملي يا نسمة العيد سلاما وتحيات وأشواقا عظاما

احملها لأبي الروح الذي دام يسقي بالمنى القلب الحطاما⁴

أما بحر البسيط فهو من « البحور التي لا تخلو من النغمة الموسيقية الغنائية الواضحة ، فقد كثر استعماله في الشعر الغنائي وأشعار المدائح الصوفية والنبوية حتى لقد أطلق عليه من باب التنكيت بحر الدراويش .⁵ ، ولعل الشاعر اتفق هذه المرة في نظمه القصائد الغنائية على هذا البحر ، كما نظم للإخوانيات والتأمل والحنين :

يا صاح قف لحظة مثلي بباتنة واذكر معي من حماهم ذلك الأمام

1 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 174

2 . المصدر نفسه - ص 233

3 . د. إبراهيم خليل - عروض الشعر العربي - ص 107

4 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 219

5 . د. إبراهيم خليل - عروض الشعر العربي - ص 205

واسأل معي وتساءل عن فضائلهم إن كنت رغم لهيب الشوق لا تحم

أمامنا مثل عش الباز مأسدة ضمت بأكنافها صيدا بما اعتصموا¹

هذه هي البحور التي نالت القسم الأكبر من القصائد في الديوان ، وعموم القول ، وأن الشاعر ممن ينطبق عليهم القول القائل أن هناك من الشعراء من قد « نظمها سائر موضوعاتهم في معظم البحور ، ولم يخصصوا كل وزن بمعنى أو عدة معان ، ومن ثم فإن تعميم الحكم على جميع أغراض الشعر العربي يحتاج إلى نظر . »²

لذلك أصبح مرد الأمر في اختيار البحور للقصائد غير مرتبط بغرض الشعر وما يلائمه من البحور ، إنما « الربط يكون بين الحالة النفسية والإيقاع وليس بين هذه الحالة والوزن . »³ ، وهنا تظهر تبعية الوزن للشاعر ، وليس تبعيته هو للوزن ، فالشاعر الحق في نظر أصحاب هذا الرأي « يستطيع أن يسيطر على الوزن الشعري الذي يكتب فيه قصيدته ، وأن يوظف إمكاناته ، فيلونه بلون عاطفته ، ويصبغه بما يوافق حالته الشعورية . »⁴

وقد شبهت الأوزان بآنية فارغة يملؤها الشاعر كيف يشاء ، فمع أن الوزن « لا يعطي لونا بعينه من الموسيقى ، فإنه يمثل في حد ذاته نغمات موسيقية فارغة من المعنى ، وطبيعي أن يكون المعمول فيه فهم معنى القصيدة ، الحالة النفسية التي ربطت ذلك الإيقاع بألفاظ القصيدة . »⁵ .

ب/ القافية : يعبر عن القافية على أنها عدة أصوات تتكون في أواخر الأَشْطَر أو الأبيات من القصيدة ، وتكررها هذا يكون جزءا هاما من الموسيقى الشعرية ، فهي بمثابة الفواصل الموسيقية ، يتوقع السامع تردها ، ويستمتع بمثل هذا التردد الذي يطرق الآذان في فترات زمنية متقطعة ، وبعد عدد معين من مقاطع ذات نظام خاص ، هو الذي يسمى الوزن «⁶ ، وإذا نظر إليها من حيث هي منتهى منتهى بيت الشعر فإنها سميت قافية لأنها « تقفوا الكلام ، ومنهم ما يسمى البيت قافية ، والمشهور

1 . عبد القادر بن محمد -الديوان - ص 269

2 . د. محمد مصطفى أبو شوارب - جماليات النص الشعري - ص 144

3 . د. عز الدين إسماعيل - الأسس الجمالية في النقد العربي - دار الفكر العربي - ط 3 - 1974 - ص 377

4 . د. محمد مصطفى أبو شوارب - جماليات النص الشعري - ص 151

5 . د. عز الدين إسماعيل - الأسس الجمالية في النقد العربي - ص 378

6 . إبراهيم أنيس - موسيقى الشعر - الأنجلو - ط 6 - 1988 - ص 244

من الأقوال قولان ، أحدهما قول الأخفش ، إنها الكلمة الأخيرة من البيت ، وثانيها قول الخليل والجرمي ، إنها مجموع الساكنين اللذين في آخر البيت ، وما بينهما من المتحركات والمتحرك الذي قبل الساكن الأول.¹

***/ حروف الروي في الديوان :** بعد عملية تتبع قصائد الديوان خلصنا إلى حروف الروي التي اعتمدها الشاعر هي : " الراء ، الباء ، اللام ، الدال ، الميم ، التاء ، الهاء ساكنة ومتحركة ، القاف ، الفاء ، الحاء ، النون ، الطاء ، الكاف ، الياء ، الهمزة . "

والملفت للانتباه أن الشاعر أكثر من روي الراء بشكل بارز ، فقد ورد في (17) سبعة عشر قصيدة ، يليه حرف الباء في (10) قصائد ، ثم حرف الدال والميم واللام في (07) سبع قصائد لكل حرف ، ثم حرف الهاء في (06) ست قصائد ، فالتاء في (05) خمس قصائد ، وكذلك الهمزة ، أما باقي الحروف فظهرت بمعدل قصيدة إلى ثلاث .

ظاهرة أخرى استوقفت الدراسة عندها ، هي ظهور قصائد للشاعر في الديوان بحروف روي متعددة ، والقصائد العشر التالية : " التعريب - بلادي - الشاعر والحرية - ارفعي الرأس وسيري يا جزائر - نشيد الاستقلال - نشيد جبهة التحرير - الربيع - الفراشة - أحلام الفجر - هدية . "²

ولعل السبب في انتقال الشاعر من حرف إلى آخر لروي القصائد هو اختلاف الحالة الشعورية والحالة النفسية التي يكون عليها الشاعر ، وهذا الاختلاف ربما دل على نوع من الاضطراب وعدم الارتياح ، إن نفس الشاعر تتجاذبها الكثير من الظروف والأحداث التي تسبب معاناته ، فانعكس ذلك واضحا على هذه القصائد .

أما عن قصيدته (مسيرة الجزائر) : فقد نظمت كما قال على الطريقة الحرة ، إلا أنها تختلف عنه في كثير من المواطن ، فالشعر الحر يسمو ضمن هذه الضبابية التي يلاحقها المتلقي عله يصل إلى الحقيقة ، بينما قصيدة المسيرة ، جاءت في لغة بسيطة واضحة ، خالية من الإيحاء ، وفي أسلوب وصفي مباشر ،

1 . أبو العرفان محمد بن علي الصبان - شرح الكافية الشافية في علمي العروض والقافية - تحقيق ودراسة د. فتوح خليل -

ط1 - 2000 - دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر - الإسكندرية - مصر - ص 256 ، 257 .

2 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 75 ، 83 ، 101 ، 115 ، 149 ، 159 ، 201 ، 203 ، 205 ، 223 .

معتمد على السرد التاريخي ، وجاء فيها اختلاف الروي تبعاً للموقف الوجداني الذي يتأثر به وهو يعرض تجربته الشعرية ، وهي جواز معروف في الشعر الحر ، تابع للإيقاع النفسي لا العروضي .

أما عن شيوع بعض حروف الروي في قصائده ، فلعله لم يخرج عن الرأي الذي يصنف حروفاً على أخرى في مدى استعمالها كروي ، إذ أمكن « تقسيم حروف الهجاء التي تقع رويًا إلى أربعة أقسام حسب شيوعها في الشعر العربي منها حروف تجيء رويًا بكثرة وإن اختلفت نسبة شيوعها في أشعار العرب وتلك هي : الراء ، اللام ، الميم ، النون ، الباء ، الدال ، السين ، العين »¹

والجدول التالي يبين نسب حروف الروي في قصائد الديوان :

الحروف	الراء	الباء	اللام	الميم	الدال	الهاء	التاء	الهمزة
عدد مرات استعمالها	17	10	07	07	07	06	05	05
النسبة	%22.66	%13.33	%9.33	%9.33	%9.33	%8	%6.66	6.66 %
الحروف	القاف	الفاء	النون	الحاء	الكاف	الطاء	الياء	
عدد مرات استعمالها	03	02	02	01	01	01	01	
النسبة	%4	%2.66	%2.66	%1.33	%1.33	%1.33	%1.33	

نلاحظ أن حرف الراء أخذ الصدارة بين الحروف الأخرى ، وهو من الأصوات الذلقية في مستويات الأصوات وتحليل اللسان ، ويحدث الراء صوتاً جهورياً فخماً يترك لدى السامع انطباعاتاً بجدية الموضوع ، كما أنه يوحي بشخصية الشاعر وهو يلقي شعره على جمهوره بنبرة خطابية حماسية ، تنم عن رغبة في استنهاض همّة ، واستجماع قوة .

أما حرف الباء والميم فهي أصوات شفوية ، ولعل الشاعر اختارها لتعبر عن نفسية مقيدة ، محرومة حتى من الجهر برغبتها ، والمطالبة بحقوقها ، وكأنه يخبرنا أن الاستعمار بكم أفواه المظلومين لئلا يصرخوا طالبين حريتهم .

أما الدال ، فيحمل دوي الرصاص والمدافع ، إنه يرجو به أن تكسر الأغلال وترفع السواعد لأخذ الحرية .

*/ القافية المطلقة والمقيدة : القافية المطلقة هي ما كان رويها متحركا وهي « الموصولة إما بـلين أو بهاء .¹ » ، وهي القافية المستعملة في أغلب قصائد الشاعر ، ومن أمثلتها :

والدمع يا شعب صار اليوم منسكبا يجري بلا مهل ، يجري بلا سبب

فاذرف معي دمعة يا شعب واحدة لعل في الدمع ما يشفي من الوصب²

فالقافية هنا مجرد من الردف والتأسيس موصولة بـلين يظهر عند إشباع الباء بالياء .

وفي مثال آخر يقول متغنيا بمآثر تلمسان :

اسمعوا نغمة الصبابة من أندلس العرب قد صفت كالزلال

فقد اجتازت القرون لتبقى في تلمسان مضرب الأمثال³

والقافية هنا مردوفة بالألف قبل لام الروي موصولة بـياء الإشباع .

ويقول في حنينه إلى أيام الخوالي وعهود الصفاء :

ولا أنس لا أنس العهود التي مضت وأي امرئ ينسى عهود شبابه ؟

تشوقت حتى صار لي الشوق صاحبا وما الشوق إلا الجمر عند التهايه⁴

وهذه صورة لأخرى من القوافي في الديوان هي قافية مردوفة بألف قبل ياء الروي موصولة بالهاء ، والياء بعد هاء الوصل للخروج .

1 . أبو العرفان - شرح القافية - ص 281

2 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 90

3 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 184

4 . المصدر نفسه - ص 261

أما القافية المقيدة فيظهر من اسمها أن رويها ساكن بمعنى أنها « خالية من الوصل ، وهي إما مردفة أو مؤسسة ، أو مجردة منها .»¹ ، ولم يستعمل الشاعر هذا النوع من القوافي إلا في ثلاث قصائد ، إحداها هديته إلى اليمن :

إيه صنعاء أنت مهد أصيل للحضارات منذ خلق البرية

إيه صنعاء أنت قطعة أرض قدس الله تربها بالنبوة²

والقافية هنا مقيدة ومجردة من التأسيس والردف .

وفي مسيرة الجزائر الزاخرة بأنواع القوافي وحروف الروي يقول :

سل القنابل عن المداشر !

الغاب ، والأحرار والحرائر !

ينبئك كل كائن عن ثورة وثائر !

عن ثورة الجبابر !³

وهي قافية مفيدة بروي الراء الساكن مؤسسة بالألف .

2- الموسيقى الداخلية :

ويطلق عليها الدارسون الإيقاع ، وهو خلاف الوزن ، وتهتم الموسيقى بالجانب اللغوي والصوتي لأنها « حركة الأصوات الداخلية التي لا تعتمد على تقطيعات البحر أو التفاعيل العروضية ، وتوفير هذا العنصر أشق بكثير من توفير الوزن ، لأن الإيقاع يختلف باختلاف اللغة والألفاظ المستعملة ذاتها ، في حين لا يتأثر الوزن بالألفاظ الموضوعية فيه .»⁴ ، وإن كانت الموسيقى الخارجية للشعر تتشكل من تجاور السكنات والحركات ، وتوالي الأسباب والأوتاد والفواصل ، لتشكيل تفعيلات تساهم في توازن البحر الشعري وتنظم نغماته ، فإن الموسيقى الداخلية تندرج أيضا في

1 . أبو العرفان - شرح الكافية - ص 282

2 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 67

3 . المصدر نفسه - ص 142

4 . د.عز الدين إسماعيل - الأسس الجمالية في النقد العربي - ص 376

تشكلها عبر مستويات ومنابع فهي « نابعة أولا من تآلف أصوات الحروف في اللفظة الواحدة ، والحروف كما لا يخفى ، أصوات متفاوتة الجرس ، يقرع بعضها بعضا ، حين تجتمع في اللفظ ، فينتج عن تقارعها المتناغم سلم متناغم جميل . وهناك ثانيا الموسيقى النابعة من تآلف الكلمات حين تنتظم في التركيب فقرات وجمل ، فالألفاظ المفردة تفرع الألفاظ المجاورة لها ، وينجم عن ذلك سلا لم موسيقية جميلة .¹ » ولئن سماها البعض موسيقى داخلية ، أطلق البعض عليها اسم « الموسيقى الخفية لأنها ناتجة عن ملائمة الألفاظ للمعاني ، مع ما تضيفه من دلالات موحية تتغلغل وتتناغم مع أعماق أعماق النفس الإنسانية .² » ، وقد جاوز بعضهم أن أضاف الاهتمام ببعض البديع خاصة منه الجناس والتصريع .

أ- التصريع : ويعد ميزة يختص بها الشعر دون النثر وهو « جعل عروض البيت مثل وزن ضربه ، وقافيته ، فيصيران على وزن واحد ، وقافية واحدة ، فكما في البيتين ، ولا يجوز التصريع إلا في البيت الأول من القصيدة دون باقيها ، لأن أولها محل التألق ، وإظهار جودة الذهن ، وشدة الفصاحة .³ » ، كما يرد على البعض سبب اختصاصه بالبيت الأول « مبادرة الشاعر القافية ، ليعلم في أول وهلة أنه أخذ في كلام موزون غير منشور ، ولذلك وقع في أول الشعر .⁴ » .

والحقيقة أن الشاعر اهتم كثيرا بجانب التصريع ، فنجد أغلب قصائده إن لم نقل كلها ذات مطلع مصرع ، ويمكن في هذا المقام أن نأخذ بعض الأمثلة :

يقول في أول قصيدة من الديوان " إلى بني الإسلام " :

يا بني الإسلام يا أهل العلا شيدوا مجدا ظريفا فاضلا⁵

ويقول متغزلا بالحرية متغنيا بها في " إقبال الحرية " :

أقبلت بين موكب الأحرار مثل شمس وضئئة الأنوار⁶

1 . د. ميشال عاصي - الفن والأدب - ص 101

2 . أبو السعود سلامة أبو السعود - الإيقاع في الشعر العربي - دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر - الإسكندرية - ص 103

3 . أبو العرفان - شرح الكافية - ص 147

4 . ابن رشيق - العمدة - ص 278

5 . عبد القادر بن محمد - الديوان - 47

6 . المصدر نفسه - ص 95

وفي قصيدة وداعه لزملائه ومهنته في قطاع التربية قال المطلع التالي :

إليكم وإن جارت نوى قبلاتي وباقية أزهار إلى الأخوات¹

ويناجي البدر في قصيدة قام بتقفيتها بحرف القاف :

يا بدر مالك في الفضا تتألق ونسيت من فوق الثرى يتشوق²

وفي وفاة صديقه " علي " وزميل دراسته جاءت القافية تنن وتتألم بصوت الحاء :

يا شعر ! نمت وحولك الأتراح وصدى الحياة ترنم ونواح³

ويمكن لنا أن نفهم من هذه النماذج من مطالع القصائد أن الشاعر ليس من محبي الشعر الحر ، إنما عرفنا ولعه بفن العروض وألف حوله ، وهذا يؤكد نظريته نحو القصيدة الأصلية العمودية ، مع تشجيعه للتجديد المؤصل .

ب- التكرار : يلعب عنصر التكرار دورا مهما في تشكيل الموسيقى الداخلية للقصيدة ، ويتجلى ظهورها في جذب انتباه القارئ أو السامع إلى هذه الأصوات التي تتكرر بشكل منتظم ضمن البيت أو البيتين ، وللتكرار مدلول آخر من حيث أن البعض يرى أن « تكرار لفظة أو عبارة يؤدي بشكل أولي إلى سيطرة هذا العنصر المكرر وإلحاحه على فكر الشاعر أو شعوره أولا شعوره ، ومن ثم لا يفتأ يخرج في رؤياه من لحظة لأخرى . »⁴ ، وهذا الرأي يظهر جليا في دواعي التكرار في قصائد ابن القاضي ؛ فهو حين يريد التركيز على فكرة ، معنى أو مفهوم معين ، أو يسعر إلى إنكار أشياء أخرى ، فإنه يلجأ إلى مثل هذا التكرار .

1- تكرار الحروف : يعد الحرف هو البنية التحتية التي تتركز عليها التشكيلة الصوتية والإيقاعية للقصيدة ، لذلك فإن الشاعر إن عمد إلى تكرار بعض الحروف ، أو بعض الأصوات المتشابهة في المخارج فإن ذلك يعود إلى بعض الأسباب التي يعوزها الدارسون إلى الحالة النفسية والشعورية لصاحب النص ، هذا بالإضافة إلى دور الحروف و « دلالاتها واستخدامها للتعبير النفسي عن دخائل

1 . المصدر نفسه - ص 187

2 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 199

3 . المصدر نفسه - ص 239

4 . النعمان القاضي - أبو فراس الحمداني والتشكيل الجمالي - دار الثقافة - 1982 - ص 402 ، 403

المعنى ، بحيث يتواكب إيقاع الوزن والقافية والحروف مع الأحاسيس والمشاعر بما يولد لنا أنغاماً متوهجة فريدة تتناغم مع المشاعر المتأججة .¹

يقول الشاعر في تحية لجيش التحرير :

وقاتلوهم قتالا قد فاق كل قتال²

وحرف القاف المتكرر في البيت من الأصوات اللهوية التي تنطلق من المستوى الثاني من جهاز الصوت عند الإنسان ، وربما حمل هذا الصوت لنا معاني الكره والبغض للمستعمر ، ويتمنى لو يحاط بنار تحرقه .

ويقول في رثاء من يحب صوتهما ، ونغمة شدوها :

إن سحر اللحن سحر حلال فاسحر بلحنك المحمود³

يتواتر في هذا البيت حرف الحاء سبع مرات في البيت ، أي لا تخلو كلمة من البيت من هذا الصوت ، والحاء صوت حلقي ينبع من داخل نفس حزينة ، تحن إلى من تحب ، وتشتاق إلى سماع صوته ، فهو يحمل نبرة الألم والاشتياق والحنين ، فينفث الشاعر هذه الزفرة على طوال البيت .

وفي تحيته للأمة العربية ، يرجو لها تمام الخير والعافية :

وترجو لكم خيراً ونصراً مؤزراً هنيئاً مريئاً غير داء مخامر⁴

وتكرار حرف الراء في البيت وهو من الأصوات الذلقية الحنكية ، إنما يحمل لنا حركية وحياة يرجوها الشاعر أن تتكامل نصر الأمم العربية واستقلالها .

وفي جولته مع الليل ، وهو يسامر ويخاطبه ، يتعلق بتلايب نور القمر ويهيم بين قوافل النجوم :

ويجول في ذاك الفضاء مرففاً كالنسر فوق تنائف وبحور⁵

1 . أبو السعود سلامة أبو السعود - الإيقاع في الشعر العربي - ص 104

2 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 112

3 . المصدر نفسه - ص 237

4 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 65

5 . المصدر نفسه - ص 245

فحرف الفاء صوت شفوي ، ينفث الإنسان الهواء لينطقه ، وما أحسب تكراره في النص إلا من قبيل أن الشاعر يحمل لنا أصوات النسومات وهي تداعبه حين يخلق بخياله في جنبات الأفق .

2- تكرار الألفاظ : من خلال تتبع قصائد الديوان لم أعثر على نماذج كثيرة عمد فيها الشاعر إلى تكرار الألفاظ ، لذلك ما جاء منها كان لغاية أو قصد في نفسه :

نحن الأسود وللآساد عاطفة حب العرين وهل في الحب من عجب ؟¹

قالوا بلادي سبها العالج مكرهه يا ويل من زعموا أن العرين سبي

ورد تكرار بعض الألفاظ في البيتين وهي (الأسود - الآساد) لتحمل دلالة الفخر بالشعب وعزيمته وقوته ، (العرين) للتأكيد على أن الوطن سينجب رجالا يحقون المستعمر ، ولفظه (الحب) لتحمل دلالة التعلق والوفاء للشعب والوطن .

وفي قصيدة ألقاها الشاعر على مسامع كل ممثلي الأمة العربية كرر فيها لفظة (سلام) في الأبيات الإثنا عشر الأولى ، يقول في إحداها :

سلام عليكم طيب مثل باقة تضوع منها في الصباح شذى الزهر

سلام على مهد النبي محمد على مهبط القرآن في ليلة القدر²

والحاح الشاعر على كلمة (سلام) في هذه القصيدة ، إنما يتم عن حالة نفسية داخلية تتسم بالرغبة والأمل بأن تعيش كل الأمة العربية في كنف السلام بعد أن تفتك حررتها من المحتلين .

وفي خطابه للفتاة الجزائرية غداة الاستقلال ، يحث أهاليها على تعليمها لتكون لبنة فعالة في صرح الدولة المستقلة فيقول :

هذا هلال لاح منك ضياؤه ومن الهلال بشائر الأبدار³

1. المصدر السابق - ص 91

2. المصدر نفسه - ص 61

3. عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 167

فالتكرار يظهر في كلمة (هلال) ومن خلال البيت نفهم أن يرمي إلى أن الهلال هو أول الشيء الذي يسير إلى الاكتمال ، فالفتاة ثروة خام (هلال) وإن تعلمت تم الهلال وأصبح بدرًا .

ويتشبث الشاعر بالتفاؤل في حياته ، لأنه يرى ذلك هو الباعث الوحيد الذي يدفعه للاستمرار في الحياة ، ونسيان حزنه ومرضه لذلك ألح على لفظة الأمل :

وابعثي الآمال من مرقدها إن في الآمال ما يشفي السقاما¹

والشاعر ، وهو يتصفح أوراق التاريخ ، عثر على رجال صنعوه مشرقا منيرا ، وترك بعضهم أثرا في نفسه ، فتحول هذا الأثر إعجابا ومحبة لهم ، ومن هؤلاء " يغرطا " بطل الدولة النوميديّة التي كانت الجزائر سليلتها :

يغرطا! نم هنيئا يا يغرطا! لقد سطرت للأجيال خطأ²

3- تكرار الجمل : إن أسلوب تكرار الجمل ظهر لدى الشاعر في قصائده ولكن ليس بالشكل اللافت ، شأنه في ذلك شأن الألفاظ حين كررها ، وإن كان هناك من تفسير فهو يعود إلى رغبته في إثبات معنى معين من خلال تلك الجمل ، أو رفع شأن قيمة إنسانية معينة ، ومن ذلك مكانة مفهوم الوحدة لدى الشاعر جعله يؤكد عليها في أكثر من موضع في نفس القصيدة :

يوحد بيننا دين وخلق وأعلام النجوم مع الهلال

يوحد بيننا ضاد عزيز وقرآن من العصر الخوالي

يوحد بيننا شرقا وغربا ضحايا الحرب في زمن القتال³

فهو هنا ، يؤكد أن الأمة العربية كيان واحد وإن تعددت أجزاؤها ، فمظاهر الوحدة تظهر في تاريخ هذه الأوطان ، ومعالم هويتها ، واشتراكها في الدين واللغة ، ومسيرة النضال ضد المستعمرين من أجل حرية شعوبها .

1 . المصدر السابق - ص 219

2 . المصدر نفسه - ص 121

3 . المصدر نفسه - ص 58

ويوم عودة رفاة الشهيد الأمير عبد القادر إلى أرض الوطن ، كان الشاعر ممتنا لكل شهيد بذل نفسه من أجل أن تعيش الأجيال بعدهم في أمن وكرامة وأكد على هذا المعنى لقيمته في نفسه في أكثر من بيت :

ففضل الفدا نحن هنا اليوم نحييهم بكل حياء

وبفضل الفدا نرفع رأسا بفخار وسؤدد وعلاء

وبفضل الفدا نستقل اليوم أمير الجزائر البيضاء¹

ويبحث الشاعر عن الأمان وعن الخلاص وعن راحة الروح ، يحذوه أمل ورجاء يملأ نفسه في إيجادها ، وهذا الرجاء يظهر في تكراره أسلوب الترجي في هذه الأبيات :

لعل فيه دواء الحب مستترا وبلسما لجراح البغض والشغب

لعل فيه أمانا ظل يرصده ذاك الفؤاد الذي قد بات في رهب

لعل فيه حنانا للذين شقوا والشقو للروح مثل النار للحطب²

وفي رثائه لمن يحب تبادر إلى ذهنه ذلك السؤال الأبدي الذي يتساءل به كل إنسان يفجع بموت أحبائه ، فهذا السؤال يجعل صاحبه يغرق في حسرته وألمه ، فيصبح شبه متيقن أن حياة الإنسان قبل أن يموت وبعده تصبح وكأنها لم تحدث يوما ، وعلى هذه الفكرة أكد الشاعر وهو يكرر قوله " كيف كانت " :

كيف كانت بذلك اللحن تحي كل شيء مثل الضياء السعيد

كيف كانت بذلك اللحن تبكي وتسلي كالبلبل الغريد

كيف كانت تذكى المشاعر في القلب وقد كان جامدا كالحديد

كيف كانت... وكيف صارت... عظاما بل ترابا تحت التراب المبيد³

1 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 120

2 . المصدر نفسه - ص 90

3 . المصدر نفسه - ص 235

ولئن كان قد استعمل الشاعر أسلوب التكرار كظاهرة تركت أثرها على الجانب الإيقاعي و الموسيقي للقصائد ، فإن بعض الدارسين يعزون ذلك إلى النبرة الخطابية التي اختصت بها معظم قصائده ، وما للإيقاع من دور في مثل هذا الشعر الإنشادي والخطابي ، فهو « عنصر تأثيري فعال في الشعر الذي ينشد في المحافل العامة ، ويتخذ طابع القصائد الخطابية من أجل التأثير في الجماهير . »¹

ج - الترصيع : يعد الترصيع لونا من ألوان الزخرفة اللفظية فهو يجمع بين فن السجع وفن الجناس ، وذلك من أجل خلق نغمة إيقاعية بين الأبيات وهو « أن تكون لفظة من ألفاظ الشطر الأول من البيت مساوية للفظ من ألفاظ شطره الثاني في الوزن والقافية ، أي متساوية البناء متفقة الميزان والانتهاء . »²

ومن أمثلة ذلك في قصائد الديوان قول الشاعر وهو يصف جو التقاء الطلبة والمعلمين بحديقة غناء منها لوحة متحركة :

فهذي زهور باسمات إلى الندى وتلك مياه ضاحكات ترقرق

أقح وورود راقصات وسوسن وآس إليها شاخصات وزنبق³

ويظهر الترصيع في البيت الأول بين (باسمات وضاحكات) ، وفي البيت الثاني بين (راقصات وشاخصات) ، ويظهر اتفاق الألفاظ في وزن اسم الفاعل وانتهائها بصوت التاء المضمومة .

ونفس النغمة ظهرت في قول الشاعر وهو يفخر بأجماد الأوراس وبلاد جرجرة ، ويتغنى بجمالها ، وجلال قممها :

و " شلعل الأوراس " شامخ أنفه وأخوه " جرجر " في الفضاء بعيد

الشامخات الشاهقات رؤوسها اللامعات بحضنهن بنود⁴

1 . محمد مندور - الأدب وفنونه - ص 35

2 . د.عز الدين إسماعيل - الأسس الجمالية في النقد العربي - ص 229

3 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 173

4 . المصدر سابق - ص 180

في البيت الثاني ظهر الترصيع بين (الشاححات والشاهقات واللامعات) ، وذلك على نفس الوتيرة في المثال السابق .

وقد أشاد الشاعر بأخلاق أجداده ، وبسيرتهم العطرة ، وحسن اقتدائهم بالسلف السابق ، وبأخلاق النبي الكريم ، واستعمل لذلك مجموعة من الألفاظ المتفقة وزنا وصيغة ، وذلك في قوله :

الصابرون على الأيام جائزة فما استكانوا نوا ولا انقادوا ولا انهزموا

الثابتون أمام الريح إن عصفت لم يثثوا مثلما لم يثث العلم

المسرعون إلى الخير ومغفرة العادلون وجل الناس قد ظلموا

العاملون على تأليف من قطعوا الصافحون لمن زلت به قدم¹

تظهر نغمة اسم الفاعل لصيغة الجمع بارزة بين الأبيات ، وقد استعملها الشاعر ليظهر مدى إخلاصه لهذه الفئة من الناس ، ومدى إعجابهم بسيرتهم وأمله في أن يتأسى بهم خلفهم .

وإن كان الترصيع قد ظهر بشكل واضح وملفت في هذه الأمثلة ، إلا أن الشاعر لم يكلف به تكليفا يجعله يحيد عن مطلبه ، ويتوه عن موضوعه ، لذلك لم يكن له كثير حضور في ديوانه .

د- الجناس : يعد الجناس من الوسائل البديعية التي تداعب سمع القارئ من خلال توافق الألفاظ نطقا واختلافها معنى ، وهذا هو جوهر جماله إذ لا فائدة ترجى إذا كرر اللفظ ومعناه ، ولا يستحسن إلا إذا « ساعد اللفظ المعنى ووازى مصنوعه وطبوعه مع مراعاة النظر ، وتمكن القارئ ، فينبغي أن ترسل المعاني على سجيته لتكتسي من الألفاظ ما يزينها ، حتى لا يكون التكلف في الجناس مع اختلاف معناه ، ويأخذها نوع من الاستغراب . »² ، فجمال التجنيس يكتمل باكتمال جمال المعنى وحسنه .

وفي الديوان نجد عدة مواضع حلاها الشاعر بالتجنيس مع الإشارة أنه في أغلبه جناس ناقص وذلك في قوله مثلا :

1 . المصدر السابق - ص 270

2 . د. محمد محمد طه هلاي - توضيح البديع في البلاغة - المكتب الجامعي الحديث - الإسكندرية - مصر - ط1 - 1997 - ص 88 .

اقصفي مثل الرعود القاصفات واعصفي مثل الرياح العاصفات¹

(اقصفي ، اعصفي) جناس ناقص مع المعنى يتقارب نوعا ما من خلال اشتراك اللفظين في الهجوم والبطش ، وكذلك بين (القاصفات ، العاصفات) .

وفي حثه على الجهاد وبث أسباب الإرادة إلى النصر قال :

بربك أقدم للكفاح مدججا بجزم وعزم يحوان المعايير²

(الجزم ، العزم) يحملان نفس النغمة ، مع أن الأول يعني الصرامة والبث في الأمور دون تراجع ، والثاني يعني الإرادة والإصرار .

ويأمل أن يكون الشباب الجزائري محط ثقة لشعبه ، قادرا على تمل عبء الأمانة :

أيتها الآمال عودي إلى الحمى وجودي على الفتیان والفتيات³

لفظة (عودي) ، ولفظة (جودي) جناس لتقارب نطقهما لكن الأولى بمعنى الرجوع والثانية بمعنى العطاء .

ويصف هول الفاجعة ، وحجم الدمار الذي يلحق قرانا تحت قصف المستعمرين فلا يبقى إلا النساء والأطفال الذين عبر عنهم الشاعر بالجناس :

وهؤلاء أيامى هائمات بها بقربهن يتامى ما لهم دار⁴

وأخذ يصف بعض مظاهر التقدم العلمي في عصره ، وذلك وقت ظهور الأقمار الصناعية ، فيقول :

فكأنما هي في البروج كواكب وكأنا هي في العروج رعود⁵

وفي تحيته إلى أرواح الشهداء :

1 . عبد القادر بن محمد - الديوان - ص 115

2 . المصدر نفسه - ص 83

3 . المصدر نفسه - ص 187

4 . المصدر نفسه - ص 109

5 . المصدر سابق - ص 178

رحم الله أضلع الشهداء وسقاهم بأدمع الأنداء¹

فرغم الاختلاف بين (أضلع ، أدمع) إلا أن النبرة الموسيقية حاضرة بسبب تقارب المخرج الصوتي للضاد والذال ، وكذا للام والميم .

أما الجناس في هذا البيت لم يأت إلا من باب التأكيد وإتمام المعنى :

عطشى تفتش عن عهد مضى وانقضى أرخى عليه جناح الدهر أستارا²

وخلاصة القول أن الشاعر ، كان أصيلا في لغته ، كان ملتزما في تصويره ، استطاع أن يعالج قضايا وطنه ، ويطرق مواضعه بلغة سليمة راقية ، مع أنها كانت شديدة الوضوح ، وذات نبرة خطابية ، فقد كان قاموسه اللغوي يخبر بمدى تعلقه بكتاب الله وتشبعه بالثقافة الإسلامية ، وفي كل ذلك استطاع أن يجاري روح العصر ببعض الاستعمالات اللغوية .

أما من حيث الصورة الشعرية ، فقد رسم لنا الشاعر لوحات فنية في كثير من المناسبات ، واستطاع أن يخاطب حواسنا بصورة جميلة ويدغدغ خيالنا بصور وإيحاءات لطيفة ، وبقدر صراحة لغته ، جاءت صورة خيالية من المبالغة والغموض .

كما أن الرسالة التي حمل الشاعر على عاتقه إبلاغها ، جعلت منه لا يكلف بالخيال كثير كلف ، ولا يحمل نفسه ولا قارئه ولا سامعه عنتا للوصول إلى مقاصده .

ولجبه الشديد لفن العروض وموسيقى الشعر العربي الأصيل ، لم يواجه الشاعر صعوبة في تطويع الأوزان والقوافي والإرواء ، كما تمكن من خوض تجربة « الهندسة الصوتية وحقق بها تشكيلا جماليا وعمقا دلاليا وبعدا نفسيا »³ .

وكما قلنا في بداية البحث أن الديوان مغرٍ بمضامينه على قدر كبير ومع ذلك ، لم يغب منه الجانب الجمالي إلى حد ما .

1 . المصدر السابق - ص 119

2 . المصدر نفسه - ص 275

3 . د. معمر حجيج - محاضرات في موسيقى الشعر - جامعة الحاج لخضر - باتنة - العام الجامعي 2006 م - 2007 م -

خاتمة

من خلال هذه الدراسة يمكن أن نخلص إلى النتائج التالية :-

1. يظهر من خلال التعرف على الشاعر انه رجل نبيل استحق التكريم ، ويكشف المقال التأبيني عن كثير من أعماله التي لم تدرس بعد .
2. يعتبر الديوان بمثابة سجل تاريخي لكثير من الأحداث الوطنية ، وفي المقابل يحكي الكثير من المواقف التي تعرض لها الشاعر في حياته .
3. ضم الديوان قدرا غزيرا من الأشعار الوطنية ، التي استمر في نظمها الشاعر بعد الاستقلال من أجل المساهمة في بناء الشخصية الوطنية لدى الشباب الجزائري .
4. يمثل ثالث الوطن والإسلام والعروبة أهم المضامين التي نظم الشاعر حولها قصائده ، مقارنة بالأغراض التي جاءت لتعبر عن تفاعل ذاتي مع حدث ، أو ذكرى أو مناسبة معينة .
5. تأثر الشاعر في اختيار مواضيع شعره بسابقه من الشعراء وبشيوخه الذين تعلم على أيديهم وأهمهم على الإطلاق الشيخ محمد البشير الإبراهيمي .
6. تميزت لغته بالأصالة والالتزام والرقى ، وقد سالت من منابع القرآن الكريم والثقافة الإسلامية ، وجيد الشعر العربي القديم الذي كان زاده وهو يتعلم .
7. يمكن القول أن الشاعر رغم طبيعة المدارس التي تعلم بها والتي كان حصار المستعمر مفروضا عليها ، واحد من الذين تمكنوا من الحفاظ على انتمائه وقوميته ، ولم تخطفه بهرجة الحضارة للبلد المستعمر ، ففوت عليه فرصة أن يجعله واحدا من أبواقها .
8. لم يكثر الشاعر من الإيغال والخيال ، ولكن ما ورد من صور كانت جميلة استطاعت أن تؤثر في حواسنا ، وتحرك فكرنا وإحساسنا اللطيفة ، وقد أبعد الطابع التوجيهي على اللف والغموض في شعره .
9. اطلع الشاعر على الدعوات الأولى للتجديد في ريعان شبابه ، وكان من المؤيدين للتجديد ، لكنه ظل وفيا للأوزان والقوافي ولم يمل من مصاحبة الخليل في أشعاره .

10. يمكن الختم بالقول أن الديوان وإن كان غزيرا في موضوعاته التي طرقت في ذلك الزمن ، إلا أنه لم يخل من مسحة جمالية تطفو على مخيلة القارئ وهو يتصفح .

مع الأمل أن يفيد هذا الجهد المتواضع ولو بالثر القليل ، والحمد لله الذي بجلاله وعزته ونعمته تتم الصالحات .

قائمة المراجع

قائمة المصادر والمراجع

أ_ القرآن الكريم برواية ورش .

ب_ الكتب :

1. إبراهيم أنيس _ موسيقى الشعر _ الأنجلو _ ط6_ 1988 م.
2. د. إبراهيم خليل _ عروض الشعر العربي _ دار المسيرة _ ط1 _ 2007 م _ 1427 هـ _ عمان الأردن .
3. أبو الحسن حازم بن محمد بن الحسن القرطاجي _ منهاج البلغاء و سراج الأدباء _ تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة _ ط3 _ دار الغرب الإسلامي _ بيروت _ 1986 م.
4. أبو السعود سلامة أبو السعود _ الإيقاع في الشعر العربي _ دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر الاسكندرية .
5. أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ _ البيان والتبيين _ تحقيق عبد السلام محمد هارون _ مكتبة الغانجي _ القاهرة _ ج1 _ 1960 م .
6. أبو العرفان محمد بن علي الصبان _ شرح الكافية الشافية في علمي العروض والقافية _ تحقيق و دراسة د. فتوح خليل _ ط1 _ 2000 م _ دار الوفاء لدنيا الطباعة و النشر الاسكندرية مصر.
7. أبو علي الحسن بن رشيق القيرواني _ العمدة في صناعة الشعر ونقده _ تحقيق وتعليق د. النبوي عبد الواحد شعلان _ ط1 _ 1420 هـ _ 2000 م _ مكتبة الغانجي بالقاهرة _ ج1 .
8. أبو القاسم سعد الله _ محمد العيد رائد الشعر الجزائري الحديث _ دار المعارف مصر _ ط2 _ 1975 م
9. أبو القاسم الشابي _ الخيال الشعري عند العرب _ الدار التونسية للنشر _ ط2 _ 1973 م.
10. أبو هلال العسكري _ كتاب الصناعتين _ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم و علي البحاي _ القاهرة _ 1952 م .
11. د. أحمد أبو حاق _ الإلتزام في الشعر العربي _ بيروت _ دار العلم للملايين _ 1979 م .
12. د. أحمد بن ذياب _ صحائف من التراث _ المؤسسة الوطنية للكتاب _ شارع زيغوت يوسف _ الجزائر _ 1990 م .
13. د. أحمد فلاق عروات _ تطور شعر الطبيعة بين الجاهلية والإسلام _ ديوان المطبوعات الجامعية _ بن عكنون _ الجزائر .

14. د. أحمد كمال زكي _ النقد الأدبي الحديث _ أصوله واتجاهاته _ دار النهضة العربية للطباعة والنشر _ بيروت .
15. أحمد المراغي _ علوم البلاغة ، البيان والمعاني والبديع _ ط2 _ 1984 م _ دار القلم _ بيروت .
16. إنعام الجندي _ دراسات في الأدب العربي _ دار الأندلس _ ط2 _ 1967 م .
17. إيليا الحاوي _ في النقد والأدب _ دار الكتاب اللبناني _ بيروت _ ج5 _ ط1 _ 1980 م
18. ابن الأثير _ المثل السائد في أدب الكاتب و الشاعر _ تحقيق أحمد الحوفي و بدوي طبانة _ نهضة مصر _ القاهرة _ 1962 م .
19. ابن فارس _ الصاحي في فقه اللغة و سنن العرب في كلامها _ تحقيق مصطفى الشويحي _ مؤسسة أ . بدران للطباعة والنشر _ بيروت _ لبنان _ 1963 م .
20. د. بدوي طبانة _ التيارات المعاصرة في النقد الأدبي _ دار الثقافة _ بيروت _ لبنان .
21. د. بدوي طبانة _ قضايا النقد الأدبي _ دار المريح للنشر _ الرياض _ 1404 هـ _ 1974 م .
22. د. بسام موسى قطوس _ سيمياء العنوان _ طبع بدعم من وزارة الثقافة عمان _ الأردن _ ط1 _ 2001 م .
23. جابر عصفور _ الصورة الفنية في التراث الفني والبلاغي _ ط دار المعارف _ 1977 م
24. جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني _ الإيضاح في علوم البلاغة _ تقديم وتبويب وشرح د.علي بوملحم _ ط2 _ 1992 م _ دار مكتبة الهلال _ بيروت _ لبنان .
25. جلال عبد الرحمن السيوطي _ شرح عقود الجمان في علم المعاني والبيان _ دار الفكرة للطباعة والنشر والتوزيع _ بيروت _ لبنان .
26. د. جميل حمداوي _ السيميوطيقا والعنونة _ عالم الفكر _ 1997 م .
27. د. جودت الركابي _ في الأدب الأندلسي _ دار المعارف _ 1966 م .
28. حواس بري _ شعر مفدي زكريا _ دراسة وتقويم _ ديوان المطبوعات الجامعية _ الجزائر _ 1994 م .
29. د. رجاء عيد _ دراسات في لغة الشعر _ رؤية نقدية _ ط منشأة المعارف بالإسكندرية _ 1979 م .
30. د. رجاء عيد _ القول الشعري _ منظورات معاصرة _ منشأة المعارف _ الإسكندرية .
31. د. رشيد يحيى _ الشعر العربي الحديث _ دراسة في المنجز النصي _ إفريقيا الشرق _ 1998 م
32. سيد قطب _ النقد الأدبي _ أصوله ومناهجه _ دار الشروق _ بيروت .

33. سيد نوفل _ شعر الطبيعة في الأدب العربي _ مكتبة الغانجي _ القاهرة _ مصر _ 1945 م.
34. الشريف علي بن محمد الجرجاني _ كتاب التعريفات _ مكتبة لبنان _ ناشرون ط2000
35. د. شفيع السيد _ التعبير البياني _ مكتبة الشباب _ القاهرة _ ط1 _ 1977 م
36. د. شكري عياد _ موسيقى الشعر العربي _ دار المعرفة _ القاهرة _ 1965 م.
37. د. شلتاغ عبود شراد _ أثر القرآن في الشعر العربي الحديث _ مؤسسة الثقافة الجامعية .
38. د. شلتاغ عبود شراد _ حركة الشعر الحر في الجزائر _ المؤسسة الوطنية للكتاب _ 3 شارع زيروت يوسف _ الجزائر _ 1985 م.
39. د. شوقي ضيف _ البارودي رائد الشعر الحديث _ دار المعارف _ ط4 _ 1981 م .
40. د. شوقي ضيف _ الرثاء _ دار المعارف _ ط3.
41. د. شوقي ضيف _ في النقد الأدبي _ دار المعارف _ القاهرة _ ط7.
42. د. الصادق العفيفي _ النقد التطبيقي _ مكتبة الوحدة العربية _ الدار البيضاء _ المغرب .
43. د. صالح خرفي _ الشعر الجزائري الحديث _ المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر _ 1984 م.
44. د. صلاح فضل _ نظرية البنائية في النقد الأدبي _ ط مؤسسة مختار _ القاهرة _ 1992 م.
45. د. عبد العاطي شلي _ فنون الأدب ، دراسة تطبيقية للشعر في عصوره المختلفة ، المقال ، القصة القصيرة _ المكتب الجامعي الحديث _ ط1 _ 2005 م .
46. عبد العزيز سعود البابطين _ مختارات من الشعر العربي في القرن العشرين _ إعداد ماجد الحكواتي ، عدنان جابر _ الكويت _ 2001 م .
47. عبد القادر بن محمد بن القاضي _ بوابات النور _ المؤسسة الوطنية للكتاب _ الجزائر _ 1990م.
48. عبد القادر بن محمد بن القاضي _ الروايات الأربع _ منشورات ANEP _ 2000 م.
49. عبد القادر بن محمد بن القاضي _ صوت الأحرار _ نظمت سنة 1984 م بمناسبة عيد الثورة _ طبعت بالآلة الراقنة .
50. عبد القادر بن محمد بن القاضي _ شعاع الأصيل _ طبع المؤسسة الوطنية للنشر والإتصال والإشهار _ وحدة الرواية _ 2000 م.
51. عبد القادر بن محمد بن القاضي _ الشعر العربي أوزانه وقوافيه _ موفم للنشر والتوزيع _ الجزائر _ 2003 م.

52. عبد القاهر الجرجاني _ أسرار البلاغة _ قراءة وتعليق أبو فهر محمود محمد شاكر _ ط 1 _ دار المدني _ القاهرة _ 1412 هـ _ 1991 م .
53. عبد القاهر الجرجاني _ دلائل الإعجاز _ تصحيح السيد محمد رشيد رضا _ مكتبة القاهرة _ 1961 م.
54. د. عبد الله حمادي _ أصوات من الأدب الجزائري الحديث _ دار البعث قسنطينة _ 2001 م.
55. د. عبد الله الركيبي _ الشعر الديني الجزائري الحديث _ ش و ن ت _ الجزائر _ ط 1 _ 1981 م.
56. د. عبد الله الركيبي _ الأوراس في الشعر العربي ودراسات أخرى _ ش و ن ط _ الجزائر _ 1982 م.
57. د. عبد المالك مرتاض _ نهضة الأدب العربي في الجزائر _ 1925 م _ 1954 م _ الشركة الوطنية للنشر والتوزيع _ الجزائر _ 1983 م.
58. د. عثمان سعدي _ عروبة الجزائر عبد التاريخ _ ش و ن ت _ الجزائر _ 1982 م.
59. د. عز الدين اسماعيل _ الأدب وفنونه _ دار الفكر العربي _ القاهرة _ ط 3 _ 1965 م.
60. د. عز الدين اسماعيل _ الأسس الجمالية في النقد الأدبي _ دار الفكر العربي _ ط 3 _ 1974 م.
61. د. عز الدين اسماعيل _ الشعر في إطاره الثوري _ دار العودة بيروت _ 1978 م.
62. د. علي شلق _ الشم في الشعر العربي _ دار الأندلس _ ط 1 _ 1404 هـ _ 1984 م .
63. د. علي شلق _ السماع في الشعر العربي _ دار الأندلس _ ط 1 _ 1404 هـ _ 1984 م.
64. د. علي علي مصطفى صبح _ من الأدب الحديث في ضوء ضوء المذاهب الأدبية والنقدية _ دار المربخ للنشر _ الرياض _ وديوان المطبوعات الجامعية _ ط 1985 م .
65. د. عمر بن قينة _ في الأدب الجزائري الحديث _ تاريخاً وأنواعاً وقضايا وأعلاماً _ ديوان المطبوعات الجامعية _ 1995 م.
66. د. عمر الدقاق _ نقد الشعر القومي _ منشورات إتحاد الكتاب العرب _ دمشق _ 1978 م.
67. د. علي عيسى العاكوب _ التفكير النقدي عند العرب _ دار الفكر _ بيروت _ لبنان _ ط 1 _ 1997 م.
68. القاضي الجرجاني _ الوساطة بين المتنبئ وخصومه _ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي البجاوي _ المكتبة العصرية _ بيروت _ صيدا _ 1966 م.

69. قدامة بن جعفر _ نقد الشعر _ تحقيق كمال مصطفى _ ط3 _ مكتبة الغانجي _ القاهرة _ 1398 هـ _ 1978 م.
70. كمال أبو ديب _ جدلية الخفاء والتجلي _ دراسة بنيوية في الشعر _ دار العلم للملايين _ بيروت _ ط3 _ 1984 م.
71. كمال عجالي _ ديوان مصطفى بن رحمون _ دراسة فنية تحليلية _ ديوان المطبوعات الجامعية الساحة المركزية بن عكنون _ الجزائر .
72. مالك بن نبي _ في مهب المعركة _ دار الفكر _ بيروت _ 1981 م.
73. المبرد _ الكامل في اللغة والأدب _ تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم _ دار الفكر العربي .
74. محمد بن أحمد بن طباطبا العلوي _ عيار الشعر _ تحقيق عبد العزيز بن ناصر .
75. محمد البشير الإبراهيمي _ عيون البصائر _ ج.2
76. محمد بنيس _ الشعر العربي الحديث _ بنياته وإبدالاته التقليدية _ دار توبقال للنشر.
77. د. محمد زغينة _ شعراء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين _ دار الهدى للطباعة والنشر _ عين مليلة _ 2004 م _ 2005 م.
78. محمد زكي العشماوي _ قضايا النقد الأدبي المعاصر _ ط الهيئة المصرية العامة للكتاب _ 1975 م.
79. د. محمد الطمار _ تاريخ الأدب الجزائري _ ديوان المطبوعات الجامعية بن عكنون الجزائر _ 2006 م.
80. د. محمد العربي ولد خليفة _ الجزائر المفكرة والتاريخية _ أبعاد ومعالم _ دار الأمة الجزائر _ ط 2007 م.
81. د. محمد غنيمي هلال _ النقد الأدبي الحديث _ ط3 _ دار النهضة العربية _ القاهرة _ 1964 م.
82. محمد فكري الجزار _ العنوان وسيموطيقا الإتصال الأدبي _ الهيئة المصرية العامة للكتاب _ 1988 م.
83. د. محمد محمد حسن _ الإتجاهات الوطنية في الأدب المعاصر _ دار النهضة العربية _ بيروت _ لبنان _ ط3 _ 1972 م.
84. د. محمد محمد طه هلاي _ توضيح البديع في اليلاعة _ المكتب الجامعي الحديث _ الاسكندرية _ مصر _ ط1 _ 1997 م.

85. د. محمد مصطفى أبو شوارب _ جماليات النص الشعري (قراءة في أمالي القالي) _ دار الوفاء لنديا النشر والطباعة _ الإسكندرية _ ط1 _ 2005م.
86. د. محمد مندور _ الأدب وفنونه _ دار نهضة مصر _ ط2 _ 2002 م.
87. محمد ناصر بوحمام _ أثر القرآن الكريم في الشعر الجزائري الحديث (1925م_1974م) _ ج1 _ ط1 _ المطبعة العربية غرداية _ 1992 م.
88. د. محمود حسن أبو ناجي _ الرثاء في الشعر العربي _ منشورات دار مكتبة الحياة _ لبنان _ ط2 _ 1402 هـ .
89. مركز الدراسات للوحدة العربية _ بحوث ومناقشات الندوة الفكرية حول القومية العربية والإسلام _ بيروت _ لبنان _ 1981 م.
90. د. مصطفى السعدني _ المدخل اللغوي في نقد الشعر _ قراءة بنيوية _ منشأة المعارف _ الإسكندرية _ مصر .
91. مصطفى ناصف _ الصورة الأدبية _ دار الأندلس _ بيروت _ لبنان _ ط2 _ 1981 م.
92. مفدي زكريا _ المغرب _ مطبعة الأنباء _ 1976 م.
93. منير سلطان _ البديع في شعر المتنبي _ منشأة المعارف _ الإسكندرية _ ط 1993 م.
94. موسوعة شعراء الجزائر .
95. د. ميشال عاصي _ الفن والأدب _ مؤسسة نوفل _ بيروت _ لبنان _ ط3 _ 1980 م.
96. النعمان بن القاضي _ أبو فراس الحمداني والتشكيل الجمالي _ دار الثقافة _ 1982م.
97. نوار بوقريعة ، محمود زمولي _ التكوين عن بعد في اللغة والنصوص _ وزارة التربية الوطنية _ الإرسال الثاني _ ديسمبر 1999 م.
98. د. نور سلمان _ الأدب الجزائري في رحاب الرفض والتحرير _ دار العلم للملايين _ بيروت _ ط 1981 م.
99. الوناس شعباني _ تطور الشعر الجزائري منذ سنة 1945م إلى سنة 1980م _ ديوان المطبوعات الجامعية _ الجزائر.
100. د. وهيب طنوس _ الوطن في الشعر العربي _ منشورات جامعة حلب _ سوريا _ 1980م.
- ج _ الكتب المترجمة :
1. جون كوهن _ النظرية الشعرية _ بناء لغة الشعر اللغة العليا _ ترجمة وتقديم وتعليق : د. أحمد درويش _ دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع _ القاهرة _ 2000م.

2. جيرارد ستين _ فهم الإستعارة في الأدب _ مقارنة تجريبية تطبيقية _ ترجمة : محمد أحمد حمد _
مراجعة : شعبان مكاوي _ المجلس الأعلى للثقافة _ 2005م.
3. هـ _ ب تشارلتن _ فنون الأدب _ ترجمة زكي نجيب محمود _ ط2 _ لجنة التأليف والترجمة والنشر _ 1959 م.

د_ الدواوين الشعرية :

1. أبو الطيب المتنبي _ الديوان _ شرح مصطفى سبتي _ دار الكتب العلمية _ بيروت _ لبنان _
2. أبو العلاء المعري _ ديوان سقط الزند _ دار بيروت للطباعة والنشر _ دار صادر للطباعة والنشر _ بيروت _ 1957 م.
3. أحمد شوقي _ ديوان الشوقيات _ ج2 _ دار العودة _ بيروت .
4. امرؤ القيس _ الديوان _ اعتنى به وشرحه عبد الرحمن المصطاوي _ دار المعرفة _ بيروت _ لبنان _ ط2 _ 2004 م.

هـ _ الرسائل الجامعية :

1. أحمد شوقي الرفاعي _ الشعر الوطني الجزائري من 1925 م إلى 1945 م _ دكتوراه الدرجة الثالثة _ السنة الجامعية 1978م _ 1979م _ إشراف د. عبد الله الركيبي نقلا عن كمال عجالي _ ديوان أبو بكر بن رحمون .
2. خليفة بوجادي _ بوابات النور _ دراسة تداولية _ أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه _ إشراف د. عبد الله بوخلخال _ جامعة سطيف _ 2003 م _ 2004 م .
3. محمد زغينة _ شعر السجون والمعتقلات _ في الجزائر 1954 م _ 1962 م _ رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير _ إشراف د. العربي دحو _ جامعة باتنة _ 1989م _ 1990م . الموافق لـ 1409هـ _ 1410هـ.
4. معمر حجيج _ البعد الوطني والقومي والإسلامي في ديوان التراويح وأغاني الخيام _ لأحمد الطيب معاش _ دراسة تحليلية فنية _ رسالة مقدمة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربي _ جامعة باتنة _ معهد الآداب _ 1992 م _ 1993 م .

و _ المقالات :

1. الشاذلي بن جديد _ مفهوم الثورة الثقافية
2. د. عبد الرحمان شيبان _ من أعلامنا .
3. د. عثمان سعدي _ دور الشعر بالجزائر في بث الوعي القومي .

4. د. علي بن محمد _ عندما يمضي الكبار في صمت ووقار ، لا يبقى إلا العار ملازماً لأهل العار _ الجزائر _ مايو 2010 م.

5. د. علي عباس علوان _ دور الأدب في الوحدة العربية الشعر بين الحريين .

6. د. عمر محمد الطالب _ الأدب والشعور القومي من خلال القضية الفلسطينية .

7. هلال ناجي _ دور الشعر في المغرب الأقصى في مقاومة الإستعمار .

ز _ المعاجم :

_ منجد الطلاب _ دار المشرق _ بيروت _ ط55 _ 1997 م.

ك _ الجرائد والمجلات :

1. الشروق اليومي _ الثلاثاء 08 جوان 2010 م / 25 جمادى الثانية 1431 هـ _ العدد 2958 .

2. مجلة الثقافة _ وزارة الثقافة والسياحة _ الجزائر _ العدد 88 _ سنة 1985 .

3. مجلة الثقافة الجزائر _ السنة 13 _ العدد 78 _ 1983 .

ل _ المحاضرات :

_ د.معمّر حجيج _ محاضرات في موسيقى الشعر _ جامعة الحاج لخضر باتنة _ العام الجامعي _ 2006م _ 2007 م.

م _ المقابلات :

_ مقابلة مع الأستاذ الدكتور : العربي دحو في أفريل 2008 م .

ن _ المراسلات الإلكترونية :

_ مراسلة مع الأستاذ علي بن محمد عبر البريد الإلكتروني يوم الخميس 26 أوت 2010 م على الساعة الواحدة زوالاً ودقيقة واحدة و خمسة وخمسون ثانية (13:01:55) من

madrasala@hotmail.com

ص _ المواقع الإلكترونية :

[www.http://www.albahrainprise.org/encyclopedia/poet/0946 _htm](http://www.albahrainprise.org/encyclopedia/poet/0946.htm)

http://www.wata.cc/forums/showthread.php?t=32351_16/03/2010

<http://thawra.alwehda.gov.sy/print.view.asp07/01/2008>